المقدمة:

لقد أحدث الأديبُ الحقُّ تغييرًا في جغرافية المكان، ويقوم بعد ذلك بإعادة الترتيب وِفقَ الرؤى الذّاتية ..فهناك شخص يقوم بالفعل، ولا يكون هذا الفعلُ خارجَ الزمن فينتج عنه حدث يقع ..فلا وجود لحدث خارج الزمن ،كما لا توجد حركة خارج المكان فلا وجود لأحدهما دون الآخر.

إنّ هذه الثنائية دفعتني إلى البحث في تراث الأندلسيين وتتبّع آثارهم وما خلّفوه لنا من إبداع يزدادُ أصالةً وعمقا في بنية الفكر الأندلسي بمرور الزمن وتواليه.

وكان لي في الموسوعات الكثيرة الاطلاع على ما تختزنه وتحويه من شعر ونثر، ولعلّ ما خلّفه لنا ابن شهيد الأندلسي ما يلفت نظر الدّارس ويشدّ انتباهه ، فهو شاعر وناثر، ثم هو شاب تربّى في قصور الملوك والأمراء، ولازم مجالسهم، وعاش عيشة الموفورين، إنّه من أسرة ذات جاه وسلطان، انتقل بين لهو ومجون زمنا غير قصير لكنّه تألم بألم المكان، وأحسّ بالذي لحق قرطبة من ضرر ودمار جرّاء الفتنة في أخرياتها، وأخرياته. وكان من أوكد آثاره تأثيرا وَ صِيتًا :التوابع والزوابع" فهي رسالة حمّلها أفكاره، وانتقى لها أفضل أشعاره، وضمّنها آراءه النقدية..وجمع كلّ ذلك في هزل رفيع، وجدّ ماتع بديع. وجدت فيها المكان كالزمان يأخذان لهما مفهوما سياسيا ذي مدلولٍ فنّيٍّ ماتع حين يبدع ابن شهيد فيُخْرِجُ لنا نصوصَهُ إن شعرا وإن نثرا.في حلّة قشيبة.وألبِسَةٍ عجيبَة.

وممّا يُلاحظ في البنية المكانية والبنية الزمانية لقصّة التوابع و الزوابع ما يتعلّق بمدى تقبّلها عقائدِيًّا في مجتمعنا ،وهو ممرٌّ لم أشأ أن أدخله ولم أشرْ إليه، لأني أتكلّم عن كاتب استحضرَ ذهنيًّا شخصيّاتٍ أدبيةً من خلال الأعمال التي تركتْها، ولم يتطرّق الكاتبُ في محاوراته معهم عن الجنّة أو النّار، ولم يحكم على أيٍّ منهم بالكفر أو الإيمان.

لقد كان التفاعل الفنّي مع المكان مشكِّلا لشخصيَّاتٍ أخرى غير تلك التي نعرف في الواقع ، فليس الإفليلي ذلك العالم اللغوي ولا ذاك الشارح لديوان المتنبي ،لكنّه تحوّل فنيًّا على أيدي ابن شهيد إلى شخص يتصرّف فيه كما يشاء من أجل أن ينال ما يريد ، مخترقا الزمن الحقيقي والمكان الحقيقي الواقعي، في حلّة إبداعية.

وفي هذه المواقع داخل الرسالة وجدت أنّ المكان عبارة عن ظلال للأحلام ، فقد حاول التّخلّص من المكان والزمن بما يحملان من مفاهيم تقليدية، وإلباسهما لبوسا فلسفية يتمتّعان بشكل مختلف حيث يتشابهان ليحيلهما إلى تلك الحالة الحلمية.

إنّ ثنائية المكان/الزمن في هذه الرسالة، لا تعطيك نفسها بسهولة ما لم تكن تحملُ أدواتِ الاختراق وأجهزةَ الكشف والرّصد في تتبُّع كل جزئيات الرحلة ومكوّناتها.

لقد وجدت المكان عنده بلا جُدُرٍ تحويه ولا حدود تؤطّره ، فقد انفتح ولو كان في المغلق، وانطلق به وراء ما نعرف للبستان، أو السجن ..فالحانة عند أبي نواس

ارتبطت بالجبل، وانتهى الحديث بداخلها عن الفنّ والإبداع وتذاكر الأشعار، فجعل منه فضاءً يمتدّ كالصحراء أو الغيضة لا يشعرنا بجدران أو أسوار تجعل له نقاط انتهاء، كما انعدمت الأبعاد في مجلس الخطباء واحتواه بمعبارة:"ناد عظيم".

وقد اعتمدتُ في هذا الاختراق الواعي للرسالة(المنهج الظاهراتي) لأنّه المنهج المناسب لهكذا دراسة لرحلة يشكّلها الخيال فهو :"المنهج الذي يصلح لموضوع الخيال.." ([1])

ولأنّ المناهج قد تتساند، وتتداخل في الكثير من الدّراسات ،فقد استعنت بالإحصائي في مواقع الحاجة حين البحثِ عن عناصرِ المكان أو الزمن ومفردات كلّ منهما في كل أدب ابن شهيد أو في الرسالة فقط بكل ما فيها من شعر ونثر، وفي مختلف المواقع التي تواجد فيها ابن شهيد وتابعه "زهير بن نمير".وقد استعنت بالمنهج التاريخي حين الحديث عن الحوادث والأحداث التي ألمت بالمكان في قرطبة وفي الزمن الذي شهد الفتنة

وقد قسّمت الدّراسة إلى مقدمة و أربعة أبواب في كل باب أربعة فصول في كل فصل عدة مباحث. وخاتمة جمعت فيها خلاصة ما توصّلت إليه.

حاولت من خلال كل ذلك استغراق المكان والزمن استغراقا كلّيًّا من حيث الدّراسةُ المعمّقةُ في أدب ابن شهيد عموما، واعتمدت رسالته :"التوابع والزوابع" الأنموذج

[1] /غاستون باشلار.جماليات المكان.تر/غالب هلسا.المؤسسة الجامعية للنشروالتوزيع.بيروت(د.ت) من مقدمة المترجم..ص:8

الحيّ لتطبيق هذه الدّراسة. فكان البَاب الأول الحَديث عن عصر الكاتب وحياته، فتكلّمت عن الأندلس متمثّلا بقرطبة مكانا، وبابن شهيد زمنا وهو ابنها الوفي ..وذكرت ما اعترى المدينة من تلوّن كثير في مختلف الحيوات السياسية والاجتماعية والثقافية ، وحركة ابن شهيد في كل هذا. وقسّمت كل ذلك بين فصلي الباب الأول والثاني، وأمّاالفصل الثالث فقد أفردته لابن شهيد ، وفي الفصل الرابع تحدّثت عن مكانة أدب ابن شهيد في الأندلس على اعتبار أنّ عملية التأثر والتأثير من الضروري في كلِّ إنتاجٍ وإبداع.

وفي الباب الثاني كان خاصًّا برسائل ابن شهيد كلّها ومصادر ثقافته المختلفة في الفصل الأول، وفي الفصل الثاني تحدّثت عن التعريف برسالة التوابع والزوابع، وفي الفصل الثالث بحثت عن المكان في أدب ابن شهيد ، وفي الفصل الرابع كان الحديث عن الزمن وإحصاء عناصره .

وفي الباب الثالث تحدّثت عن المفاهيم الفلسفية للمكان وللزمن فكان لكل منهما فصله الخاص من التحليل والتعريف بين علماء الغرب وعلماء العرب قديما وحديثا. وفي الفصل الثالث عمّمت الحديث عن عناية أدباء الأندلس بالمكان وبالزمن، وخلُصت في الأخير إلى الحديث عن علم الدّلالة بين النظرية والتطبيق على اعتبار أنّه قاعدة العمل لاختراق دلالات المكان ودلالات الزمن في :"التوابع والزوابع"

وأمّا الباب الرابع فكان بداية لما ختمت به الباب الثالث، وهو دلالات المكان ودلالات الزمن، فقمت في الفصل الأول بإحصاء المكان في الرسالة إحصاءً دقيقا، ومثله عن الزمن في الفصل الثاني، وفي الفصل الثالث فصّلتُ الحديثَ عن المعنى الدّلالي لأيقونتي المكان والزمن عند ابن شهيد. وفي الفصل الرابع والأخير خلُصْتُ إلى الحديث عن خاصيتي المكان والزمن في رسالة "التوابع والزوابع".

وفي الخاتمة خلصت إلى جملة من النقاط توصَّلتُ إليها في هذه الدّراسَة ، وهي استنتاجات تعدّدت بين المكان والزمن تجاوزت العشر نقاط ،ولا أحسب أنّها كل ما في الرسالة ،فيمكن لغيري أن يجد غيرها، والدّراسة مفتوحة كالموروث الأندلسي على كلّ الدراسات.

ولا أعتقد أنّ بحثا يستغرق مدوّنة من التراث بحجم توابع ابن شهيد وزوابعه، لا يلقى صاحبه التعب والجهد الكبيرين، وكان أوّل هذه الصعوبات المرجع الأساس، وهو مصدر الدّراسة، فقد توزّع النصّ بين مصادر أندلسية متنوّعة كذخيرة ابن بسام، ولكن صوتا بداخلي كان يقول لي:"استزد فليست وحدها الكافية" فانفردت باليتيمة أستفسرها وأستخرجُ منها نثر ابن شهيد ،فلم أفزْ بأكثر ممّا أعطاني سابقه، ومِلْتُ إلى المقري أسائل نفحَه فما أعطاني غير القليل، وإن كنت لا أنكر انتفاعي بحديثه عن بلاد الأندلس وأهلها ،وحياة المجتمع وتركيبته، وتفاعل عناصره بينها. وكان لي أكثر من لقاء مع المُغرب والمطمح والمقتبس والمعجب والطبقات والوافي والوفيات والخريدة وغيرها، وقد قضيت مع كلّ منها وقتا يطول أو يقصر بحسب

حاجتي لحمولة كل منها. ومن مراجع المحدثين فقد تنوّعت بين البحث عن دراسات المكان ودراسات الزمن والحديث عن الأندلس في إبداع الشعراء وما كتب النقاد والدّارسون في ذلك ما استطعت التّوصّل إليه ، ولعلّ أهم هذه المراجع ما اعتبرته مصدرا أيضا ما قام بتحقيقه زكي يعقوب عن أدب ابن شهيد نثرا وشعرا وهو الموسوم بـ:"ديوان ابن شهيد ورسائله" وكان البستاني حقّق ودرس وشرح الرسالة دراسة مستفيضة، انتفعت بما فيها انتفاعا غير خافٍ.. وكان للدكتور إحسان عباس الأثر أيضا بكتاباته عن الأندلسيين من خلال تحقيق الذّخيرة أو عصر الإمارات ومرجع الدكتور مصطفى السيوفي عن تاريخ الأدب الأندلسي والدكتور عبد العزيز عتيق في الأدب العربي في الأندلس وغيرهم غير قليل.

وأغلب دراسات الغربيين كانت عن المكان أو الزمن كفلسفة المكان لغاستون باشلار مثلا وأشكال الزمان والمكان في الرواية لميخائيل بختين، والزمن المروي لبول ريكور وغيرهم..

وممّا استعنت به في علم الدّلالة ما استفدت منه لمحمود عكاشة الدّلالة اللفظية.. أو علم الدّلالة في الكتب العربية لأحمد عبد الرحمن حمّاد، وغيرها ومن الغربيين بيير جيرو أو كلود جرمان وجون لاينز في علم الدّلالة..ومن المؤلفات العربية كابراهيم أنيس في دلالة الألفاظ.

ومن الصعوبات أن المراجع أغلبها لم تتناول المكان أو الزمان في الأدب الأندلسي عموما، والتوابع والزوابع خاصّة، وما كان من بعضها في التناول كان شحيحا يقتصر على ديوان واحد أو أديب واحد، أو عصر واحد [2] ودراسة المكان أو الزمان من الدّراسات المتأخرة في كلّ الأمم، على الرّغم من وجودها في المتون منذ الكتابات الأولى والرسومات الحجرية، لكنّهما كمكوّنين فنّيين للعملية الإبداعية وأهمّيتهما في تشكيلها وبنائها لم يكن الأمر كذلك.

وما يلاحظ ـ حين البحث في علم الدّلالة ـ هو تزاحم المصطلحات وكثرتها، حتى ليتاخل الأمر ويستغلق، ممّا أضطر إلى الاستنجاد بالمعاجم المتخصّصة للتمييز بين مصطلح وآخر، والتفريق بين موضعه هنا، وموضعه هناك، وبين الغرب والعرب .

ومن أهداف الدّراسة التي قصدتها في المجمل:

1/الربط الفلسفي بين مفهومي المكان والزمان الفلسفيين من جهة ومفهوم الإبداع ،على مابينهما من تناقض في المصطلحين.

2/قدرة الشاعر على توظيف المكان والزمن كدعامتين يبني من خلالهما توجّهه الفكري وموقفه السياسي والأدبي من أحداث عصره.

---

[2] /ينظر في ذلك كتاب:أبعاد المكان لهيلة عبد الرحمن المنيع/او جمالية المكان القسنطيني للخضر بن السايح/من مراجع الدّراسة.

3/ متعة النص الأدبي عندما يتعلّق بمصطلح فلسفي يتجاوز حدود الدّفاع البسيط عن مكانته بين أدباء عصره ،وإظهار آرائه النقدية .

4/التفاعل بين طَرَفَيْ النَّصّ [الناص/المتلقي] وإقحام طرف ثالث ليكون حكما، يقدّم رأيا ،ويصدر حكما يكون مأمولا من النّاص.

5/التعبير عن حالات النفس البشرية المختلفة من خلال حركات داخل الزمن بأبعاده الثلاثة:الماضي بكلّ ما حواه/الحاضر بصراعاته المتتالية/والمستقبل باستشرافاته وتطلعاته وآماله.

6/الاطلاع على الاستعمال الدّقيق لمفردات الزمن ومفردات المكان في مختلف السياقات ،ودلالات كل منها.

7/الحياة بكل تناقضاتها محمولة في أيقونتي المكان والزمن من خلال الاستعمالات المتكرّرة والكثيفة، لما في نفس الأندلسيّ من تعلّق بالمكان البعيد [المشرق] ومنها تسمية مدنه بتسميات مشرقية.

8/قدرة الشِّعر خاصَّةً على استعمال الزَّمَن استعمَالا ذا حُمُولَةٍ دلاليَّة تشي بالتّبرّم منه حِينًا، وبالتوافق معه أخرى، وبالقدرة على تسلّله وانسيَابِهِ إلى أعمَاق الشاعِر ليتَجَلّى في إبدَاعه ومواقفه المختلفة من أحْدَاث عصره.

9/اعتبار الأندلسيين أنّ المكان جزء من كيانهم ،وارتباطهم به دليل وفاء له ولمن ارتبط به من حكام وقادة وعلماء.

10/طرافة الموضوع ،وقلّة البحوث في مادة الزمن عموما وفي الأدب الأندلسي وأدب ابن شهيد بالخصوص .

ومن الشكر الذي يجِبُ لأهله أن أفردَ ما أراه لصَاحبِه فَضِيلة المشرف:

الأستاذ الدكتور:.أحمد جاب الله../

الذي رعى البحث في مهده، وتتبّع حبوه ورأى وقوفه على رجليه حتى أصبح شابّا قويّا يسمع ويعي، يضيف إليه وينقص منه، ويعدِّل مايراه يخدم المحتوى العام، واستمعت لكل ذلك استماع النَّهم إلى الاستزادة والعليل إلى العِيَادة ..فخرجت منها شديد القوة ، متين القِوى، أحمد الله إلى الرجل حمد الشاكرين، الذّاكرين لأفضاله وتوجيهاته القيّمة..

وهل أنسى فرصة الشّكر والتّنويه بهذا الصّرح العلمي الراقي في الأوراس الأشمّ ، على ما يقَدّم لبلادنا من نور تستضيء به،وضياء تهتدي به مسحًا للجهل ،ورفعا للعلم إلى مراتبه التي يجبُ أن يكون عليها دائمًا..فلجميع المنتسبين ألف شكر وتحيّة..

ولا أنسى كلّ من وقفَ يعضدني ويشدّ على يدي ويؤازرني من قريب أو بعيد، وكلّ من زوّدني بكلمة، أو أشار عليّ برأي، أو مدوّنَة أو مَجَلّةٍ أو كتَاب أو وجَّهني إلى مكتبَة عَامّة أو خاصّة، أو جَاءَني منها بمرجع..

لهؤلاء جميعا أقول لهم:"جعل الله ما قمتم به في موازين حسناتكم وتولاكم الله بالأجر عنّا.."

وإذ أذكر في الأخير الحبيب المصطفى بالصلاة والسلام، والله المتفضّل علينا بالخير والإنعام. فأكيد مني ويقيني أنّ البحث في بداية الطّريق.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الباب الأول: ابن شهيد عصره وحياته.....01

الفصل الاول:**الحياة السياسية والثقافية في قرطبة**:

أ/الحياة السياسية.....**03**

ب/ **الحياة الثقافية**.....15

الفصل الثاني:

الحياة الاجتماعية:.....27

الفصل الثالث:

حياة ابن شهيد وسيرته:.....36

الفصل الرابع:

مكانة أدب ابن شهيد في الأندلس:.....53

ابن شهيد عصره وحياته

إنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أنْ ينفصلَ عن حركيّةَ مجتمعه، ولا عن سيرورة التاريخ الذي يشاركُ في صناعته سواء أكان يدري أو لا يدري، فهو جزء من كيَان هذا المجتمع، يتأثر به ويؤثّر فيه، ولا يقتصر هذا الأمر على عصر دون آخرأو مجتمع دون غيره، بل هي سنة الحياة مكانا وزمانا.:"يقول أساتذة الأدب المقارن إن من العوامل الأولى لعالمية الأدب وازدهار تأثيره في كثير من الآداب الأخرى شعور ذوي العقليات الناضجة بعدم كفاية أدبهم في التعبير عن رغبات النفس، ومبتكرات الحياة فيتجهون إلى أدب آخر يجدون لديه دمًا جديدا ينقلوْنَه أو ينقلونَ منه إلى أدبِهم المُحتَاج، فتجدُّ به روحٌ أخرى ويغمرُه نشاط يعيدُ إليه بعضًا من فنَاء النَّفس وشبَاب الروح، ولذلك يقول (غوته)الشاعر الألماني الطائر الصِّيت:"ينتهي كل أدب إلى الضَّيق بذات نفسه إذا لم تأتِ إليه نفائسُ الآداب الأخرى لتجدّدَ الخَلِقَ من ديباجَته.."([1])

فلكل مجتمَع رجَاله من علمَاءَ وشعراءَ وأدبَاء، يتعاملونَ مع البَيْئةِ المجتمَعِيَّة سياسيًّا ،وحينَ نريدُ أن نتكلمَ عن ابن شهَيد لا بدَّ أن نتكلمَ عَن الظروف المُحيطة بهِ سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا وبقرطبة عامَّة .

[1] /محمد رجب البيومي.الأدب الأندلسي بين التاثر والتأثير.إدارة الثقافة والنشر جامعة الإمام السعودية.1980 ص:39

أ / الحياة السياسية:

تعتبر مدينة قرطبة بالأندلس حاضرتها الأولى، ورأس مملكة الدنيا حينها،وهي :"ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة - أعادها الله تعالى للإسلام – وبها الجامع المشهور، والقنطرة المعروفة بالجسر.

وقد ذكر ابن حيان أنه بـُنِيَ على أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ونصه، وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذي ما يعرف في الدنيا مثله،

وفيها يقول بعضُ علماء الأندلس:

بأربعٍ فاقتِ الأمْصَارَ قرْطُبَةٌ *** مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الوَادِي ، وَجَامِعُهَا

هَاتَان ثنتَان، والزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ *** والعِلْمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ، وَهْوَ رَابِعُهَا.."([2])

ويضيف شهادات آخرين في مدينة قرطبة:"وقال الحجاري في "المسهب": كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية، وإليها كانت الرحلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بديباج المروج مطرز بالأزهار، تصدح في جنباته الأطيار، وتنعر النواعير ويبسم النوار، وقرطاها الزاهرة والزهراء، حاضرتا الملك وأفقا النعماء والسراء. وإن كان قد أخنى عليها الزمان، وغير بهجة أوجهها الحسان، فتلك عادته وسل الخورنق والسدير وغمدان، وقد أعذر بإنذاره إذ لم يزل ينادي بصروفه: لا أمان لا أمان، وقد قال الشاعر:

ومازلت أسمع أن الملوك تبني على قدر أخطارها.

[2] / أحمد بن محمد المقري التلمساني/نفح الطيب/تح.إحسان عباس.دار الأبحاث.بيروت. مج 1./ 2008. ص:13

قال ابن سعيد: ولأهلها رياسة ووقار، لا تزال سمة العلم والملك متوارثةً فيهم.

لما قال السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي: ما عندك في قرطبة؟ قال له: ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها، فقال السلطان: إن ملوك بين أمية حين اتخذوها حاضرة مملكتهم لعلى بصيرةٍ، الديارالمنفسحة الكثيرة، والشوارع المتسعة، والمباني الضخمة المشيدة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج الناضر، والمحرث العظيم،والشعراء الكافية، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها، قال: فقلت: ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول.."."([3])

لقد كانت قرطبة عاصمة للأندلس كلِّه، وكانت في عهد الناصر أرقى مدن الأندلس وأعظمها شأنا، وكان تنظيم الإدارة فيها تنظيما دقيقا ،فقد أوكل لشخصيات معروفة دواوين الخدمة العامة..:" ثقف الناصر أمور الخدمة السلطانية، ووزعها بين وزرائه؛ فقلد الوزير جهور بن أبي عبدة النظر في كتب جميع أهل الخدمة؛ وقلد الوزير عيسى ابن فطيس النظر في كتب أهل الثغور والسواهل والأطراف وغير ذلك؛ وقلد الوزير الكاتب عبد الرحمن الزجالي النظر في تنفيذ كل ما يخرجه من العهود والتوقيعات، وينفذ به الأمر أو الرأي وغير ذلك؛ وقلد الوزير محمد بن حدير النظر في مطالب الناس وحوائجهم، وتنجيز التوقيعات لهم. فالتزم القوم ما ألزموا؛ فاعتدل بهم ميزان الخدمة، وسهلت مطالب الرعية.."([4]) .

نشأ ابن شهيد في قرطبة، وامتدت حياته حوالي ست وأربعين عاما (382هـ /426 هـ فقد عاش حياة الأمراء. نشأعلى الاعتزازبالذات وبالنفس، ونظر إلى حسبه ونسبه فوجدهما يمتدّان به بين أجنحة المجد، فهو من أسرة وصلت الوزارة منذ أن كان جدّ أبيه وزيرا للخليفةِ الأمويّ الناصرعبد الرحمن الثالث، وهو أول من لُقِّبَ بذي

3 / أحمد بن محمد المقري التلمساني/نفح الطيب/تح.إحسان عباس.م.س.ص:14/13

4//ابن عذارى المراكشي.البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.تح/ج.س.كولان/ليفي بروفنسال.دار الثقافة بيروت.ط.3/1983.ص:2/220

الوزارتين وقد كان والده وزيرًا لدى المنصور بن أبي عامر"وفي هذا الجوّ المفعم بالمحبّة والمودّة يظلله النعيم وكثرة المال،وتوفّرالجاه والسلطة، نشأ ابن شهيد الطفل الصغير، فرضع حبّ الترف والبذخ،والتعلق بالمال والحرص على الإنفاق "[5].

وقد عاصرَ ملوك بني عامر[الدولة العامرية] وكانواامتدادا تاريخياً لخلفاء الدولة الأموية. والحال أن الأمرالسياسي للدولة العامرية كان حازما في بدايته منذ استطاع الحاجب الملقب بالمنصورأن يستميل صبح أم ولي العهد الأميرهشام الملقب بالمؤيّد ويستولي شيئا فشيئا على الحكم، واستطاع أن يحيّدَ خصومه الواحد تلوالآخر..وبنى مدينة الزاهرة في مقابل الزهراء التي بناها الناصر قبل ذلك، ونقل إليها أدوات حكمه.. بل إنه فكّر في نقل الخلافة إليه:"وذكر ابن حزم في رسالته "نقط العروس" أنه فكّر في عزل الخليفة هشام وتنصيب نفسه خليفة واستشار نفرا من الفقهاء فاختلفوا بين مؤيّدين ومعارضين. فرجع عن ذلك، واكتفى بلقبه المنصور."[6] .

واستقدم المنصور جيشا من البربر[7] ليؤمّن ملكه ويأمن الانقلاب عليه.. وكان كثير الغزوات قيل إنها زادت عن الخمسين. وكان هذا الجيش نعمة في البداية على الحياة

---

[5] / حازم عبد الله خضر.ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه، ،منشورات وزارة الثقافة والإعلام،الجمهورية العراقية،سلسة الأعلام المشهورين(19) دار الشؤون الثقافية والنشر ،1984.ص:20

[6]. / شوقي ضيف .تاريخ الادب العربي.عصر الدول والإمارات..دار المعارف القاهرة ط.2009/5.ص:33

[7] / يقصد بالبربر الجماعات التي أقامت منذ أحقاب بعيدة في الشمال الأفريقي من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً وينسب السلاوى كلمة بربر إلى بر بن قيس بينما يرجع ابن خلدون الكلمة إلى كثرة بربرتهم ، والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ويرجعهم البعض الآخر إلى لفظ بربروس وتعني الرافضة للحضارة الرومانية . وقد عاش البربر على شكل جماعات وبعضهم عاش داخل المدن واختلطوا بمن احتل البلاد كالرومان والوندال وغيرهم والغالبية عاشت على شكل قبائل وجماعات واتخذت من سهول وجبال المنطقة موطنا وسكناً ، راجع ، الموسوعة الإسلامية العامة ،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة، 2001م،ص275.

السياسية في قرطبة حين استقر الأمر واستتبّ الوضع للأمويين لكنه في ما بعد انقلب وبالا عليهم ووقعت قرطبة في فتنة كبرى انتهت بالقضاء على الدولة الأموية:"وقد أخطأ ابن أبي عامرفي تكوينه الجيش البربري الذي أنزله قرطبة إذ سيكون له . فيما بعد . أثر سيءٌ في فتنتها التي طالت سنين متعاقبة انتهت بالقضاء على الدولة الأموية،.."[8] وانتهى حكم أبي عامرسنة 392هـ .

وكان المنصوربن أبي عامرحاكما يشهد له المؤرخون بالورع والتقوى والعدل بين الناس، بل يروي ابن حيان أمرا طريفا وقع له في مجلس المنصور وهو حينئذ لا يزال غرا شابًّا .يقول ابن حيان:" بكَّتَني المنصورُ يوْمًا عَلى بَعْضِ ما أنكرَهُ مِنِّي تبْكِيتًا بَعَثَ مِن فَزَعِي مَا اضْطرَبْتُ مِنْهُ فأشْفَقَ عَليَّ، وَخَفَّفَ عَنِّي وَأنْفَذَنِي للوَجْهِ الذِي اسْتَنْكَرَ فِيهِ بُطئِي، فَعُدْتُ لتَمَامِهِ بَعْدَ أيَّام .فاستوقفني وَأخْلَى مَجْلِسَهُ، ثمَّ أدْنَانِي فَقَال: رَأيْتُ مِنْ ذُعْرِكَ مَا اسْتَنكرْتُ، وَمَنْ وَثِقَ باللهِ بَرِئَ مِنَ الحَوْل والقوَّة للهِ ،وإنَّمَا أنا آلةٌ مِنْ آلاتِهِ :أسطو بُقُدْرَتِهِ، وَأعْفُو عَن إذنِه، ولا أملك لنفسِي إلا مَا أمْلك مِن نَفْسِي لِسِوَاي، فَطَامِنْ جَأشَكَ، فإنَّما أنَا ابْنُ امْرَأةٍ مِنْ تَمِيم طالمَا تقوَّتَتْ من غزَلهَا أغدُو به إلى السُّوق، وأنا أفرح الناس بمكانه، ثم جاء من أمر الله ما تراه. ومن أنا عند الله لولا عَطفي على

[8] / شوقي ضيف .تاريخ الادب العربي.عصر الدول والإمارات..م.س/.ص:33

المسْتَضْعَف المَظلوم وَقَهْرِي للجَبَّار الطَّاغِي؟"(9) .وَتَوَلَّى الأمَرَبَعده ابنُه المظفر الذي لقّب أيضا بسيف الدولة .

ويذكر المؤرخون أن الأمراستتبَّ تمَامًا وخلُصتِ الرعيّةُ إلى الأمْن والدَّعة وتفرغت لشؤونها لا يخافون على أنفسهم ولا على أملاكهم. وسارسَيْرة والده في الجهاد والغزوات، وتوفي في غزوة كبيرة سنة 399هـ .، وقيل إن موتته شابها الشك، وأنه مات مسموما..وخلفه أخ له عُرف بالفساد وضعف الشخصية والميل إلى اللهو وشرب الخمر،وقد قتله الجند في جمادى الأولى سنة 399هـ..وبه انتهت الدولة العامرية في قرطبة ..

وقد اتفق الأمويون على خلع المؤيّد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار، ويبدو أنه كان طائشا، فناصب البربر العداء، مما عزا بسليمان بن الحكم أن يجتمع بهم خارج قرطبة وبايعوه سنة 400هـ وتلقّب بالمستعين وخرجوا به إلى طليطلة ليستعين بالجلالقة على نصرته فكان له ذلك. وحاصروا قرطبة وتداول أمرالاستعانة بالجلالقة(10)، وحصار قرطبة والفرار إلى طليطلة وانتهى أمرها بدخول جيش البربر إليها في 403هـ وقتلوا هشام المؤيّد ونصَّبوا المستعين فقتله علي بن حمود سنة 407هـ ولم يلبث أن قتله

9/ ابن حيان.المقتبس من انباء أهل الأندلس. تح: محمود علي مكي.وزارة الأوقاف.القاهرة.1415/1994 [د.ط] .ص:17

10/جاء في الخريدة:" أرض الجلالقة: وهي شمالي الأندلس؛ وهي أرض واسعة؛ وبها أمم لا تحصى كثرة، ومدن عظيمة وقرى عامرة. والغالب على أهلها الجهل والحمق. ومن زيهم أنهم لا يغسلون ثيابهم أبدا بل يلبسونها وسخة إلى أن تبلى؛ ويدخل أحدهم بيت الآخر بغير إذنه، وهم مهملون في أديانهم كالبهائم بل أضل.

غلمانه سنة 408هـ ثم يحي بن علي سنة 412هـ وتلقّب بالمعتلي(11). ثم نازعه المأمون فثار عليه أهل قرطبة ليبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبارسنة 414هـ فاستأثر بالبربر مما ألّب عليه العامة فثاروا عليه في أقل من شهرين من حكمه، وبايعوا محمد بن عبد الجبار الملقّب بالمستكفي بالله..واستولى يحي بن علي بن حمود على قرطبة سنة 416هـ .وما لبث أن ثارعليه أهل قرطبة سنة بعد ذلك وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد على بعض الثغور.وتلقّب بالمعتدّ، وخلعه أهل قرطبة سنة 422هـ وهي سنة سقوط الخلافة الأموية ببلاد الأندلس..

ومما سبق يتضح أن ابن شهيد عاصر الفترة العامرية والفترة الحمودية في أخريات الدولة الأموية..ومن الخلفاء الذين عاصرهم نجد من العامريين:

المنصور الحاجب

المظفر

الناصر بالله

محمد بن هشام

المستعين

ومن الدولة الحمودية (12)

---

11 /وكان قد اتخذ وزيرين أبا عبد الله بن الفرضي،وابن الفتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد ممّا جعله يزجّ به في غياهب السجن فترة ظلّ فيها يستعطفه حتى ردّ إليه حريته:شوقي ضيف.تاريخ الادب الاندلسي.عصر الدول.م.س.ص:450

12 / بنو حمّود : من ملوك الطوائف في الأندلس، وقد سُمّيت على اسم مؤسسها حمّود، من نسل إدريس بن عبد الله، أي أنهم من الأدارسة. بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، إلا أنهم كانوا ينتمون في الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير، إلى البربر ، وتوالى على الحُكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بني حمود ، هم الناصر والقاسم والمعتلي ، وثلاثة من بني أمية ، هم المرتضى والمستظهر والمُسْتَكْفي ، وتداخلت ولايات هؤلاء الخلفاء ، راجع ، ابن بسام ، تحقيق سالم البدري ، ج 1 ، ص 60 ، نقلا عن ابن حيان ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، دار المعارف، ص 43 – 44، الحميدي: جذوة المقتبس ، ص 22 ، ابن عذاري : البيان ، ج3 ، ص 122 ، عنان : دولة الإسلام ، جـ 2 ، ص657

علي بن حمود

يحي بن حمود [المعتلي]

المستكفي بالله

هشام بن محمد الملقب بالمعتدّ (13) .

ويجمع كل هذا الحميدي في الجذوة في قوله :" كان الحكم المستنصر مواصلا غزو الروم، ومن خالفه من المحاربين، فاتصلت ولايته إلى أن مات في صفر سنة ستّ وستين وثلاثمائة وقد انقرض عقبه، ثم ولي بعده ابنه هشام يكنى أبا الوليد، وأمّه أم ولد تسمى صبح، وكان له إذ ولي عشرة أعوام وأشهر، فلم يزل متغلَّبًا عليه، لا يظهرولا ينفَّذُ له أمر، وتغلّب عليه أبوعامر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور، فكان يتولى جميع الأمور إلى أن مات فصار مكانه ولده عبد الملك بن محمد بن أبي عامر الملقب بالمظفّر فجرى على ذلك أيضا إلى أن مات، فصار مكانه أخوه عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر فخلط وتسمّى ولي العهد، وبقي كذلك أربعة أشهر إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار يوم الثلاثاء لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة فخلع هشام بن الحكم، وأسلمت الجيوش عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر، فقتل وصلب وبقي كذلك إلى أن قتل محمد بن هشام بن عبد الجبار وصرف هشام المؤيّد إلى الأمر وذلك يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة أربعمائة، فبقي كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان ، واتّصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة، فدخل البربر مع سليمان قرطبة، وأخلوها من أهلها، حاشا المدينة وبعض الربض الشرقي، وقتل هشام، وكان في طول دولته متغلبا عليه لا ينفذ له أمر وتغلّبَ عليه في هذا الحصار واحد بعد واحد من العبيد، ولم يولد له قَط.."(14)

---

13 / ينظر في ذلك : نفح الطيب للمقري ج/1 صص:420/410/333/332/321/320

14 / الحميدي .جذوة المقتبس في ذكر ولاة المغرب والأندلس.الدار المصرية للتأليف والنشر.1966.دون محقق.ص:17

وقد زاد من اضطراب الأوضاع في الأندلس – خاصة ما حدث في حاضرتها قُرْطُبَة – أن تدخّل البربرفي شؤون الحكم، وعملوا على نشر الدّمار وترهيب الناس، ودفعت قُرْطُبَة ثمن مقاومتها أنهارا من الدماء، وقتل الكثير من أبنائها دون تمييز بين العامة والعلماء ([15])، وبين الحاكم والمحكوم، من بينهم على سبيلِ المثال لا الحصْر: أبو عمر أحمد بن بريل المقرئ، الذي استُشهِد بعقبة البقر صدْرَ شوال سنة 400 هـ، وأبو عمر أحمد بن محمد بن مسعود، وأبو القاسم خلَف بن سَلَمة، وأبو الوليد عبدالله بن محمَّد بن نصر الأزدي (المعروف بابن الفرَضي) ، الذين قُتِلوا يوم "دخل البربر قرطبة" في شوَّال سنة 403 هجرية([16]).

ودخلت البلاد بعدها في سلسلة من الأحداث واضطربت الأوضاع، واستمرت النزاعات التي شارك فيها الجميع من بربر وصقالبة ([17]) بل و أهل قرطبة أيضا.

لقد انتهت قرطبة إلى فتنة كبرى لم يكن لينجوَ منها حاكم أو محكوم، فكما اتضح من حركية الحكام أن العزل والقتل على الحكم كانا بباب السلاطين لا يغادرانه، وكان

---

[15]/ فقد قُتِل سعيد بن منذر ، خطيب المسجد الجامع منذ أيام الحكم المستنصر (350 – 366 هـ / 961 – 976 م) ، وقتل ابن الفَرَضِي صاحب تاريخ علماء الأندلس ، راجع الطاهر أحمد مكي : دراسات عن ابن حزم . ط 4 ، دار المعارف 1993 ، ص 103 .

[16] / انظر في هذا الشأن: كتاب الصِّلة، الجزء الأول، (ص: 50)، و(ص: 59، وص: 260، وص: 391)، وكذلك نماذج أخرى يتضمَّنها الجزء نفسه، والجزآن الثاني والثالث.

[17]/ كان الجغرافيون العرب يطلقون هذه التسمية على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخرز بين القسطنطنية وبلاد البلغار ثم اكتسب اللفظ مدلولا خاصا في أسبانيا الإسلامية فصار يطلق أولا على أسرى الحرب الذين كانوا يقعون في أيدي الجرمان ويباعون للمسلمين في شبه الجزيرة وكان لفظ الصقلبي ينسحب في عصر الرحالة ابن حوقل في القرن العاشر على الرقيق الذين من أصل أجنبي سواء في ذلك من كانوا من بلاد أوروبا أو من أسبانيا ذاتها وكانوا ينخرطون في سلك الجندية أو يتخذون لخدمة الحرم في القصور فقد كانوا يخصونهم وكان لتجار اليهود على خد تعبير المستشرق الهولندي دوزي معامل للخصى أهمها معمل فردن في فرنسا فكانوا بعد خصيهم يجلبون الى الأندلس ويباعون فيها وينشئون تنشئه خاصة فيتعلمون العربية وفنون الفروسية ويتأدبون بآداب المجتمع الأندلسي .وازداد عددهم زيادة كبيرة بحيث بلغوا في عهد الناصر لدين الله بقُرْطُبَة 13750 وفكت رقاب كثير منهم و سمعت منزلهم في المجتمع فأثروا وملكوا الأراضي واتخذوا الحشم والعبيد .ونبغت طائفة منهم في العلم والأدب فكان منهم الشعراء والكتاب.وعظم شأنهم في أيام الناصر فتولوا المناصب الهامة وقيادة الجيوش ولم يتردد الناصر في أن يعهد الى نجدة الصقلبي بقيادة الجيش الذي وجهه الى ملك ليون في سنة 327 . واستثكر منهم الحكم المستنصر فاشتدت شوكتهم وكان لفائق وجُؤذُر دور هام في عهده وفي عهد ابنه هشام. راجع ، ياقوت: معجم البلدان مادة (صقالبة) ، المقرى : نفح الطيب 1/ 88 ، 92، 2/ 57 .

الجميع يتربص بالجميع .ولم يكن من الحكام من استطاع أن يخمد الفتن ويعزَّ من سلطان الدّولة الأموية حتى منتهاها، والأمور بطبيعتها تستقرّ عند وجود من يضبطها ويكون حازما، أما اضطرابها فلأن الحاكم دون ذلك:" كان تاريخ الأندلس حوادث مختلفةً في النظام والفوضى، فتستقرّ عند وجود الحاكم الحازم وتضطرب عند عدمه.."([18]). وبدأ انفراط عقد الدولة القوية التي هابها العرب والعجم، واشتهر حكامها بكثرة الغزوات:" وبموت المنصور بن أبي عامر سنة392هـ ومقتل ابنه عبد الرحمن الحاجب بن المنصور، ذهبت الدولة العامرية كأن لم تكن ثم عادت السلطة إلى البيت المرواني، وتعاقب خلفاء مستضعفون إلى أن انتهت بخلع هشام الثالث المعتدّ بالله سنة 422 هـ فكان آخرخليفة أموي بقرطبة."(19)

إنَّ ضعف السلطة الحاكمة والصراع حول كرسي الخلافة جعل من قرطبة مسرحا يمارس فيه الخصوم فن [قتل الحاكم] (لو جازت تسمية ذلك)..ففي عقدين من الزمن تولى تسعة حكام الخلافة، واختلفت فترة الحكم، بل منهم من تولى الحكم مرتين ومنهم من تولى الحكم لأقل من شهرين ،ومنهم من استمر لسنوات:"وتتعاقب أحداث الفتنةِ البَرْبَريَّة فِي سُرعَةٍ مذهلةٍ منذ ثورة محمود بن هشام المَهْدي عَلَى عبد الرحمَن شنجول في ربيع الاول سنة399هـ (نوفمبر 1008م) ولا تلبث الحروب الأهلية أن تأتي في غضون سنوات قليلة على عمران قرطبة ويكفينا في تصوير اضطراب الأمور في عاصمة الخلافة القديمة أن نذكر أن السنوات الثلاثة والعشرين التي انقضت بين ثورة محمد المهدي وإلغاء الخلافة المروانية بصفة نهائية في سنة 322هـ(1031م)قد شهدت

---

[18]/عبد العزيز عتيق .الأدب العربي في الأندلس.م.س.ص:137

[19] / المصدر نفسه .ص:92

تسعة من الخلفاء: ستة منهم من البيت المرواني، وثلاثة من البيت العلوي من بني حمود، وأن أكثر هؤلاء تنصّبوا على عرش الخلافة مرتين وانتهوا كلهم إلى ميتة فاجعة مقتولين على أبشع صورة.."(20). ويرى الدكتورعبد الحليم عويس أنهم عشرة حكام تداولواعلى السلطة وليسوا تسعة، ويعدّد سبعة من الأمويين وثلاثة من الحموديين ([21]):

"ويكفي للدلالة على ما تمتازبه هذه الفترة من قلق واضطراب أنّه قد تَقَلَّبَ على الأمْرفِيهَاعشرةُ حكّامٍ تَوَلّى أرْبَعَةٌ مِنْهُم الحُكمَ مَرَّتَيْنِ،وَبَعْضُ هؤلاءالحكّام من الأمويين(*) وبعضهم من بني حمّود(**)الذين استولواعلى السُّلطة في قرطبةَ سنة 406هـ وأخذوا يعيثون بالحكم فيولون ويقيلون من يشاؤون ويطلقون من الألقاب ما يحلو لهم،وبديهي أن تولِّيَ بعض الخلفاء أكثرَ من مرَّة كان بتأثير الفتن الدَّائرة وأسلوب الانقلابات الدّموية (22)"

وممَّا يثبته الحُميدي في الجُذوة ما يدلّ على مبلغ الفتنة مداها حين يُقتل من الناس الآلاف في ساعات قليلة:" قام محمد بن هشام، بن عبد الجبار،بن عبد الرحمن الناصر، على هشام بن الحكم في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاث مائة، فخلعه وتسمى

---

[20] /ابن حيان.المقتبس.م.س.ص:25

[21]/ويعود سبب هذا الاختلاف أنهم تدافعوا في من تولى الحكم مرتين، وتداخل فترات الحكم بينهم.

*/من تولى الحكم من الأمويين:محمد الثاني بن هشام/سليمان بن الحكم/هشام الثاني/عبد الرحمن الرابع/عبد الرحمان بن هشام/محمد الثالث بن عبد الرحمن/هشام الثالث بن عبد الرحمن

** / ومن الحموديين:علي الناصر بن حمود/القاسم المأمون بن حمّود/يحي بن علي بن حمّود.ينظر،ابن بسام ، تحقيق سالم البدري ، ج 1 ، ص 60 ، نقلا عن ابن حيان ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، دار المعارف، ص 43 – 44، الحميدي: جذوة المقتبس ، ص 22 ، ابن عذاري : البيان ، ج3 ، ص 122

[22] /عبد الحليم عويس.ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري.الزهراء للإعلام العربي.القاهرة.ط.2.1988 .ص:21

*/من تولى الحكم من الأمويين:محمد الثاني بن هشام/سليمان بن الحكم/هشام الثاني/عبد الرحمن الرابع/عبد الرحمان الخامس بن هشام/محمد الثالث بن عبد الرحمن/هشام الثالث بن عبد الرحمن

** / ومن الحموديين:علي الناصر بن حمود/القاسم المأمون بن حمّود/يحي بن علي بن حمّود.

بالمهدي، وبقي كذلك إلى أن قام عليه يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة تسع وتسعين، هشام بن سليمان ابن الناصر مع البربر، فحاربَه بقيَّةَ يومه والليلة المقبلة، وصبيحة اليَوم الثاني ،وقام عليْه عامَّة أهل قرطبَة مع محمد بن هشام، فانهزمَ البَربَر ،وأسِر هشام بن سليمَان، فأُتِيَ إلى المَهدي فضَربَ عنقه، واجتمع البربرُ عند ذلك، فقدمُوا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان الناصر، ابن أخ هشام القائم المذكور، ونهض بهم إلى الثغر، فاستجاش بالنصارى وأتى إلى باب قرطبة، وبرز إليه جماعة أهل قرطبة، فلم تكن إلا ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف على عشرين ألف رجل في جبل هناك يعرف بجبل قنطيش، وهي الواقعة المشهورة، ذهب فيها من الخيار. وأئمة المساجد، والمؤذنين خلق عظيم، واستتر محمد بن هشام المَهْدي أيَّامًا ثم لحقَ بطليطلة، وكانتِ الثغورُ كلهَا من طرطوشة إلى الأشبونة باقيةً على طاعَته ودعوَته ، فاستجَاش بالأفرنج، وأتى بهم إلى قرطبة، فبرز إليهِ سليمان بن الحكم مع البربر إلى موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعى عقبة البقر، فانهزم سليمان والبربر، واستولى المهدي على قرطبة، ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر، وكانوا قد صاروا بالجزيرة فالتقوا بواد في آر فكانت الهزيمة على محمد ابن هشام، وانصرف إلى قرطبة فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبي، فقتلوه وصرفوا هشاماً المؤيد كما ذكرنا قبل، فكانت مدة ولاية محمد المهدي مذ قام إلى أن قتل ستة عشر شهراً من جملتها الستة الأشهر التي

كان فيها سليمان بقرطبة، وكان هو بالثغر، وكان يكنى أبا الوليد، أمه أم ولد تسمى مزنة، وكان له ولد اسمه عبيد الله، انقرض ولا عقب للمهدي، وكان مولد المهدي في سنة ست وستين وثلاث مائة.."(23)

ومن هنا بدأت الزلازل بالدولة القوية تفتت أركانها وتزعزع أساساتها حتى انتهت إلى استقلال كل طامع بالدولة/المدينة :" لم تكن الدولة الأموية تبلغ نهايتها وينفرط عقدها، حتى استحالت إلى دول كثيرة صغيرة، يحكمها ملوك عُرفوا في تاريخ الأندلس بملوك الطوائف.."(24) وقد كان من أمر البربر أن فتكوا بكل محاسن المدينة وعاثوا فيها فسادا عندما دخلوها مع سليمان المستعين:" ومن الأسباب في سلب محاسن قرطبة عيْثُ البربر في دخولهم مع سليمان الأموي حين استولى على قرطبة في دولته التي افتُتحت بالقهر وسفك الدماء ...وتولّى بعد ذلك علي بن حمود وبويع بقرطبة في قصرها الذي قتل فيه سليمان المستعين وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة..."([25]) ويستمر المقري في ذكر ما فعله علي بن حمود بأهل قرطبة مما يندى له الجبين، فيقول:"..وعزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها، فلا يعود لأئمتهم بها سلطان آخرالدّهر، وأغضى للبربرعن

[23] /الحميدي.جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس.م.س.ص:18
[24] / عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس.م.س. :93
[25] /أحمد بن محمد المقري التلمساني/نفح الطيب/تح.إحسان عباس.دار .م.س. ص: 482

ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله وانتزع الإسلام من أهل قرطبة، وهدّم المنازل، واستهان بالأكابر، ووضع المغارم، وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال.."([26])

لم يكن الوضع السياسي مستقرّا في هذه الفترة، ويستدلّ المؤرخون على هذا التدهورالأمني وعدم الاستقرار السياسي بكثرة الحكام وتواليهم ،وكما رأينا أن أهل قرطبة لم يكونوا بعيدين عن التعصّب لحاكم على حسَاب آخر، ولم يكونوا بعيدين عن دفع ثمن هذا التعصّب وهذه الحمية. فراح من أبنائها العامة والخاصة من الأبرياء الآلاف في فترة وجيزة جدا..

ب / الحياة الثقافية:

لا يمكن للحياة الثقافية في قرطبة أن تبقى بمعزل عن الحياة العامة .فبها تتأثر،وفيها تؤثّر، وبينَ التّأثّر والتّأثير يحدثُ الإبداعُ والحراك الثقافيُّ الذي يتلوّنُ بألوان الظروف العامة.

لقد كان ابن شهيد يسارع في استرضاء من يُبقُون على عزّهِ ولذاته ..ولهذا وجبَ عليه أن:" يسرعَ إلى الحكام يسترضيهم ويواكب كلَّ عهد و عصر كيْ يُبقِي على لذته ولهوه.."(27)

ومن طبيعة الشعراء ،والحال هكذا ،أن يتلوّنوا بلونِ الحَاكم الجَديد ويَمِيلوا إلى المنتصر و الغالب حتى إذا زال ملكُه وأفل نجمه، أخذوا لون الحاكم الجديد، يأتمرون بأمره ويسبحون بحمده، وكلهم يجري في فلكه:"أصبح الشعراء مولى كل من تولى السلطة، يمجّدون اليوم هذا، ثم يمجدون غدا قاهره.."(28) ومما يُحمد للرجل أنه كان

---

[26] /.م.س..ص: 483

[27] / حازم عبد الله خضر، ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه، ،منشورات وزارة الثقافة والإعلام،الجمهورية العراقية،سلسلة الأعلام المشهورين(19) دار الشؤون الثقافية والنشر.ص:34

[28] / إحسان عباس تاريخ الأدب الأندلسي.عصر سيادة قرطبة. ،دار الثقافة بيروت ،ط.الأولى 1960م.ص:178

وفيا للعامريين لأنه تربَّى في قصورهم ونال جوائزهم وتقرب منهم كثيرا.لا يفارق قرطبة ولا ينسى فضل العامريين مهما امتدت المحن واشتدت الإحن..ومهما قصفت القواصف وعصفت بالمكان العواصف، فمازال منتظرا عودة شمسهم إلى الإشراق:"كان وفيا مع آل عامر يذكرُهم بالخير ويعترف لهم بالفضل ولا يزال يحنُّ إلى عطفهم، ويتطلّع إلى شروق شمسهم التي حُجبت بين غيوم الفتن والأهوال الجسام .."(29) .

وكان هذا الشعور متبادلا بين الطرفين واعترافا بمكانته الأدبية، إنهم:"وحدهم هم الذين يستطيعون أن يفردوه ويميّزوا مكانته بين ذوي الفهوم.."(30)..

ويعترف اللاحقون عن عصر ابن شهيد أن قرطبة . على الرغم من نكبتها والفتنة التي حلت بها . مازالت تتصدّر المشهد الثقافي والعلمي في ربوع الأندلس. وهي تستأثر بالسيادة الفكرية، ولو بعد نهاية عصرخلافتها فقد عرفت الوراقة نشاطا كبيرا، وازدهرت المكتبات، فكان بقرطبة مكتبات وخزائن عامرة عند العلماء كما عند الحكام، وكان المستنصر أكثرهم اهتماما بهذا الأمرفكان يجمع المهرة من النساخين والذين يضبطون التجليد، حتى إن مكتبته كانت نادرة زمانها وبعد زمانها يذكرها العارفون بعلم المكتبات، كما لم ينسَ ذكرها ابنُ خلدون وكل من وثّقوا لتاريخ حكام بني أمية في بلاد الأندلس عامة وقرطبة خاصة ، يقول عنه الحميدي :" كان حسن السيرة جامعا للعلوم، محبا لها، مكرما لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطارواشترائه لها بأغلى الأثمان، ونفق ذلك عليه فحُمِلَ إليه.." ([31])

وعلى الرغم من هذه القاعدة العلمية والثقافية التي خلقها الحكام في بلاد الأندلس وخاصة قرطبة إلا أن الذين خلفوهم لم يرسخوا تلك القاعدة ولم يحافظوا على الوحدة السياسية لهذا الكيان العظيم، فنخرت الحروب والانقلابات والدسائس الوحدةَ والكيانَ الكبيرَ انطلاقا من قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في بلاد الأندلس فكان لكل كيان ثقافته وتفكيره الجهوي :"..

---

[29] /ابن شهيد حياته وأدبه.م.س.ص:36

[30] / إحسان عباس .تاريخ الأدب العربي عصر سيادة قرطبة .م.س ص: 219

[31] / الحميدي جذوة المقتبس.م.س.ص:13

خلقت التجزئة السياسية للأندلس جيوبا ثقافيةً جهويَّة نشأت وترعرعتْ تحتَ مظلة أمراء الطوائف سواء الذين كانوا يريدونَ استكمال كيانهم السِّيَاسي المستقل، أو من كان منهم يسعَى إلى الإطاحَة بالسِّيادة الفكريَّة التي كانت قرطبَة تستأثِر بهَا عن باقي حواضر الأندلس رغم نهَايَة تاريخها الخِلافِي. وقد كانت إشبيلية واحدة من تلك الجيوب التي نافست المركزية الثقافية القرطبية.

ورغم نجاحها، خلال فترة حكم المعتمد بن عباد في ابتلاع قرطبة سياسيًّا فإنَّها لم تستطع إدماجَها فكريًّا مما يفسِّر استمرارَ التأثيرات القرطبيَّة .."(32).

كان أهل الأندلس يتمتعون باستقلالية الشخصية ويريدون أن تكون واضحة وجلية في كتاباتهم وتصرفاتهم، ولا يرون مانعا أن تمتاز عن غيرها المشرقية خاصة في الأجيال التي تلت الولاة وانتهت إلى الدولة الأموية التي امتدت سياسيا وعلميا في كل البلاد، وفرضت منطقها العلمي وتفتحت على أوروبا فاستقبلت طلابها. وعلى المشرق فاستقبلت العلماء، بل إن أوربا النصرانية من جهة والمشرق العباسي لهما ما يبررهذه الحدة الشديدة في بروز هذه الشخصية الأندلسية:" وقد ساعد على ازدهار الثقافة في قرطبة..أن الشعور بالشخصية الأندلسية كان حادا جدا في مواجهة أوروبا النصرانية من جهة، وفي مواجهة المشرق الذي يضع نفسه، وتضعه مكانته الدينية والحضارية في مركز الصَّدارَة من جهَة أخرى، ولاسيمَا وحساسية بني أمية تجاه المشرق العباسيّ لها ما يبررُها.."([33]).

وكان لنظم الأراجيزوالقصائد العلمية المفعول القويّ في تلقين العلوم وانتشارها بين الطلبة، :"إذ لم يكادوا يتركونَ عِلمًا دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطوّلة، وطائفة منها ذاعت شهرتها في العالم العربي وكُتِبتْ عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدّراسة في العلم الذي نظّمته مهما شرقنا أو غربنا في البلدان العربية والإسلامية..من ذلك

---

[32] /- ابن الأبار ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي البلنسي ، التكملة لكتاب الصلة ، ج . 1 ، تح . عبدالسلام الهراس ، دار المعرفة ، الدارالبيضاء ، (د . ت) ، ص . 363 – 364 ,

[33] /عبد الحليم عويس.ابن حزم الأندلسي وجهوده فبي البحث التاريخي والحضاري.م.س..ص:36

منظومة الشاطبي وقد سمّاها "حرز الأماني ووجه التماني في القراءات" واشتهرت باسم الشاطبية نسبة إليه، وعدّتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا...ومن القراء أبا حيّان الغرناطي وله منظومة في ألف بيت وأربعة وأربعين وقد سماها"العقد اللآلي في القراءات السبع العوالي"،ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوائد من الشاطبية غير أنها لم تُرزَق حظّها من الشهرة والذّيوع. ودوّت شهرة ابن عبد البرّ حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكي لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس في الفقه والحديث ألّفه على هدى كتاب الموطأ لمالك سماه:"التمهيد لمافي الموطأمن المعاني والأسانيد" ويقول ابن حزم:(لاأعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا).."([34])

وفي فنون البيان والبديع ارتقت الأندلس . كالمشرق . في هذا المجال درجات عاليات، لا ينكرها دارس ولا يغفلها باحث، وابن المعتزقد جمع بينهما في كتابه [البديع]:"وابن المعتز هو أوّل من جمع بينهما في كتابه (البديع) إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسنا وضمّ إليها صور البيان الأساسية وهي الاستعارة والتشبيه والكناية، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبي الأصبع مائة واثنين محسنا ..."([35])

ومن مظاهر الحركة الثقافية العلمية في الأندلس ما قام به علماؤها من الضبط والتحري في توثيق الشعر أو تصحيح الخلط الذي وصلهم، أو التنبيه إلى مسألة من المسائل:"وليس بغريب أن يكون القالي أحد أهداف هذه الحركة اللغوية بالإضافة إلى ابن قتيبة والمبرَّد، ولكن الأغرب من ذلك أن يكون تلامذة القالي أنفسهم هم المتصدّرون لما وقع فيه أستاذهم من خلط أو وهم أو خطأ في الرواية أو نسبة الأبيات أو تفسيرها . ويتّضح هذا الاتجاه في كتاب التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، واللآليئ لأبي عبيد البكري، وكما في الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد البطليوسي ومن ذلك أيضا تنبيهات البكري والبطليوسي على كتاب الكامل للمبرد، وفصل المقال في شرح

[34] /شوقي ضيف. تاريخ الأدب الأندلسي.عصر الدول والإمارات.م.س:ص:241
[35] /م.س.ص:242

كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام الذي تركّز عمل البكري فيه على تفسير ما أغفله من الأمثال المشكلة المعاني وتفصيل ما أجمل منها"([36])..ولا يجب أن نغفل ما كان لابن حزم من دور في نهضة قرطبة العلمية والثقافية، ولعلي أشير إلى كتابه (طوق الحمامة في الألفة والإلاف.) الذي:"يُعدّ من الأعمال الأدبية القليلة التي تتسم بالأصالة والتفرّد.."([37]).

ومما ساعد قرطبة على الوصول إلى هذه المرتبة المتقدمة من العلم والحظوة بالعلماء أن حكامها في بداية الدولة العامرية كانوا من المولعين بجمع الكتب والاهتمام بالكتَّاب والعلماء وصرف العطايا لهم وإجازاتهم بالجوائز السنية والهدايا القيمة، فقد شهد المؤرخون ودارسو الأدب للحَكم المستنصر بالرتبة العالية والهمة الرفيعة في إنشاء دور العلم وإجراء الرواتب للمعلمين من بيت المال، وتعليم أبناء الفقراء والمحتاجين:"ومن مآثره إنشاء المدارس والمكاتب، ويذكر ابن عذارى أنه أنشأ في قرطبة سبعة وعشرين مكتبا للقرآن، واتخذ لها المؤدّبين يعلّمون أولاد الضّعفاء والمساكين، وأجرى عليهم الرواتب، وعهد إليهم في الاجتهاد والنّصح ابتغاء وجه الله..."([38]) .

وكان مهتمًّا باقتناء الكتب والدواوين اقتداءً بما كان يفعله أبوه، ومما يذكر له:"لم يُسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحَكَم في اقتناء الكتب والدواوين والاهتمام بها.."([39]) وقد تجاوز ما جمعه الحكَم أربعمائة ألف مجلّد :"إنه جمع من الكتب مالا يُحدُّ ولا يوصفُ كثرةً ونفاسةً، حتى قيل :إنها كانت أربعمائة ألف مجلّد، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها، وكان عالما نبيها صافي السريرة..وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي، باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرام بها.."(40)..وعلى الرغم من سعة ما حوت، وضمت الخزانة من كتب ومصنفات، فإنّ ابن الأبَّار يرى أن الحَكَم لم يضمّ كتابا إلى خزائنه إلا وكان له معه رأي ونظر مهما

---

[36] /البكري :فصل المقال في شرح كتاب الأمثال تح/إحسان عباس.الخرطوم 1958.ص:3

[37] /سيزا أحمد قاسم.طوق الحمامة دراسة وتحليل ومقارنة.رسالة ماجستير جامعة القاهرة 1971.ص:215

[38] /عبد العزيز عتيق.تاريخ الأدب الأندلسي.م.س.ص:83

[39] /انظر ترجمة الحكم في [الحلّة السيراء] لابن الأبار طبعة القاهرة .ج1.ص:200

[40] /عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الاندلس.م.س. ص:84

كان فنه من فنون العلم، يقرأه ويكتب فيه بخطه، وهو ما يشبه الحواشي والتعليقات على النصوص والكتب..حتى أن هذه الحواشي اتخذها الأندلسيون مراجع لهم يحتجون بها ويرجعون إليها." وهو ما يدلّ على سعة ثقافته وكثير مطالعاته.."(41) .ويقول الدكتور عبد الحليم عويس عن عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم، وعن عنايتهما بالعلم والعلماء وجمع الكتب وترقيَّة العلوم:"..وقد ورثت قرطبةُ التراثَ الذي خلفَه في الأندلس . عبد الرحمن الناصر. الذي جعل من قرطبة كعبةَ العلوم والفنون، والتراث الذي خلفه ابنه الحكم(350هـ/366هـ) الذي يعتبرامتدادا (طبيعيا) له، بل إنّ الحَكم يعتبر قمَّة هذه المرحلة، من الناحيَّة الثقافيَّة خاصة، فقد كان جامعًا محبًّا لها مكرِمًا لأهلهَا .وقد جمعَ من الكتب في أنواعِها مَا لم يجمعْهُ أحد قبله من الملوك.." (42) ..ومما يشهد لقرطبة بالمكانة الرفيعة ما ذكره ابن رشد عنها حين اختصر مكانتها العلمية مقارنا إياها بغرناطة فقد قال:"..أدري ما أقول غير أنه إذا مات عالم في إشبيلية فأريد بيع تركته حملت إلى قرطبة. وإذا مات فنان حملت تركته لتباع في إشبيلية.."([43])

وكانَ المكانُ الخالصُ للتَّعلُّمِ ونشر العلم هو المسجدُ، وكان الميسورون من الناس يُعَلِّمون أبناءهم بإحضار مؤدِّبين لهم بأجور معلومَة ولم يكن العلماءُ ليتخذوا غير المسَاجد أماكن لتلقين العلوم وتأديب المتعلمين: " فليس لأهل العلم مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة.."(44) وقد اشتهرت قرطبة بمسجدها الجامع، الذي لم يكن في بلاد المسلمين شبيها له في العمارة والمساحة :" مسجد عظيم ليس في مساجد المسلمين مثله بِنية وتنميقا وطولا وعرضا(45). ومن هذه المساجد التي كانت بمثابة جامعات علمية، تخرّج منها علماء ومفكرون، ذكر المؤرخون أن الحلقات تجاوزت نصف مساحة المسجد القرطبي. وكان لظهور كتب مشرقية في بلاد الأندلس التي وفدت مع أدباء وعلماء زاروا المشرق أو مغاربة جاؤوا بها

---

41 /ينظر الحلة السيراء لابن الأبّار ص:202 وما بعدها..

42 /عبد الحليم عويس.ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري...م.س.ص:37.36

43 /محمد الأمين برغوث.دولة المرابطين بالأندلس:من مدينة السياسة إلى مدينة العلم.دار الوعي ط.1 2009ص:111

44 / المقري.نفح الطيب ، تح . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1388 / 1968 مج . 2 ، ص . 220

45 / ابن فضل الله العمري.مسالك الأبصار في ممالك الأقطار،دار الكتب المصرية،القاهرة تح.أحمد زكي .1924.ج.1.ص:212

من المشرق :"لقد وفدت إلى الأندلس من المشرق كتب الأعلام من أئمة التأليف، وتداول الأندلسيون آثار ابن المقفع والجاحظ وأبي الفرج الأصفهاني وأبي حيان التوحيدي وأضرابهم من ذوي الأسلوب الحي والتفكير الخصب .."([46])

لقد اعتمد الأندلسيون على تنشئة ثقافتهم وبناء توجهاتهم الفكرية بارتكازهم على أربع وسائل:

الأولى: وتتمثل في دعوة بعض علماء المشرق ليستفيدوا منهم، مثل أبي علي القالي صاحب الأمالي، وهو الإمام العالم اللغوي المشهور، وأبي العلاء صاعد البغدادي فقد رحل إلى قرطبة في عهد المنصور بن أبي عامر، وقرّبه إليه وألّف له كتابا سماه "الفصوص" نحا فيه نحو الأمالي للقالي.

أما الثانية: فهي رحيل بعض الأندلسيين إلى المشرق لتحصيل العلوم والتبحّر فيها، ثم العودة بها إلى بلاد الأندلس لنشرها بين الناس، وأهمهم العالم الفقيه يحيى بن يحيى الليثي .فتنوّعت العلوم بين الرحالين فإمام النحاة صاحب الألفية أبوعبد الله محمد بن مالك. ومن رحل للتصوف كأبي العباس المرسي ومحي الدين بن عربي الصوفي الفقيه المشهور.

وأما الوسيلة الثالثة: وهي جمع الكتب وإنشاء المكتبات، وهي وسيلة عملت على تنشيط الحركة العلمية وتطويرها، فأقبل الناس على تعلم كتب السابقين والاستزادة من علومهم.

وأما الوسيلة الرابعة : فتتمثل في الحكام أنفسِهم، فليس منهم إلا الأديب أو العالم أوالشاعر،فقد أثروا في الحركة العلمية والأدبية وتأثروا بها ولم يكونوا بمعزل عنها فقد اشتهر مؤسس الدولة الأموية بحبه للشعراء وكان شاعرا وكان من أحفاده في آخر الدولة الأموية مجموعة من الأمراء الشعراء ([47])

[46] /محمد رجب البيومي .الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير.م.س .ص:41

[47] / ينظر :الأدب العربي في الأندلس عبد العزيز عتيق صص:150 وما بعدها.

في هذا الجوّ المفعم بالفكر والتهافت على الكتب والتلاقح بين ثقافتي الجهتين للحضارة الإسلامية المشرقيَّة والمغربيَّة، وفي عصر سيادة قرطبة عاش ابن شهيد، وقد كان محظوظا أن تربى في قصر خلفاء الدولة العامريَّة .

لقد ورثت قرطبة كحاضرة علمية، تراثا ضخما من فترات سابقة عن العامريين، أسّسه حكام بني أمية، وأيضا ممّا جاءها مع الوافدين من المشرق، فقد كان الالتحام الفكري والعلمي قائما بين طرفي البلاد الإسلامية، في مشرقها ومغربها، ونتج عن هذا خاصّية التنافس الثقافي، الذي كان أشبه بالسباق على إيجاد أفضل الإنتاجات الفكرية بين ملوك الطوائف وحكام المشرق والمغرب، وما أنتجته العواصم الكبرى كبغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة وفاس لأكبر دليل على هذا التنافس.

وقد كان للاضطراب السِّياسي الأثر في حركة العلماء والشعراء والمفكرين ،فابن حزم يتمنى أن ينتقل إلى المشرق فرارا من الفتنة التي حلّت بقرطبةَ خاصة والأندلس عامة:"وقدساعدَ على نجاح هذه الظاهرة (التبادل الثقافي) أنَّ حركة الانتقال كانت متاحة بين العواصم الإسلامية،على هيئة بحوث علميَّة،وتسابق في الحصول على إجازة العلماء والشعراء، وفي اقتناء الكتب النادرة والكبيرة.."([48])

ومن أوجه الثقافة المزدهرة في قرطبة، أن الأدباء كان لهم صراع غير خفي مع المؤدبين وعلماء اللغة، ومنهم ابن شهيد الذي بلغ به الأمر أن أمر بقتلهم والتنكيل بهم في قصيدة للخليفة هشام المعتمد يحرّضه على التنكيل بالفقهاء على اعتبار أنهم هم رأس الفتنة، ولا يعنيني هنا ذكرها . لأنها ذكرت في الفصل اللاحق . واعتبر الدارسون أن لغة المؤدّبين أحيانا تبلغ درجة من الغرابة والتقعير ما ينفّرالناس منها، ويبعدهم عنها، كما هو شأن ابن الوليد بن معمر الحاكم [ت.430هـ]:"كان من أهل اللغة عالمًا بها، وكان يقول الشعر على جهة التقعير والتكثيرفيه بالغريب.."([49]).وقد انتقد أحد العارفين

---

[48] / عبد الحليم عويس .ابن حزم الأندلسي وجهوده.....م.س.ص:35

[49] / الحميدي .جذوة المقتبس.....تح/لجنة إحياء التراث ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1967.ص:403...
التقعير:الاتيان بالالفاظ المهملة في القواميس..والغريب في اللغة..

بالبلاغة هذا الأمر([50])وأنكره على صناعة المؤدبين في الدّواوين وغيرها:"لأنهم لا يحسنون الانتقاء ولا يعملون

الانتقاء في لغتهم([51]) ".وقد ثبّت الضبي في بغيته ما قاله أحمد بن سعيد:"إنّي لَأعجب ممّن يلحن في مخاطبة أو يجيئ بلفظة قلقة في مكاتبة لأنه لا ينبغي له إذا شكّ في شيئ إلا أن يتركه ويطلب غيره فالكلام أوسع من هذا."([52]) .

ويَعتبِر ابن شهيد أن صِنَاعة الإنْشَاء قد تَدَاوَلتْهَا أيْدٍ لا عَلاقة لها بها، ولا تحسن الصناعة ولا تتقنها، ورأتها كالخرق تباع فلا تشترى، وقد نزعوا عنها ثوب الجمال وتاج البهاء ورداء الكبرياء:"إنّ صنعة الكتابة محنة من المحن، ومهنة من المهن، والعاقل من إذا أخرجَها من مثالبه، لم يدخلها في مناقبه،لا سيمَا وقد تناولتهَا يدُ كثير من السَّوقة وباعوها بيع الخلق، فسلبُوها تاج بهائِها، ورداء كبريائِها، وصيّروها صناعة صار الكريم لا يعيرها لحظة، ولا يفرغُ في قالبها لفظة إذ الحَظّ أن يعثرَ الكرامُ إذا ولّى العِلاجُ، وإنْ تُستقبَحَ الآسادُ استأسدَت النِّعاجُ، غير أنْ وسْمَ بسمتِها، وظهَرَ في وسمتِها فغيَّرَ مكانَه ولا مسلَّم له كتمَانه.."([53]).

ويرى أنَّهم تجاوزوا حدودَهم التي يعرفون، إلى ما لا يعرفون:"حظهم من الفهم الحفظ، ومن العلم الذكر، وهذا حظ القصاص وأعلى منازل النَّواح، فترى المخرق منهم إذا قرِئَ عليه الشّعرُ يزوي أنفَه، ويكسِّرَ طرفَه، وإذا عرضتْ عليه الخطبة يكيلُ شفتاه ويلوي شدقَه، فإنْ تنَاولَها ولمْ يبقِ مليحَة إلا حشدَها، ولا أبقى عفصَةً فجَّة إلا جلبَها. وأصلُ قلّة هذا الشأن وعَدم البيَان، فسَاد الأزمنَة ونُبوُ الأمكنَة.."([54]). وكانَ هذا الصِّراع منْ أسبَاب التطوُّر الفكري والازدهَار الثقافي في قرطبَة، كانت تجمَعُهم المجالسُ فيتبادلون فيهَا الأراءَ، ويصفُهم ابن شهيد وصْفا جامعًا يقول:"وممّن علِمْنا منْ هذه

---

[50] / أحمد بن سعيد بن حزم والد الفقيه والعالم المعروف أبي محمد.

[51] / مصطفى عليان عبد الرحيم. تيارات النقد الأدبي في الأندلس. م.س.ص:93

[52] / الضبي .بغية الملتمس. تح/لجنة إحياء التراث. ط.دار الكاتب العربي - القاهرة.1967.ص:182.

[53] / ابن بسام الذخيرة.ق.1.م.2تح/لجنة التاليف والترجمة والنشر.القاهرة 1942.ص:184.

[54] / م.س.ص: 179..

عذرة:قبيلة عربية عرفت بجمال فتياتها وتعلّق شعرائها بهنّ والتغزّل بمفاتنهنّ ومنها ظهر الغزل العذري..

العصابةِ إذا لمحتنَا أبصارُهم، قابلونا بالملق، وهم منطوون على حَسَد وضيْق ،فإذا جمعَتْنا المحَافل وضمتنا المجَالس ،تراهم إليهم مبصبصِين وعن الأخذ بشيئ المعاني زائغين ..وفي مَجالس الملوك عندَ أنسها وراحتها فإنه يقعُ فيها ويجرى لديهما لا ينفع له الاستعداد ولا ينفث فيه غَير الطَّبع والغريزة المتدفقة، فترى الجَواد السَّابق إذ ذاك متشوقا بأذنه باحثا لكديد الإحسَان بيَده، طامح النَّظر،صهصلقُ الصَّهيل، وأهل الصَّنعة خُرسٌ لا يسمعَ لهم جرسٌ، ولا شيئ عندهم غير حسْوِ الكأس وشمِّ الكاسِ وتنفس الصعداء، قد اصفرّت ألوانُهم وقلّصت شفاههم كأنَّهم من رجال عُذرَة."([55])

وكان خصمُ ابن شهيد من هؤلاء، الافليلي الذي يذكره ويوجد موقفا معاديًّا منه، ولا يرى له العذر في ما يقول ويأتي..وإنْ كان أبو القاسم الافليلي من المشهود لهُم بعلوم اللغة، وتطرُّفه في كل قضيَّة يتناولُها، غيرَ أن ابن شهيد لم يدعْ له مجالا ولا مجلسًا إلا عاداه، وجاءَ مذكِّرا بمَا لا يرضاه:" وليسَ العَجَبُ في هذهِ العِصَابة إلا في أبي القاسِم فإنَّه زاد عليهم في الصِّناعة وبزّهم بوفور البضَاعة، دخل الشعراء فأخذ لباقتهم وصار في جُملة الكتاب فاستعار صلفَهم ورشاقتهم، وباشرَ أهل الحِسَاب فاستفادَ طريقة البرَاهين، وناظرَ أهلَ الجَدل فتعلمَ القوانينَ، وعرفَ عناصرَ الكَلام، فكلُّ علم يزعمُه قبضُ يَدِه، وكلُّ جدٍّ وهزل فإليه منسوبُ، وعنْه مأخُوذٌ وهو مَعَ ما اجتمَعَ له منْ ذلك كلُّه وحَسْبي بهِ أشدّهم صَبَابةً بألاَّ يكونَ فِي الأندَلس مُحسِن سِواه ولا مُجيدٌ حاشاه.."([56])..

لقد عرَّضَ به هنا أيَّما تَعريض، فكانَ الرجلُ يعتقدُ المَسْك بجَوامِع العلوم، ومنتهى الفنون، وهُو يعتقدُ على خطإ أنَّ الأندلسَ لمْ تنجبْ أفضلَ، ولا أعلمَ وأفقَه منْه.

ويذكرُ ما كان بينهمَا من تناوش في رسالته التوابع فيقول في بيان أمرالبيان:"فقال لي :دع عنك، أنا أبو البيان.

قلت :لاهِ الله، إنَّما أنت كمغنٍ وسَط لا يحسنُ فيطرب، ولا يسيئ فيلهي.

قال: لقد علمنيهِ المؤدّبون.

---

[55] / ابن بسام الذخيرة.م.1.ق.1م.س.ص:210

[56] / .المصدر نفسه:.ص:206.

قلت: ليسَ هوَ من شأنهم، إنمَا هوَ منْ تعاليم الله تعالى:" الرحمَنُ علّمَ القرآنَ، خلقَ الإنسَانَ علمَه البَيَان".([57])..

ويرى ابنُ شهيد أنَّ أدبَ الأفليلي كانَ مقلّدا فيه غيرَ مطبوع، وهذا مَا رآه ابنُ حيَّان أيضا :"أمَّا حَمْلة ابن شهيد عن الإفليلي فلهَا ما يبرّرُها من ناحيَة أدَب ابن الإفليلي في تَحرير الدَّواوين التي تولّى أمرَها لمحمّد بن عبد الرحمن المستكفي إذ ينعتُه ابن حيان من نقاد هذه الفترة بقوله :" كانَ على طريقة المعلمين المتكلفين فلم يجرِ في أساليب الكُتَّاب المطبُوعين" فإذا استحضَرنا ما سَبق قولُه إنَّ ابن شهيد كان يسْعَى مَع ابن حزم إلى تأصيلِ الأدب الأندلسِي واستقلاله، كانَ لموقفه مِن أدبِ ابن الإفليلي وهجُومِه على المعلمِينَ مبرر لولعِهم بالتقليد الذي مِن شأنِه أن يبَدّدَ أهدَافَه.."([58])

لقد كانتْ الحالةُ الثقافيةُ على نقيض ما عليْه الحَالةُ السِّياسيَّة، فقد ازدادَ إشعاعُها وعمّ نورُها وتنافسَ أدباؤُها وأبدعَ شعراؤُها، وصنّفَ كتّابَها .ويتّفقُ دارسُو الأدب على أنَّ الحَركة الفكريَّة في عَصر الطوائف قد ازدَهرت، ومجَّد الأندلسيُّون أهلَ الأدَب والفقهَاء ونالوا منْهم الحظوة والمنزلة التي يستحقُّون، فكانوا أصحَاب الرتب العالية والمقامات الرفيعَة، لقد انتشرالمذهب المالكي في ربوع الأندلس كلها في حياة الإمام مالك،وهذا بفضل تلاميذه الأندلسيين الذين نقلوا الموطأوشرحوه وهم على التوالي:الغازي بن قيس(ت 815/199)،وزياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون(ت204 هـ /819 م) وهو أول من أدخل مذهبه فى الأندلس،ويَحْيىَ بن يَحْيىَ اللَّيثِي (ت234هـ / 848 م)، وساهم غيره من الفقهاء فى انتشارالمذهب المالكى أيضاً مثل:عيسى بن دينارالغافقي الطليطلي(ت212هـ/827م) .

إنّ هذا التفاعل بين أطراف ثقافية وعلمية متعدّدة المشارب، مختلفة المذاهب، جعلت من قرطبة خاصة والأندلس عامة تنجح في ترقية وتطوير الفكر الإنساني وتقديم الدّفع الكبير للثقافة العربية والتمكين لها ،وظهور تيار منهجي في النقد واضح المعالم عُرفَ

[57] / ابن شهيد. التوابع والزوابع تح/البستاني م.س.ص:125

[58] /مصطفى عليان عبد الرحيم.تيارات النقد الادبي.م.س.ص:97

به الأندلسيون عن غيرهم من المشارقة نتيجة المماحكات بينهما: "ومهما يكن فإنّ هذه الخصومة قد ساعدت على وضوح تيار منهجي في النقد الأدبي الأندلسي، اتخذ من الدّفاع عن الأديب وأدبه خطا عريضا، مرتكزا في ذلك على أسس نقدية من المفاضلة والمقايسة تارة وعلى الجانب الإعلامي الذي يُعنى بنشر المحاسن الجمالية تارة أخرى ..."([59])

[59] / مصطفى عليان عبد الرحيم.تيارات النقد الأدبي في الأندلس...م.س.ص:92

الفصل الثاني:

الحياة الاجتماعية:

يقول المقرّي عن العرب في بلاد الأندلس:"إنهم عربٌ في الأنسَاب والعزّ، والأنفَة وعلوّ الهمَم، وفصاحَة الألسُن وطيبِ النفوس وإبَاء الضَّيم وقلة احتمال الذل والسَّماحة بمَا في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدَّنية، هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم، وحبّهم فيها، وضبطهم لها، وروايتهم، وبغداديُّون في نظافتهم، وظرفهم، ورقة أخلاقهم، ونبَاهتهم وذَكائهم، وحُسن نظرهم، وجَودة قرائِحهم، ولطَافة أذهانِهم، وحِدَّة أفكارهم، ونفُوذ خَواطرهم، ويونانيونَ في استنباطِهم للمَاء، ومعاناتهم لضروبِ الغراسَات، واختيَارهم لأجنَاس الفوَاكه، وتَدبيرهِم لتركيبِ الشَّجر، وتحسينِهم للبسَاتين بأنواع الخُضَر، وصُنوفِ الزَّهر، فهُمْ أحكمُ النَّاس لأسبَاب الفلاحَة، وهم أصبرُالناس على مطاولة التَّعب في تجويد الأعمَال، ومقاساتِ النَّصبِ في تحْسين الصَّنائع، أحذق الناس بالفروسيَّة، وأبصرهم بالطعن والضرب.."[60] .

كانت البلاد خليطا من أجْنَاس شتَّى وَافِدينَ مِنَ شمال إفريقيا، وجَاءَ آخرون من المشرق العَرَبي، وأوربيُّون من أهل البلاد، وقد امتزجَ المسلمُون الفاتِحين بالمسِيحِيّين امتزاجا سريعا نتجَ عن التسامح الذي أحسّه المسيحيون من الفاتحين فصاهروهم، ومال المسلمُون إلى التزاوج من الإسبانيات وكانت بيوت الأُمويين تكتظ بهن:" وأخذت تعمل عوامل في المزج السريع بين المسلمين والمسيحيين ، منها كثرة المصاهرة فقد تزوّج كثيرون في الجيش الفاتح من الإسبانيات، وظل ذلك فيما بعد إذ كان كثيرون من العَرب والبَربَر يؤثرُونَ الإسبَانيَات الشقراوات .

[60] / انظر المقري نفح الطيب (2/146-147).

وكان البيتُ الأموي يكتظ بهنّ ومن تلك العَوامل أيضًا روح التسامُح الدّيني الذي بثّه الإسلام في أتباعه، فكان أهل الذّمّة من النصارى واليهود يعامَلون بالحسنى معاملة كريمةً.."[61]

لقد كانت أيبيريا خليطا من الأجناس منذ القدم، استوطنها الغاليون من الشمال، وجاءها الفنيقيون واليونانيون والرومان والقرطاجنيون والجرمان وكثير من اليهود .

ثم فتحها العربُ والبربرُثم أدخلَ الحكامُ المسلمونَ الصقالبَة الذين جلبُوهم من شرق أوربَا وآسيَا، وتأقلمَ الجميعُ مع الحيَاة الجديدَة بل من الأوربيينَ من سمَّى أبناءَه بأسمَاء عربيَّة، وأسلمَ منهم عددٌ غيرُ قليل:"ولعلّ خيرَ ما تميّز به أمرَاءُ قرطبَة أنَّهم كانوا على كثير من التَّسَامح الدّيني فقد منَحُوا أهل بلاد الأندَلس الحريَّة في إقامَة شعائرهِم الدّينيَّة. وكثيرًا ما حاربَ المسيحيُّون مع المسلمين جنبًا إلى جنب، كمَا كانوا يعيّنون في أرقى المَنَاصب السِّياسيَّة والحربيَّة ، وقد كان لهذا السُّلوك السّمح مع أهل البلاد أثره في اعتناق كثير منهم للإسلام، وفي تخلقهم بأخلاق العرب وعاداتهم، ثم لا عجب بعد ذلك أن نراهم يقبلون على تعلّم العربية وإجادتها، حتى صاروا يتكلمونها، ويصنّفون بها الكتب، وينظمون بها الشّعر..."[62]

إنَّ هذا الخليط لايلبث أن يحدث الصراعات والحروب بين الطوائف والأجناس، ولا يستتب الأمرإلا بوجود حاكم قوي الشكيمة ماضي العزيمة.. ففي عهد الخليفة الناصر:"تولى الملك عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين، والأرض جمرة تحتدم، ونار تضطرم، وشقاق ونفاق، فأخمد نيرانها وأسكن زلازلها، وافتتحها عَوْدا، كما افتتحها بدءا سميُّه عبد الرحمن بن معاوية.."[63].

---

[61] / شوقي ضيف .تاريخ الأدب العربي.عصر الطوائف والإمارات.م.س.ص :46

[62] /عبد العزيز عتيق.الأدب العربي في الأندلس.م.س.ص:60.59

[63] / أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي،العقد الفريد .تح:عبد المجيد الترحيني.دار الكتب العلمية .بيروت.ط.1404/1.م. 1983ه .ص:239/5.

وكالحاجبِ المنصورأوَّل حكام الدَّولة العَامريَّة(محمد بن أبي عامر) ففي عهده استتبَ الأمنُ واستقرّ نظام الحكمِ وانصرفَ الناسُ إلى أعمَالهم، لا يخافون على عيَالهم ولا أمْوالهم من النَّهب والسَّلب وقطاع الطرق. ومما يذكره المؤرخون أن قرطبَة كانت أكثر البلاد الأندلسيَّة ازدحامًا بالسكانِ حتَّى أنَّ بعضَهم ليجعلهم يناهزون المليون من السّكَّان:" وكثرة أهالي قرطبة بالنسبة لمدنِ العالم في ذلك العَصر حقيقة وردَت في كتُب أكثر مِن أرخُوا لها، وقد قدّرَ بعضُهم سكانَها بمليون نسَمَة، وإنْ كان آخرونَ قد قدّروها بنصفِ ذلك.."([64]) .

ومما يوردُه المقري عن قرطبة :"كانت قرطبةُ في الدولة المروانية قبّة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنَام، بها استقرَّ سريرُ الخلافة المروانية، وفيها تمخّضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء، إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، ولم تزل تُملأ الصدور منها والحقائب، ويباري أصحاب الكتب أصحاب الكتائب، ولم تبرح ساحاتها مجرّ عوال ومجرى سوابق، ومحطّ معال وحمى حقائق وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد.."([65])

ويتكلم ابن حزم عن مكانة مدينته العلمية ومآثرها:"ثم يستمرّ أبو محمد في سرد مآثربلده وعلمائها ويقارن الأقاليم الأندلسية بغيرها..مبتدئا ببلدته ومدينته المشهورة قرطبة فيقول:"وأما في قسم الأقاليم فإنّ قرطبة مسقط رؤوسنا ومعقد تمائمنا مع سُرَّ من رأى في أقليم واحد، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا وإن كانت الأنوارلا تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور.."([66]). وحين أصاب المدينة قحط أَصيب الناس به، وتأثرت حياتهم الاجتماعية، فكان أن صنع المنصور حفلا تسامع به الناس

---

[64] /عبد الحليم عويس.ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري.م.س. ص:43

[65] / المقري نفح الطيب .م.س: ص:460.461

[66] /ابراهيم موسى حاسر السهلي.تجديدات الأندلسيين في النثر العربي [رسالة ماجستير]/إشراف أ.د.عبد البصير عبد الله حسين .جامعة أم القرى .م.ع.س.1988.ص:22

وتقاطر أهل المدينة على صنيعه، وقيل إنّ سحابة تكوّنت في السماء أمطرت المدينة وفرح الناس بغيثها، فتحرّكت قريحة الجزيري([67])فأنشأ يقول(من البسيط):"

أمّا الغمامُ فشاهدٌ لكَ أنَّهُ ***لا شكّ صنْوُكَ أو أخوكَ الأوْثَق

وَافَى الصَّنِيعَ فَحِينَ تَمَّ تَمَامُهُ * فِي الصَّحْوَ أَنَشَأَ وَدَقَهُ يَتَدَفَّقُ**

وأظنُّهُ يَحْكِيكَ جُودًا إذْ رَأَى ***فِي اليَوْمِ بَحْرَكَ زَاخِرًا يَتَدَفَّقُ.."([68])

وقد مَال النَّاسُ من علماءَ وغيرهم إلى الحَياة في القُرى المُحيطة بقرطبَةَ و اشتغلوا بالفلاحة والزراعة، وكان يطلبهم الخلفاءُ والأمراءُ في مَسَائل العِلم المختلفة:" .

وكان الكسبُ الحلالُ من الزراعة يجتذب إليه كثيرا من العلماء والأتقياء..وكان من شأن الخلفاء أن يرسِلوا في القرى من يستطلع أحوال الناس ويكشفُ عَن أهْل العلمِ والخَير مِنهم، فإذا احْتَاجُوا إلى رَجُلٍ في بَعض المَناصِب أرسَلوا إليْه فِي طلبه..وكان طلابُ الحديث إذا سمِعوا بهذا النوع من العلمَاء رحَلوا إليْه في قريَتِه ليسمَعُوا مِنْه ويكتبُوا عَنْه.

لقد استوطن أحمد بن هشام القرطبي ـ المُحَدِّث ـ قريَةَ اختبَانة من عَمل قبْرة فكان طلاب الحديث أمثال ابن بشكوال والفرضِي وابن المصعب يسافرون إليه لأخذ الحديث عنه.." وكان بعض علماء اللغة كالهواري وخصيب يسكن الأرياف، ويرسل الخلفاء لهؤلاء يسألونهم في اللغة أو في شيء من أمورااللغة والدين.."([69]).

وكانت للمرأة المكانة المرموقة، ويذكر لنا دارسو الأدب أن النسَاءَ كنّ فاعلات في المجتمع القرطبي، فزيَادَةً على تَمَتُّعِهَا بِحُريَّة التواجُد في المجالس والحلقات والحركة بين أحياء المدينة ،والتواجُد في أسواقها للحَاجة ،كانت تتمتّعُ بالحضور في المجَالس السِّياسيّة بل وكانت نافذة فيها كما هو شأن [صُبْح] أيام الخليفة الحَكَم وابن أبي عامر

---

[67] /الجزيري وزير وكاتب في الدولة العامرية، قتِلَ في من قُتل في الفتنة سنة 394هـ .له ترجمته في الجذوة،و في الملتمس..

[68] /المقري. نفح الطيب.م.س.ص:530

[69] /إحسان عباس.عصر سيادة قرطبة..م.س.ص:21.20

وممّا يذكرأنّها :" ... كانت تتمتعُ بقسط كبير من الحُريَّة، وكان بعضهنَّ يتمتّعنَ بنفوذ كبيرٍ في الحيَاة العَامَّة السِّياسيَّة والمدنيَّة. ولا ننسَى ما كانَ لصبح أيَّام الحَكَم وابن أبي عَامر..وقد شاركَ بعضُهنَّ في روايَة الحَديث فكانَت "غالبة" بنت محمَّد المعلمَّة تروي الحديثَ، وكذلك كانت فاطمة بنت يَحي بن يوسُف، وشاركت أخريَات في الشعر ومنهن عائشة بنت أحمَد بن قادم القرطبيَّة، وكانت تمدَح ملوكَ زمَانها ومُخاطبتهم بمَا يعرض لهَا من حَاجَاتها، وقد جمَعتْ لنفسِها مكتبةً قيّمَةً...وراضيَةُ مولاة الإمام عبد الرحمَن بن محمَّد الناصر لدين اللهِ كانت قارئة وكاتبةَ راوِيَة وقد توفيت سنة(423هـ)...ومريَمُ بنت أبي يعقوب الفيصُولي الشَّعْبِي الحَاجَّة أديبة شاعرة وكانت تعلّم النساءَ وتحتشم لديِنها وفَصلها.."([70])

وحينَ الكلام عن المجتمَع القرطبي نتحدَّث عَن المَدينة بأسْواقهَا وحَاراتها وشوارعِها التي كانتْ مضيئَة ليلا، نظيفة طوالَ السَّنة، وعن عمَارتها وبسَاتينهَا ومسجدِها المشهوروقنطرتها التي مَازالت إلى يَومِنا هذا على النَّهر الكبيرِ تربط أجزاء المدينة ببعضها.وعن صومعتِها التي ما ضاهتها صومعَةٌ بعدها ،يقول ابن عذارى في البيان: "وكان الناصر أمر ببناء الصومعة العظيمة في سنة 340هـ، وشرع في بنائها؛ وهي الشهيرة التي لا صومعة تعدلها. وكان الذي دعاه إلى بنائها حدث في القديمة؛ فهدِّمَتْ إلى قَوَاعِدِهَا وبُنِيَتْ بصَخْر الحِجَارَة المَنْقُولَة إليْهاعلى العُجُل؛ وجمع لها فجاءت فائقة الصَّنْعَة. وقد كانت الأولى ذات مطلع واحد؛ فصير لهذه مطلعين، وفصل بينهما بالبناء؛ فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها. ولكل مطلع منها مائة درج وسبعة أدراج؛ وطولها ثمانون ذراعا بالرشاشي إلى وقوف المؤذن؛ وفي أعلى ذروة المنار ثلاث رمانات تغشى النواظر بشعاعِها، وتخطفُ الأبصارَ بالتماعها: الأولى مفروغة من الذهب، والوسطى من الفضة، والثالثة من الذهب أيضا؛ وفوقها سوسَانة من الذهب المحض مسدَّسة؛ وفوق السَّوْسانة رمَّانة صَغيرة من الذهَب؛ ثم طرف الزُّج، وفيه تأريخ مكتوبٌ

[70] / عبد الحليم عويس.ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري.م.س ص:46

بالذهب. وزِنَة كل رمَّانة من الثلاثة المذكورة قنطارٌواحدٌ فما دونَه، ودوركل واحدة ثلاثة أذرع ونصف .وكمُلَ بناءُ الصَّومعَة في جمادى الأولى؛ فذلك ثلاثة عشرشهرا.

وكان الناصرُ زادَ في المسجدِ الجامع بقرطبة زيادتَه المشهورة، المتصلة بزيادة ابنه الحَكَم بَعدَه، وفيها القبوّ الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للأذان، وهو من أعجب البنيان .."([71]) ولكنه لا يغفل الحديث عن بناء الزاهرة بقرطبة:" ابتدئ بنيانُها في أيَّام الناصر من أول سنة 325هـ. وكان يصرفُ فيها كل يَوم من الصَّخرالمنجور ستة آلاف صخرة سوى التبليط في الأسوس؛ وجَلبَ إليهَا الرُّخَام من قرطاجنة إفريقية ومِن تونس. وكانَ الأمَنَاءُ الذين جَلبُوه: عبد الله بن يونس، وحسن القرطبي، وعلي بن جعفر الإسكندراني؛ وكان الناصِرُ يصلهم عَلى كلِّ رخَامَة بثلاثة دنانير، وعَلى كلِّ سارية بثمانية دنَانير سجلمَاسيّة. وكان فيها من السَّواري أربعَة آلاف ساريَّة وثلاثمائة سارية وثلاث عشرة ساريَة: المجلوبة منها من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية. وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية؛ وسائر ذلك من رخام الأندلس .وأما الحوض الغريب المنقوش المذهَّب بالتماثيل، فلا قيمَةَ لهُ، جَلبَهُ ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر؛ ووضعه النَّاصر في بيت المَنَام في المَجْلس الشرقي المعروف بالمؤنِس؛ وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصَّع بالدُّر النَّفيس العَالي مِمَّا صَنَعَهُ بِدَارِ الصَّنْعَة بقَصْرِ قُرْطُبَةَ. وكانَ المُتَوَلِّي لهَذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل الناصر فيه على أمين غيره. وكان يخبز في أيَّامه كل يوم ثماني مَائة خُبزة، وهذا من أعظم الأشيَاء إلى ما فوق ذلك.."([72])

ومن سَعة المدينَة وكثرةِ عمْرانِها يرى الدارسُون أن مَسَاجدَها تَجَاوزت عدَّة آلاف، وأن الحمَّامات بها بلغت في عهد ابن أبي عامر تسعمائة وأحد عشر حمَّامًا وأن الأحيَاء

---

[71]/ ابن عذارى المراكشي.البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.تح/ج.س.كولان/ليفي بروفنسال.دارالثقافة بيروت.ط.3/1983.ص:2/227

[72] / ابن عذارى .م.س.ص:1/242

زادت عن الواحد والعشرينَ حيًّا، وأن المَاء كان يجري في أنابيب الرصاص مازالت آثارها باقية:"...

كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا ـ منها بشقندة ثمانية عشر مسجدا ـ وتسعمائة حمام وأحد عشر حمّاما، ومائة ألف دار وثلاثة عشرألف دارللرَّعيَّة خُصُوصًا، وربَّما نصفُ العَدد أو أكثرُه لأربَابِ الدَّوْلة وخاصَّتهَا..وقال بعضُ العلمَاء: أُحْصِيتْ دورُقرطبةَ التي بها أرباضُها أيَّام ابن أبي عامِر فكان مائتي ألفَ دارٍ وثلاثة عشرألف دار وسبعًا وسبعينَ دارًا وهَذِه دور الرَّعيَّة، وأمَّا دور الأكابر والوزرَاء والكتَّاب والأجنادِ وخاصَّة المُلك فستُّونَ ألفَ داروثلاثمائة دار، سوى مصاري([73])الكراء والحمَّامات والخَانات، وعددُ الحوانيت ثمانون ألفَ حانوت وأربعمائة وخمسةٌ وخمسون .." ([74]).

واعتنى الأندلسيون بدورهم وفرشهم، فزينوها بالخمائل ونسجوا لهم الملابس الأنيقة، وأسسوا لصناعات النسيج دورا متخصّصة وطرز، كما أوجدوا صناعة الحلي والأواني:"ولم يلبث أن أنشأ بقرطبة دار طراز لصنع المنسوجات والملابس الأنيقة، واخذت تنشأ هناك صناعَة الحُلي والحَقاق والتُّحف والأواني والأثاث، وسرعان ما أخذ المجتمع القرطبي يتحضرفي المعاش والحياة الإجتماعية وآدابهافي المأكل والملبس والتزيين ." ([75])

وكان أهل قرطبة يعتنون بمظهرهم الخارجي فيلبسون الحريروالملابس الأنيقة، ولايضعون على رؤوسِهم عمَامَةً أو قلنسوَّة، بل كانت شعورهم تسترسِل على آذانهم([76]) .

وكان العملُ عندَهم من أشرفِ ما ينسبُ من الصِّفات إلى الرَّجل ولو كانَ عالمًا أوغنيًّا ويورد إحسان عباس قولا لابن الكتاني أستاذ ابن حزم يرى فيه العيبَ كل العيب

---

[73]/ المصاري: جمع مصرية وهي غرفة علوية منعزلة ،تكرى أو تُجعل للخدم

[74] /. المقري.نفح الطيب.م.س.صص:451.450

[75] /شوقي ضيف.تاريخ الأدب العربي.عصر الدوؤل والإمارات.م.س.ص:47

[76] /أنظرعبد الحليم عويس.ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري.م.س.ص:47 وما بعدها

في التكاسُل وعدم العمل والتعاون فيعلقُ عليه ابن حزم بقوله:" ولقد صدق ولعمري إنّ في كلامه من الحِكم لمَا يستثير الهمَم السَّاكنة إلى ما هيّئَت له، وأيّ كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون الناس.."[77] وبلغت بهم كراهة التسوّل أنهم كانوا يسبُّون من يتسوّل وقد رأوا فيه القدرةَ على العَمَل، لأنَّهم يعتبرونها من العادات المستقبحة :"وعادة التسوّل عندهم مستقبحة إلى النهاية، وإذا رأوا شخصا صحيحًا قادرا على العمل يستجدي الناسَ في الطرقات والأسواق سبّوه وأهانوه فضلا أنْ يَتَصَدَّقوا عليه، ولهذا لا تجدُ في الأندلس سَائلا إلا أنْ يكونَ صاحبَ عذر.."[78]

وممَّا يُذْكر للمجتَمَعِ الأنْدَلسِي في قرطبةَ حُسْن التَّدبير وسيَاسَة الحَيَاة الاقتِصَادِيَّة فابتعد عن الإسراف والتبذير حتى ليقول المقريّ لوأن حاتما الطائيَّ فطِنَ لها لفضّل دقائقَها على عظائِمِه..ولم يكنِ المسْجِدُ بمعْزَل عَنِ النَّشاطِ الاجتمَاعِيِّ، ولا مكتفيًّا برسالته الدينية فقط، بل اتسعَ مَجالُه إلى الحياة الاجتماعية أيضا:"كان المسجد هو مركز الحياة الاجتماعية في قرطبة، فكانت تقام حوله الأسواق والحوانيت ،بالإضافة إلى الدّور الاجتماعي والسياسي والعلمي الذي يقوم به المسجد ففيه كانت تعقد الاجتماعات وتُقرأ به المنشورات والأوامر النظامية، وتُحلُّ كثير من المشكلات السهلة..[79].

كان من حظّ قرطبة أن بَنَى عبدُ الرحمَان الناصر مدينةَ الزهراء، وبنَى بعدَه المنصورُ بن أبي عَامرمدينَة الزاهِرة، وكان لهذا المعمارالمحاذي لها أن زاد في سعتها، وثراء أهلها، ودلّ ما بها من الزينة والتنافس في العمران على ذلك، فقد تظافر جهد أزيد من عشرة ألاف عامل على مدى خمس وعشرين عاما في بناء مدينة الزاهرة، وكان بها ثلاث طبقات لكل فئة من المجتمع طبقته، فالدنيا للعمال وبها البساتين والحدائق، والطبقة الوسطى للموظفين، والطبقة العليا قصرالحاكم وبه :"قاعته الكبرى

---

[77] /إحسان عباس.عصر سيادة قرطبة.م.س.ص:22.21

[78] /عبد العزيز عتيق.الأدب العربي في الأندلس.م.س:141

[79] /عبد الحليم عويس.ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري..م.س.ص:48

المزدانة بأعمدة الرخام وحليّها الذّهبيَّةِ وجوهرة كبيرة تتلألأ في وسطها سوى ما كان بالمَجْلِس المَعْرُوف بمجلس المؤنِس من تمَاثيلَ لِحيوانات من الذّهب الخالص، وكان القصرُيمتدُّ طولا في نَحْو ثلاثة ألاف ذرَاع وعرضًا في نحو ألف وخمسمَائة وكانَ به نَحو أربعَة ألاف عَمُود منَ الرّخَام..."([80]).

وممّا يذكر لقرطبة أنَّها لم تنسَ في مرثيَّة الأندلس كحَاضرةٍ علميَّةٍ ومركز ثقافيٍّ، يقول أبو البقاء الرندي:

وأيْنَ (قُـرطبةٌ) دارُ الـعُلومِ فَكمْ *** مِـنْ عـَالِمٍ قَـدْ سَمَا فيهَا لهُ شَانُ

[80] /شوقي ضيف.تاريخ الأدب العربي،عصر ملوك الإمارات بالأندلس...م.س.ص:48

حياة ابن شهيد وسيرته:

كان ابن شهيد من فتيان عصره المشهورين، ومنْ شعرَاء القصر المَرمُوقين ومن عَائلةِ انتقلتْ بَيْنَ الوزارة والسلطان انتقاله بين الشعروالنثر..فقد نشأ"أبو عامرأحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأشجعي الأندلسي القرطبي وهومن ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج رهط [81]المولود في عام اثنين وثمانين وثلاثمائة للهجرة "[82]في نعمة عامة، متنقلا بين قصرأميري وظلال جناني قرطبي وارف..أحسّ مظاهر السعادة منذ الصغر، فمارس حياة اللهو والدعة، بل استغرقها..ووالده كان وزيراً عند المنصوربن أبي عامر" في هذا الجو المفعم بالمحبَّة والمودَّة يظلله النعيم وكثرة المال، وتوفر الجاه والسلطة نشأ ابن شهيد الطفل الصغير، فرضع حبّ الترف والبذخ، والتعلق بالمال والحرص على إنفاقه "(83).

ومِمَّا يُروَى في صِباه ما تناقلته كتبُ الرَّاصدينَ، وتصنيفاتُ الدارسينَ قصةَ مجيئه صَغيرا إلى المنصور ودخُوله عليه وما كان له من أمْر التفاحةِ الكبيرةِ وهديَّة زوجته "عبدة":" ولقد وصلتنا قصَّةُ حادثة تُحْكى عنه وهو في الخَامسَة من عمره ،فلقد أُتِيَ به إلى المنصور ،ذات يوم مَطير ،فرأى عنده تفاحةً كبيرةً ،فنظرإليها في اشتهاء ظاهر حتى أن المنصورأمرهُ بأكلهَا، فلم يتمكّن ـ إذ كانت التفاحة كبيرة جدا ـ من أن يقرضَها بأسنانهِ فجعل المنصور يقطع منها بفمِه ويعطيه منها قطعةً قطعَةً حتى أكلها، ثم أرسلَ في طلب ابنهِ عبد الرحمان [الناصر فيما بعد] فلمَّا جاءَ طَلبَ إليْهِ أنْ يَأخُذَ الطّفل إلى السيدة "عبدة"...ولمَّا أبْدى الطفل عزوفه عن الخروج في المطر،حمله عبد الرحمن

---

[81] / يوم المرج ، هي معركة حدثت بين الضحاك بن قيس الفهري الذي كان قائدا لجيوش عبد الله بن الزبير ، وبين مروان بن الحكم وهي معركة حاسمة استعاد فيها بنو أمية ملكهم من جديد ، وهزم الضحاك ، انظر تاريخ الطبري تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر 1971م ، ج5 ، ص : 535 ، 538

[82] / أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان .وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ، تحقيق الدكتور : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1397هـ ، 1977م ، المجلد الأول ، ص : 116 ، 118.

[83] / حازم عبد الله خضر ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه ، ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية .م.س ، ص :20 .

وتابعه ابن شاكر على كتفيهما إلى زوجة المنصور، فأجلسته على السرير بجانبها وأمرت له بأربعة آلاف درهم ألف منها من خزانتها، وثلاثة منها من خزانة زوجها المنصور، وكان ابن شهيد يريد أن يفرق المال بين خدم البيت، لكن والده استولى، وفرّق بعضه على نفر من بطانته، ثم وضع الباقي في خزائنه، فلما بلغ ذلك خزائن المنصورغضب ثم أمر للطفل بخمسمائة دينار، وأمر والده في ذات الوقت بأن لا يلمس منها شيئا. وبنفس الكرم الذي اشتهربه شاعرنا في حياته فيما بعد، هدى المال إلى خدمه ورفاقه واشترى بما تبقى منه لعبا تتمثّل الجند.."[84]

ولعل أصعب فترات حياة الفتى، وقد عاش في هذا الجو المترف، أن يتحول والده إلى حياة العُبَّاد والزُّهَّاد، فيرضى من الحياة بالقليل، ومن العيش بالنزر اليسير..وقد حمل ابنه على شظف العيش، و قسوة الحياة بعد ذلك.." ولقد حدث ذات مرة وابن شهيد في الثامنة من عمره، أن زارهم الوزير ابن مسلمة، وسأل ابا عامرالطفل عن حاله ، فكان كل جوابه غصة وبكاء، فلما سمع بذلك المظفّر بن المنصور بن أبي عامر استدعاه إلى مجلسه، فلما أمره كذلك أمر بأن يُلبسَ الحرير ثمّ أركبه حصانا من عنده يسرجه ولجامه، ووجّه به إلى دار أبيه، يتبعه عبد يحمل طبقا عليه ألف دينار.." (85).

إنَّ البيئة الثقافية والاجتماعية التي عاشها ابن شهيد هي بيئة أبناء العائلات الأرستقراطية العربية القديمة،وهي عائلات معدودة في قرطبة استحوذت على الوظائف والمراكز القيادية:" والبيئة الاجتماعية والثقافية التي وجد فيها ابن شهيد هي بيئة تلك الأرستقراطية العربية القديمة التي كانت تستأثر بمهام الحكم، فكانت كبني أبي عبدة وبني جدير وبني عبد الرؤوف وبني جهور وبني فطيس، أسرة من تلك الأسر التي احتكرت تماما وظائف الإدارة.وقد امتدّ سلطان هذه الأسرات وظلّ غير منقص بحكم صلاتها الوثيقة بالأسرة المالكة، ثمّ بعدها ببني عامر طوال عهد الاضمحلال الأرستقراطية العربية التي انهزمت في معركتها ضد السلطة المركزية، والسياسة

[84] /ابن شهيد.الديوان .تح. يعقوب زكي.دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة... (د.ت).ص:13
[85] / .م.س..ص:14

التي اختلقها الناصر لخلق دولة متعدّدة القوميات، مضافا إلى ذلك تشجيع الناصر للعناصر الصقلبية، واعتماد المنصور بعده على العناصر البربرية. ولقد وُلد ابن شهيد في عهد هشام المؤيّد (الثاني) حين وصلت البلاد تحت قيادة المنصور ورعايته إلى أعلى درجات الرخاء والقوة الحربية، وعاش حتى رأى ليس اضمحلالها فحسب، وإنما كان شاهدا لتحلّلها الكامل ونهاية سطوتها..."(86).

وهو من عائلة غنية ،ومقرّبة من الحكَّام ،وعندما يتكلم المؤرخون للأدب عنه يتحدثون عن جدِّه ووالده، وما لهما من حضوة ومأثرة لم يُحرمْها الحفيد بعد ذلك:"وكان قد رزق بابنه أحمد سنة382 فنشأ في نعيم نشأةً مترفةً وضاعف ترفها رعاية ابن أبي عامر وحظياته له ،فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصوره مختلطا بأحفاده .وعُنيَ أبوه بتربيته.ومنذ نعومة أظافره كان عنده نهم للأدب والمعارف.."(87).

وعن بداية حياته في قصر أبي عامر المنصور يقول:" وأقلّ ما أمتُّ به، وأنطق عنه، ممتدّ عنان الأمل، كارعًا في بحْر الرجَاء لا الوَشل، من مَواتي بالمنْصور جدّه ـ رضي الله عنهماـ أنِّي نشأتُ في حجره ورُبِّيتُ في قصره، وارتضعت ثديَ كرائمه، واعتجرتُ رداءَ مكارمِه، واغتذيت من فيه أكلا ذقنيه، وماءً علَّنيه، فصرتُ من أفراخ نعمائه الحُمر الحَواصِل، ولحقت بأُخُوَّة أبنائه الغُرِّ العياهل.."(88)

وكانَ لحياة الترَفِ واللهوِ في سنِّ الشَّباب، نتيجة الحياة المترفة الناعمة التي تربى عليهاونشأ فيها ،الأثرالكبيروالبيّن في بناءِ شخْصيتِه النفسيَّة والفكريَّة فانصرفَ من جديدٍ لحياة الخلاعَة والمُجون ،وطلبَ المَلذاتِ ،يقول عن هذه الفترة صاحبُ الذخيرة:"كان

---

[86]/ ابن شهيد.الديوان تح/ يعقوب زكي.م.س.ص:12

[87]/شوقي ضيف.تاريخ الأدب العربي.عصر الدول والإمارات.دار المعارف القاهرة.ط5.2009.ص:449

[88] /ابن شهيد.الديوان تح.يعقوب زكي.م.س.ص:13/

الوشل:الماء القليل يتحلّب في جبل أو صخرة ولا يتّصل قطره/ اعتجرتُ:لبستُ/العياهل:السادة الأكارم.

لقرطبة في رقته وبَرَاعتِه وظرفه خليعَها المنهمك في بطالته وأعجب الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله أحَطهم في هَوَس نفسه وأهتكهم لعرضِه وأجرائهم على خلقه "(89).

وقد عرف عنه أنه كان كريمًا سخيًّا ،وشهد له بذلك كل من عرفه في قرطبة ولازمَه في المَجَالس .جَاءَ في جذوة المُقتبس: "كان جَواداً لا يبقي شيئاً، ولايأسَى على فائتٍ، عَزيزَ النفس مَائلاً إلى الهزل، وكَانَ لهُ مِن عِلمِ الطبِّ نصِيبٌ وافرٌ" (90).وممَّا جاءَ شعرًا على لسَانه في تَحميد الكرَم والمُفاخَرة به :(من الطويل).

ومَا انفكَّ مَعشُـوقُ الثَّوَاءِ نَمُدّهُ *** بِبِشْرٍ وتَرْحِيبٍ وبَسْطِ لِسَانِ

تُغَنّيــهِ أطيـَــارُ القِيَانِ إذَا انْثَنَى *** بِصِنْجٍ و كِيثَارٍ وعودِ كِـرَانِ[91]

ويسمودُخَانُ المَنْدَل الرَّطبِ فوقَه ***كمَا احتملت ريحُ قَنُونٍ عِثـَان

إلى أنْ تشهَّى البيْنَ من ذاتِ نفسِه *** وحَنَّ إلى الأهْلين حَنّةَ حَانِي

فأتْبَعْتُـــــــهُ مَا شَدَّ خـــلّةَ حـالِهِ *** وأتبَعَنِي ذِكْـرًا بكُلِّ مَكَانِ[92]

---

[89]/ أبوالحسن علي بن بسام الشنتريني الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،تحقيق د.إحسان عباس،الدار العربية للكتاب سنة 1395هـ ق1 ، م1 ، ص : 50 .

[90]/ أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي .جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ،الدار المصرية للتأليف والترجمة ،مطابع سجل العرب ،ج4. ص: 136

[91] /القيان:المغنيان/الصّنج والكيثار وعود الكران:أدوات موسيقية..

[92] /ابن شهيد .الديوان.تح.يعقوب زكي.م.س.ص:163..وبداية القصيدة :

ولما رأيت اللـــيل عسكـــــر قرُّه* وهبّت له ريحـــان تلتطمـــان**

وعمّمَ صلع الهضب من قطر ثلجه* يـــدان من الصِنَّبـــر تبتدران**

رفعت لساري الليل نارين فارتأى* شعـــاعين تحت النجم يلتقيان**

فأقبـــل مقرور الحشا لم تكن له* بدفع صروف النائبـات يـــدان**

فقلت إلى ذات الدّخان فقال لـي:*و هل عُرِفت نـــــار بغير دخان؟**

فملت به أجترّه نحو جمـــــرة ***لها بارق للضيـــف غير يمـــان

إذا ما حشا ألقمتـــــه كلَّ فلذة * لفرخة طيـــــر أو لسخلة ضان**

فما زال في أكل وشرب مدارك ***إلى أن تشهّى التّركَ شهـوة واني

فألحفته فامتدّ نحو مهـــاده * وخـــــــدّاه بالصهباء تتّقدان**

وتُذكرُعزّتُه بالنفس ،والافتخَارُبالنسَب ،فجَدُّه أوَّل من عُرِفَ بذي الوزارتين، وهُوَ صَاحبُ أكبرَهديَّة([93])يذكرها ابن خلدون متعجبًا من محتوياتهَا إلى الخليفة الناصر، وأبوه رجلُ علم ،وصاحبُ كتابِ التَّاريخ الكبيرالذي تجَاوزَمائة جُزء:"أبومروان عبدالملك بن أحمَد بن شهيد أوحَد الناس بالتقدّم في علم الخَبروالتاريخ واللغةِ والأشعار وسائرما يُحاضَر به الملوكُ، مع سَعة روايتِه للحَديث والآثاروهُومُؤلّفُ :"كتَاب التَّاريخ الكبِيرفِي الأخبَارعَلى تَوَالي السِّنين"بدأَ بهِ مِنْ عام الجَمَاعَة سَنة أربَعِينَ وانتَهى إلى أخْبَارِ زَمَانِه المنْتَظمَة بِوَفاتِهِ رحمَهُ الله وَهُو أزيدُ من مائة سِفْر.."([94])

وقد عُرِف عن ابن شُهيد أنَّه كانَ سَريعَ البَديهَة، قويَّ الحَافظة، وصَفَاء الذِّهن وتَوَقُّدَ القَرِيحَة الشعْريَّة، والمَيل إلَى النَّقد، فألَّفَ، ونَظَّمَ..ونالَ الإعْجَاب والثَّنَاءِ..ومَا عَرَفَ عَنْه أنَّه كانَ مُقتَنِيًّا للكتُبِ، ولا مقبِلا عليها، وهذا ما أثارَ إعجَابَ الأدبَاء به كما يقول ابن حيَّان عنه : " والعَجَبُ منه أنه كان يدعو قريحتَه إلى ما شاء من نثره ونظمِه في بديهتِه ورويَّـتِـهِ، فيقودُ الكلامَ كما يريدُ من غير اقتنَاءٍ للكتب ولا اعتناء بالطلبِ، ولا رسوخٍ في الأدبِ، فإنه لم يوجد له – رحمه الله – فيما بلغني بعد موته، كتابٌ يستعين به على صناعته ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدرله فزاد ذلك في عجائبه، وإعجاز بدائعه .وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارَّة أقدرَ منه على سائر ذلك، وشعرُه حسنٌ عند أهل النَّقد تصرَّف فيه تصرُّفَ المطبوعين فلم يقصرْعن غايتهم وله رسائلٌ كثيرةٌ في فنون الفكاهَة وأنواع التعريض والأهزال،قصارٌوطوالٌ،برزفيها شأوه، وبقاؤها في الناس خالدة بعدَه،

---

[93] / وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على ما يفسر خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين وأربعمائة رطل من التبر ومصارفة خمسة وأربعون ألف دينار من سبائك الفضة في مائتي بدرة واقتصر ابن الفرضي على خمسمائة ألف دينار فقط واثنا عشر رطلا من العود الهندي الذي يختم عليه كالشمع ومائة وثمانون رطلا من العود المتخير ومائة رطل من العود الشبه المنتقى هكذا ذكره ابن خلدون

وقال ابن الفرضي مستندا إلى الكتاب الذي وجهه ابن شهيد مع الهدية إن العود الغالي من ذلك أربعمائة رطل منها في قطعة واحدة مائة وثمانون رطلا.

وقال ابن خلدون ومائة أوقية من المسك الذكي المفضل في جنسه انتهى.

وقال ابن الفرضي نقلا عن الكتاب المصحوب مع الهدية إن المسك مائتا أوقية وثانتا عشرة أوقية ومن العنبر الأشهب الباقي على خلقته بغير صناعة خمسمائة أوقية منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن مائة أوقية هكذا في تاريخ ابن خلدون

وفي ابن الفرضي أن الكل مائة أوقية وأن هذه القطعة أربعون أوقية ومن الكافور المرتفع النقي الذكي ثلاثمائة أوقية

قال ابن خلدون ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع وعشرة أفرية من عالي جلود الفنك الخراسانية..للزيادة ينظر نفح الطيب 356/1 وما يليها تح إحسان عباس عن دار صادر .1968.

[94] /عبد الله سالم المعطاني/ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي .رسالة ماجستير .جامعة أم القرى.1977.ص:27

وكان في سرعة البديهة وحضورالجواب وحدته، مع رقة حواشي كلامِه، وسهولة ألفاظه وبراعَة أوصافه، ونزاهة شمائلهِ وخلائقِه، آيَة من آيَات الله خالقه "[95].

ولعلّ التعجّب من عدم اقتناءه الكتب والاستعانة بها حين الحاجَة إليها، فمردّه إلى عدم الانتباه إلى ما عُرف عنه من قوّة الحافظة على الرغم من ذكرها في الأوصاف، فما الحاجة إلى الاقتناء وهو يحمل الكتابَ كلّه حفظا؟.ألم يكن غيره ممن سبقه كالإمام الشافعي رحمه الله، ومن عاصره كالمتنبي مثلا؟

وقد ثبت عن ابن شهيد أنه كان يتباهَى بأدَبِه، ويتعَاظم بنفسِه حتَّى ليَرى غيره عدمًا، ولا يعطي اعتبارا لأستاذ، ولا قيمَةً لشاعر أو أديبٍ ناثر، ممَّا جعل الشاعر ابن الحناط الكفيف [96] يقول عنه : " وأخونا أبو عامر يسهب نثراً، ويطيل نظماً شامخاً بأنفه، ثانياً من عطفه، متخيلاً أنه قد أحرز السباق في الأدب، وأوتي فصل الخطاب، فهو يستقصر أساتيذ الأدباء ويستجهل شيوخ العلماء"[97].

وهي الملاحظات التي جعلت ابن شهيد ينبري لهم ويعتبرهم خصوما له، فيرد لاذعا ويكتب رسائل منها رسالته الشهيرة: التوابع والزوابع، ورسائل أخرى في وصف البعوض. والذئب والحلواء والما والبرغوث..ويظهر في النثر براعته في النقد، ودقة الأحكام التي يقدمُها والآراءَ التي يراها..وله في الشعر قصائد في الفخر بالنفس والنسَب، وهجاء الخصوم، وغيرها من الأغراض الشعرية..

وقد عاش حياته متذمِّرا من عاهة الصَّمم التي كان يعاني منهَا..فيراها السَّبب الذي حال دون بلوغه الوزارةَ بداية، ونيله المناصبَ العاليَة، وقد كان طموحًا في تحصيلها..يراهاغصَّة في حلقه، عقبة كأداء في طريقه، ولم يشفع له تنقله بين قصور بني أمية، ولا نسبِه المتصِل بالوزراء والمقرَّبين..ويذكرعنه ذلك الأمر صاحب الذخيرة

---

[95] / أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني .الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .م.س. ق1 ، م1 ، ص : 193.192

[96] / هو الأديب أبي عبدالله أحمد بن سليمان بن الحناط الكفيف ، زعيم من زعماء العصر ورئيس من رؤساء النظم ، والنثر في تلك الآونة ، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام ، وكان بينه وبين أبي عامر بن شهيد مناقضات في عدة رسائل وقصائد ، وكان شاعراً ضريراً ، وأوسع الناس بعلوم الجاهلية ، والإسلام ، عالماً بالأفلاك والهيئة ، حاذقاً بالطب والفلسفة ، ماهرا في الآداب الإسلامية انظرالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق1 م1، ص : 437

[97] / ابن بسام الشنتريتي.الذخيرة .م.س: ، ق1 ، م1 ، ص : 440.439

من كلام كتبه يقول فيه:" إلا أنه لم يُرَ أغبنَ من الجاحظ لنفسه وإن كان واحدَ البلاغة في عصره فما باله لم يلتمس بها شرف المنزلة بشرف الصنعة، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا بها ما بلغا وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما ؟فلا يخلو في هذا إمَّا أن يكون مقصِّراً عن الكتابة، وجمْع أدواتها، أو يكون ساقطَ الهمَّة، أو يكونَ إفراط جحوظ عينيه قعد به عنها، كما قصَّر بي أنا فيها ثـقـل سمعي وبأبي القاسم ورمُ أنفه ،إذ لا بدَّ للملك من كاتب مقبول الصُّورة تقع عليها عينه ،وأذن ذكية تسمع منه حسه ،وأنف نقي لا تذم أنفاسه عند مقاربته له "[98].

ولما بلغ الثامنة عشرمن عمره حلت بالأندلس الفتن، وتلاحقت النكبات، ورأى ملاحقة الأمراء والحكام للأدباء والمبدعين، والتنكيل بهم، واستمرالأمر كذلك ردهًا من الزمن لم يكن فيه المرءُ يأمن على نفسه :فهولا يأمنُ البقاء للمسَاء إذا أصبحَ ولا للصباح إذا أمسى، ولا يأمن العودة إلى بيته إذا خرج، ولا الخروج منه إذا دخل.

كان لكل هذا الأثر الكبير على نفسه، وعلى كتاباته الأدبية والفكرية، وقد امتدت هذه الحالة من الفتن طوال العقدين الأولين من القرن الخامس الهجري..وهي مدة ليست باليسيرة، تصل نصف حياته الباقية:" فواكبتْ شبَابُه المتَفتِّح ونفسِه المنطلقة ومواهبِه التِي كانت قد بدأتْ في الظهور بصورة واضحَة"[99]. يقول عنه المقري في النفح:"عالم بأقسَام البلاغة ومَعَانيها، حائز قصبَ السَّبق فيها ،لا يشبهُه أحَد من أهل زمَانه، ولا ينسقُ ما نسقَ من درّ البيَان وجُمَانه توغّل في شعَابِ البَلاغَة وطرقِها وأخذ عَلى متعَاطيها مَا بَيْنَ مَغْربِها وَمَشرقها، لا يقاومه عمرو بن بحر،ولا تراه يغترف إلا من بحر، مع انطباع ،مشى في طريقه بأمدٍ باع، وله الحسب المشهور، والمكان الذي لم يعْدُه للظهور.."[100]

---

[98] / ابن بسام.الذخيرة ، ق1 م1 ، ص: 243. وورم الأنف انتفاخه من الغضب ، المعجم الوجيز مادة ورم .
[99] / ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه ، م.س. ص: 33
[100] /المقري.نفح الطيب.م.س.ص:621

وبالقدر الذي قربَه إليهم العامِريُّون، فلمْ يكن يتأخَّر عنهم بالقصَائد التي تخلِّدُ ذكرهُم وترفَعُ شأنهم عَلى مرّ الزمَن، ومنهَا مَا قاله في المُسْتعين مادحًا .

والتي منها هذه الأبيات(من الطويل):

لَعَلَّ نَسيمَ الرِّيحِ تأتي به الصِّبا ***بنشرِ الخزامى و الكِباءِ المُعبَّقِ

كأَنَّ علَيْهَا نَفْحةً عَبْشَميَّــةً ***أَتَتْ مِن جَنابِ المُسْتَعِينِ المُوَفَّق

فنِلْتَ الذِي قد نلْتَ إذ لَيْسَ للعُلا***سواكَ كَأَنَّ الدَّهْرَ للنَّاسِ مُنْتَق([101])

واشتدّ طموحُ ابن شهَيد في الوزارَة ،أونَيل ضَيعَةٍ من الإمَارَة. فقَد تقدَّم للوَزير ابن عبَّاس يُحَرّك ذاكرتَه ،وَيَطلبُ مِنْهُ الوفَاءَ بمَا كانَ قدْ وَعْدَهُ فِي سَابِق عَهْدِه بَهِبَةٍ ينالها، فَكتَبَ إليهِ يَقُولُ:" وَهَذا مَوضِعَ الحَدَس لا امْتِرَاء، وخَليقَة النَّفْس لا اَدِّعَاء وَوعْدُ الوزيرِعباس بصَرف ضيعةٍ لي بجهة تدمير، حالتِ الفتنُ دونها واضطربتِ الأحوالُ عن مطالعتها، وأنا أسألُ فضلَكَ سؤال المدل في استنجاز ما وعَد ،فإنه يعتاض من شكري له وثنائي عليه ،وصدعي في المحافل بفضله ،أجلَّ فائدة يصطفيها، وأكرمَ نفيسةٍ يقتنيها.وأصْلُ اصطفائنا لتلك الضيعة وسائرِأخواتِها أن المنصورَ- رضي الله عنه - استعمل أبي عَبْده على تلك الجهة الشرقية تسعة أعوام توالت بتدمير وبلنسية "([102])

ولم ينجُ ابن شهيد من حَسَدِ الحَاسِدِينَ وَوَشَايَة الوَاشِينَ، فَقَدْ سَجَنَه المُعتلي وهو من أمراءِ العلويّين ذكرَها ابن خاقان في قَوله:"ودَبَّت له أيَّام العُلويين عَقَارب بَرِئَتْ بها مِنْ أبَاعِدَ وأقارب، واجهَهُ بِهَا صَرف قطوب، وانبرت إليه منها خطوب، نبا لها جنبه عن المضجع، وبقي بها يأرق ولا يهجع إلى أن علقته من الاعتقال حباله وعقلته في عقال أذهب ماله ،فأقام مرتهناً ولقي وهناً"([103]) وهذا ما كان يسعى إليه خصومه ،ويتصيدونه

---

[101] / النشر:الريح الطيبة/الخزامى:نبات بري ذو رائحة طيبة/الكباء:عود البخور./عبشمية:نسبة الى عبد شمس وهو بنو أميّة./منتق: الانتقاء :الاختيار.

[102] / الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق1 ، م1 ، ص: 198.

[103] / أبو النصر محمد بن خاقان .مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس.،تحقيق محمد علي شوابكة ،دار عمار مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى 1403هـ ، 1983م . ص: 189 .

له، ويتحينون فرصه، وقد كتب يعتذر للمستعين يوم كان صاحب سلطان وسطوة، يشكو له من خصومه وحساده كأبي القاسم الإفليلي فقال[104]:- [من البسيط]:

وقالتِ النـَّفسُ لمّا أن خـَلوتُ بها أشْـكـُو إلَيْها الهَوى خِلواً من النَّعَم :

حتّام أنت على الضَّرَّاءِ مُضطَجعٌ مُعـرِّسٌ في ديارِالظـُـلْمِ والظـُّـلَمِ

وفي السُّرى لك لوأَزْمعتَ مُرْتحلاً بُـرْءٌ مـن الشـُّوقِ أو بُرْءٌ من الـعـدَم

ثم استَمرَّتْ بفَضلِ القَولِ تـُنْهِضُني فـقـلت : إني لأسْتَـحْيي بني الحكمِ

ثم كتب قصيدته الدالية يستعطفه بها ،ويعتذر إليه ، قائلاً ([105])[من الطويل].

قَريبٌ بِمُحْـتـَلِّ الــهَـوانِ بعِـيدُ يجُودُ ويَشْـــكُو حُزْنـــَـهُ فيُجِـــيدُ

نعى ضُـرَّه عِـنْد الإمامِ فيالـــه عدُوٌّ لأبَـنَاءِ الكـــرَامِ حسُـــــــودُ

وما ضرَّهُ إلا مـُــزاحٌ ورِقـَّـــةٌ ثـَـنـَتـْهُ سفيه الـذِّكـْرِ وهْو رشِيدُ

ولم يستمر الحَال هكذا حتَّى استقامت الأيَّام، وشفيتِ الأورَام، وكان لزمن المعتلي أثرٌ عليه فلزمَه، واقتربَ منه، وخرجَ مَعَهُ إلى مَالقة لما سقَطت قرطبَة بيدي القاسِم عمُّ المعْتَلي:" استقامَت أحْوَاله زَمَن المُعْتَلِي، وتوَطدَّت علاقَتُه به بَعْدَ أنْ أطلقَ سِرَاحِه فمَدَحَهُ بالعَدِيدِ مِن القَصَائِد "([106]) ومَا لبَثَ أنْ سَقَطَ حُكْمُهُ وَزَالَ مُلْكُهُ، واعْتلَى المُستَظهر بالله عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجَبَّار الحُكم ،فنَالَ ابن شهيد وِزَارَة امْتَدَّت سَبْعَة وأربَعِين يَوْمًا، وَهِيَ مُدَّةُ حكم المستظهر بالله، الذِي قتَلَهُ المستكفي بالله، الذي قتله هشام المعتمد على الله واستولى على الحكم ليعود المعتلي إلى قرطبة، وينظم ابن شهيد قصيدة لم تخلُ من التجنّي على العلماء والفقهاء حين أراد أن يوغر الخليفة هشام المعتمد على الله عليهم ليبطش بهم لأنهم هم رأس الفتنة حسب رأيه.. وهي قصيدة كما يقول عنها ابن حيان: "ذميمة المعاني استهدف بها إلى سفك دماء المسلمين،

---

[104]/.ديوان ابن شهيد الأندلسي،تحقيق:د يعقوب زكي ،راجعه محمود علي مكي،دارالكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة،ص: 151

المعرّس:الذي ينزل من مكان آخرالليل للاستراحة./العدم:الفقر./ بني الحكم: خلفاء بني أمية.

[105] / المصدر نفسه: ص : 99.

[106] /) المصدر نفسه : ص 32

وجسَّر هشاماً على الفتك بالعالمين" ([107]) يوردها المحقق للديوان على أنها هجاء للفقهاء([108]) ومديح هشام المعتد :"[من الكامل].

أحْلَلْتَـــــنِي بِمَحَلّةِ الجَـوْزَاءِ *** ورَوَيْتُ عِنْدَكَ مِنْ دَمِ الأعْدَاءِ

وَطَعِمْتُ لَحْمَ المَارقِينَ فأخْصَبَتْ***حـــالي وبَلَّغَنِي الزَّمَانُ شِفَائِي

ورأيتنِي كالصَّقر فوقَ مَعَاشِـرَ*** تَحـــتِي كأنَّهـــم بَنَاتُ المَـاءِ

ومنها:

لا يرحمِ الرحمَنُ مصرعَ مَارقٍ*** عَبَثَتْ بِطَاعَتِهِ يَدُ الأهْـــــوَاءِ

ألحـــقْ به إخوانَه فحيَـــــاتُهُمْ*** نكدٌ وقَدْ أوْدَى أخُـــو السُّفَهَاءِ

ساعِدْ بذاكَ ودَعْ مقَالَ معَـاشِر*** بَخِلـوا فنَالوا حطّـــةَ البخَلاءِ

من لم يُفِدْكَ سِوَى الرِّمَاح فَخَلِّهِ*** للشَّمْسِ يَرْقُبُـــــهَا مَع الحِرباءِ

ودع القلانس في السحاب يشقّها***ومفـــاخر الآبـــاء للأبنـــاء

إنّ الرّجـَــــــال إذا تأخَّرَ نفعُهم***فِي كلِّ معْنًـــــى شُبِّهوا بنسَاء

أُنا صِلُّهم([109])عند الخصَـام فخلِّهِم*** للسَان هـــَذِي الحَيّة الرَّقشَاء([110]).

ولعلّ هذا الموقفَ من العلماءِ، مردُّه الانقلابات الكثيرة والمتواليَّة في زمَن الفتنَة الكبرى التي حلَّت بقرطبَةَ، وصراعُ الحُكَّام على الكرسي، وتقلبه بين وزارة هذا، ومجلس ذاك، ونَفي هذا وقرب ذاك، وقد هاجَر إلى مَالقة ملتحقًا بالمعتلي يحي بن حمود لانتسابه إلى الهاشميين، وقد رافقه العديد من العلماء والمفكرين طالبين منه أنْ يوقف الفوضى في قرطبة بالعودة إليها والتّمكّن من كرسِي الخلافة، فزحف معهم إليها واستولى عليها بعد أن خرج منها المستكفي فارا، وكان لابن شهيد منزلة الوزير فيها، وأسوأ ما يذكره المؤرخون ودارسو الأدب له في هذه الفترة قصيدته السابقة

---

[107] / الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق3 ، م1، ص : 521.

[108] / والفقيه هنا هو المشتغل بالعلم والتعليم،ويسمى كذلك رفعا لشأنه،وتكريما لمكانته :"ولقب الفقيه عندهم لقب جليل،حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم بالفقيه إعلاءً لشأنه ،وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه، لأنّ هذا اللقب عندهم أرفع السمات.."عبد العزيز عتيق.الأدب العربي في الأندلس..م.س.ص:148

[109] /في الديوان :أناضلهم....الصلّ/الرقشاء:الحيّة السامة التي تقتل من ساعتها.

[110] /ابن بسام.الذخيرة.ق.3.م1 ص:522.521 وفي الديوان تح.يعقوب زكي.م.س.ص:82.81

في التحريض على العلماء والفقهاء..:" وبالفعل فقد ترك قرطبة ورحل إلى مالقة ولجأ إلى بلاط المعتلي يحي بن حمّود، مع عدد من المفكّرين والرجال البارزين من الساسة القدماء، الذين طلبوا منه أن يضع حدّا للفوضى في قرطبة، فاستجاب المعتلي لطلبهم وزحف إلى قرطبة، فلمّا وصلت أنباء غزوته إلى المستكفي فرّ من قرطبة ولكنه قتل بعد ذلك بأسابيع قليلة، أمّا المعتلي فلم يقم مدة طويلة في قرطبة فغادرها بعد مدّة قصيرة ،فبايع أهلُها أمويًّا جديدًا هو هشام بن محمد[418هـ] فتلقّبَ بالمعتد بالله، وبدأ عهده بتعيين الحَكَم بن سعيد حاجبا له، وابن شهيد وابن حزم وزيرين..."[111]

وعلى الرغم من تقرّبه للحموديين، ونيله الوزارة منهم ومن بني أُمية أيضا، لكنه ظلّ وفيا للعامريين لا ينسى فضلهم، ولا ينكر جميلهم، ولم يتجاوز محنتهم، ولا تنكّر لهم بعد زوال نعمتهم، بل إنه كان يتمنى أن يعود عهدهم كما كان أو أفضل، حتى أنه أبقى صلة بهم حين لازم مراسلة حاكم بلنسية وهو المؤتمن عبد العزيز وكذا أبي عامر بن المظفر الذي بقي في قرطبة على الرغم من سقوط الدولة العامرية، ولزم ابن شهيد صحبته واختلف في أوقات كثيرة إلى مجالس لهوه في قصره مع الكثير من الأدباء..[112]

وكان لابن شهيد في قرطبة صحبة إخوانية بغير الحكام والأمراء، فقد ذكر المقري في نفح الطيب مصاحبته للقاضي ابن ذكوان قال :" إنّ ابن شهيد كان يومًا مع جمَاعة من الأدبَاء عند القاضِي ابن ذكوان، فجِيءَ بباكورة باقلاًّ، فقال ابن ذكوان لا ينفردُ بهَا إلا مَن وصَفَهَا، فقال ابن شهيد أنا لها وارتجل(من المنسرح):

إنّ لآليـــــــكَ أحْدَثت صلفَا *** فاتّخذت من زمرّدا صَـــــلفا

تَسْكنُ ضَرّاتُها البُحُورَ وذِي *** تسْكنُ للحُسْنِ رَوْضَةٍ أُنُـــفَا..[113]

---

[111] /ديوان ابن شهيد ورسائلُه.جمعه وحققه وشرحه محي الدين الديب.المكتبة العصريةصيدا،بيروت.... الطبعة الأولى ، 1417هـ , 1997م ، ص:33.

[112] /ينظر في ذلك الذخيرة. لابن بسام. ق.1.م.1.ص:193.213

[113] / المقري.نفح الطيب.م.س.ص :248

ويذكر الفتح بن خاقان في المطمح أن ابن شهيد كانت له صداقة متينة ورابطة قوية بالكاتب أبي المغيرة بن حزم قال:"وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء، وحليفي وفاء، لا ينفصلان في رواح ولا مقيل، ولا يفترقان كمالك وعقيل، فكانا بقرطبة رافعي ألوية الصّبوة ، وعامريّ أندية السّلوة"(114)

ولما بلغ الثالثةَ والأربعين من عمره أصابه مرض شديد.. فأقعده الفراش واعتلَّ بالفالج مسْتهلَّ ذي القعدة سَنة خَمس وعشرين وأربَعمائة للهجرة .وَقَد ذَكرَ الحُمَيدي أنَّه أرسَل قصيدَة إلى أبي حَزم ينْعي فيها نفسَه ويطلبُ منهُ زيارتَه وذِكرَه بَعدَ وفاته : "أخبرني أبو محمد علي بن أحمد قال :كتب إليَّ أبو عامر بن شهيد في علّته بهذه الأبيات:

[من الطويل] ([115])

و لما رأيتُ العيشَ لوّى برَأسِـــهِ*** وأيقنتُ أن الموتَ لا شكّ لاحِقي
تمنَّيتُ أنـــّـــي ساكنٌ في غيَابة ***بأعْلى مَهبِّ الرِّيح فِي رأسِ شاهِق
أردّ سقيطَ المَوْت في فَضل غَيْبتِي*** وحـيدًا وأحسُو المَاء ثنيَ المغَـالق
خليلـــيَّ مَن ذَاقَ المنيّةَ مَـــرّةً *** فقــدْ ذقتُها خمْسِينَ ، قولةَ صَـادقِ
كأنّي وقد حَان ارتحَالـــي لمْ أفزْ*** قديـــمًا من الدنيَا بلمحَـــــة بارقِ
فمنْ مُبلغٍ عَنِّي ابنَ حزم وكانَ لِي*** يدًا في ملمَّاتي وعندَ مضَايِقِي
عليك سَلامُ اللهِ إنـّـــــــي مُفارقٌ*** وحسبُك زادًا من حبيبٍ مُفـــارقِ
فلا تنسَ تأتيني إذا مَـــا افتقدتَنِي***و تذكار أيـــــَّامي وفضْل خَلائِقِي

---

[114] // أبو النصر محمد بن خاقان . مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، دار عمار مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى 1403هـ ، 1983م.ص:202

[115] /ابن شهيد.ديوان ابن شهيد ورسائله. تح/ محي الدّين ديب.م.س.ص:102/101.الغرانق:من الرجال التّام ./العلالة:ما يتعلّل به.

و حَرّكْ لهُ باللهِ منْ أهْلِ فنّـــــنَا ***إذا غَيَّبُوني كلَّ شَهمٍ غُرَانِـــــقِ
عسَى هامَتي في القبْر تَسْمَعُ بعضَه*** بترجِيع سارٍ أو بتطريبِ طـارِقِ
فلي في ادّكاري بعد موتيَ راحة *** فلا تمنعونيها عُلالـــــــة زاهق
وإنّي لأرجُو اللهَ فيمَا تقدَّمَـــــــتْ *** ذنُوبِي بِه ممَّا دَرَى مِن حقَـائقِ

فأجابه أبو محمد:[على الوزن والقافية]

أبا عامرٍ ناديتَ خلاًّ مُصَافيـَـا *** يُفدّيك من دَهم الخُطوب الطوارقِ
وآلمْتَ قلبًا مُخلصًا لكَ مُمْحِصًا *** بِودّك مَوْصُول العُـرَى و العَلائِقِ
شدائـــــــدُ يجلوهَا الإلهُ بلطفِهِ *** فلا تأسَ إنَّ الدَّهـــرَ جَمُّ المضَايِق
وربَّ أسِيرٍ في يدِ الهَول مُطلق***ومُنطلِق و الدَّهـــرُ أسْـــوَقُ سَائِقِ
سفينةُ نوحٍ لمْ تضِـــــقْ بِحُلُـــولِهَا ***و ضاقَ بهم رحْبُ المَلا والسَّمـــالِقِ
وإن تنجُ قلتَ الحمدُ لله مخلصًـــــا *** فمنْ عِظمِ النِّعمَى بَقَاءُ المُصَـــادِقِ
وإن تكنِ الأخْرى فأقربْ بـلاحِـقٍ *** تأخَّرَ مِنَّا مَـــــــنْ تقدَّمَ ســـابـِق
فقربُك لي أنْس وبُعدُك مُوحِـشي ***وَلقيَاكَ مسْلاتِي وفقدُك شَـائقي.."[116]

وعلى الرغم من خطورة مرض الفالج فقذ ترك نصفه الثاني به يتّصل بالناس:" يفكرويكتب الشعر،ويتلقى المواساة ويجد بعض العزاء في مصيبته التي لحقته والتخفيف من وطأة الألم الذي لم يكن قادرا عليه:"ومن حسن الحظ أنَّ الفالجَ الذي أصابَ ابن شهَيد لم يصبْ كلَّ ملكاتِه بالعَجْز، فقدْ ظل ذهنُه وظلت أعضَاءُ الكلام عنده تعملُ كما كانت ،حتى أنَّه كانَ يجدُ بعضَ العزاء وبعض التخفيفِ من عذابِه وألمِه في الحَدِيثِ مَعَ أصْدِقائِه وفي التأليفِ .

ولقد أعمَل فكرَه كثيرا في طبيعَة مرضِه، وفي القصدِ من دائِه ومن عذابِه، فقوي اعتقادُه بـأنَّ اللهَ سبحانَه وتَعَالى أصَابَه به حَتَّى يُكفّرَ عن ذنوبه عَن طريق الشعُور بالألم . يقول ابن خاقان: "وأحسبُ أنَّ الله أرادَ بها تمحيصَه وطلاقَه من ذنبٍ كان

[116] /الحميدي.جذوة المقتبس. م.س.ص:135.134

قنيصه"[117] ويذكر ابن بسام في مرض الوفاة أن ابن شهيد اشتدّ به المرضُ وتفاقمت حالته فعجزَ عن الحَركة بعدَ أن كانَ يستعينُ بعصَا لقضَاء حاجَته، أو مستندا على شخصٍ مرَّة، بل أزمَع قَتل نَفسه عندَ اشتدَاد الألم عَليه:"..يقول ابن بسام: ولمّا طال بابن عَامر ألمُه، وتزايَد سقمُه، وغلبَ عليه الفالجُ الذي عَرض له في مستهل ذي القعدة من سَنة خمس وعشرين وأربعمَائة لم يعدمْه حركة ولا تقلّبا، وكانَ يَمْشي إلى حاجته على عصا مرة، واعتمادا على إنسان مرة، إلى قبل وفاته بعشرين يوما، فإنّه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلّب، ولا يحتمل أن يتحرّك لعظيم الأوجاع مع شدّة ضغط الأنفاس وعدم الصّبر،حتّى همّ بقتل نفسه ،وفي ذلك يقول من قصيدة : [من الطويل]

أنوحُ على نَفْسٍ وأندبُ نبلـــَـــها ***إذا أنا في الضَرّاءِ أزمَعْتُ قتلـــَـهَا
رضيتُ قضاءَ اللهِ في كلّ حـَـــالة ***عَليّ وإحكـَـامًا تيقّنتُ عـَـــــدلهَا
أظل قَعيـــــدَ الدَّار تجَنَّبنِي العَصَا ***عَلى ضَعف سَاق أوهنَ السَّـقمُ رِجلهَا
وأنعِي حسيسَات ابْن آدمَ عَامـِـــلاً***براحـَـــــة طفل أحْكمَ الضرّ نَصْلها
وربَّ قريضٍ كالجَريض بَعَثتُـــــه***إلَى خُطبَة لا يَنْكر الجَمعُ فضْلـَـــهَا
فمنْ مُبلغ الفتيانَ أنَّ أخـَـــــــاهُم ***أخـُـــو فتنَة شنْعَاء ما كانَ شكلُـــها
عليكُم سَلامُ مِن فتًى عضَّــه الرَّدَى***ولمْ ينـــسَ عينًا أثبتَتْ فيــهِ نُبلـَهَا
يَبينُ وكفُّ المَوتِ يَخْلعُ نَفسـَـــــه***ودَاخلـَـــــهَا حُبّ يُهَـــــوِّن ثكلـَــها.."[118]

وفي العشرين يومًا السَّابقة لوفاته عجز تمامًا عن الحركة، فكان يبيت الليالي الطِّوال يصرخُ من شدَّةِ هيجانِ الألم عليه .وأوصى بأن يُكتب على قبره نثرا ونظما، على لوح رخام .وأن يدفن قرب قبر صَديقِه أبي الوَليد الزجَّالي .ومِمَّا أوصَى به أنْ يكتبَ:" بسم الله الرحمن الرحيم (قلْ هونبأ عظيمُ أنتم عنه معرضون) [سورة ص آية 67-68] هذا قبرُ أحمد بن عبد المَلك بن شهيد المُذنِبُ، ماتَ وهو يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ،وحْدَه

---

[117] / ابن شهيد الديوان .تح/.يعقوب زكي .م.س.ص:56
[118] /عبد الله سالم المعطاني. ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي..م.س.ص:53

لا شريكَ له ، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ،وأنَّ الجنَّة حقّ، وأن النَّار حَقّ، وأنَّ البعثَ حَقّ، وأنَّ السَّاعَة آتية لا ريْبَ فيهَا ،وأنَّ اللهَ يبعثُ مَن في القبور .مَاتَ وهوَ في شَهر كذا من عَام كذا ،ويُكتبُ تَحتَ هَذا النثرهَذا النَّظم [119]:-[من مجزوء البسيط]

يا صَاحِبِي قُـمْ فقـد أَطـَلـْنَـا أَنـَحْـنُ طـُول المَدى هُـجُـودُ؟
فـقـالَ لـي : لن نـقـُومَ مـنهَـا مَا دامَ مِـن فـَوْقِـنـا الصَّـعِـيـدُ
تـذكـُـرُ كـَمْ لـَيْـلـَةٍ لـَهـَوْنـا في ظـِلـّهـَا والـّزَمَـانُ عِـيـدُ
وكـَمْ سـُرُورٍ هَمَى علـَيْـنـَا سـحـابـةً ثـــرّةً تـجـُودُ؟
كـُلٌّ كـأَنْ لـم يكـُنْ تـَقـَضَّى وشـُؤمـُـه حاضِـرٌ عـَتـِيـدُ
حصَّـلـَـه كـاتِـبٌ حـَفِـيـظٌ وضَـمَّـهُ صَـادِقٌ شَـهِـيدُ
يا وَيْـلـَـنـَا إن تـَـنـَكـَّبـَتـْنـَا رَحْـمَـةُ مَنْ بَـطـْشُـهُ شـَدِيدُ
يا رَبِّ عَفـْواً فـَأَنـْتَ مـَوْلـيً قـَصـَّـرَ في أَمْـرِكَ الـعـبـيـدُ

وقيل إنَّهُ كان يخشَى سَكرة المَوت وصُعُوبَتها، ومَازال يَذكرُ رَبَّه ويُوحِّدُه، ويَتقرَّبُ إليْه بالأدعِيَة وَالأذكار، حتَّى فاضَت روحُهُ إلى بَارئِها في يَوم الجُمُعَة آخر يوم مِن جُمَادَى الأولى سَنة سِتٍّ وعشرين وأربعمائة للهجرة، وقال صاحبُ الذخيرة إنه لم يشهدْ على قبر أحَد ما شَهدَه النَّاس مِن البكاء والحُزن على قبْر ابن شهيد..رحمَه الله.. "وقالوا: وكان أبو عامر كثيراً ما كان يخشَى صعوبة الموت، وشدة السَّوق فيسَّر الله عليه، وما زال يتكلَّم ويرغَبُ إلى الله أن يرفق به، ويُكثرُ من ذكرَهُ، وقدْ أيقنَ بفراق الدنيا، إلى أن ذهبتْ نَفْسُه رحمه الله يومَ الجمعة آخرَ يوم مِن جُمادى الأولى سنة ستٍّ وعشرين وأربعمَائة ،ولم يشهدْ على قبرِ أحَد مَا شَهد مِن البُكاء والعَويل " [120]..

وقد رثاه كثيرون، ومما يذكره ابن بسام في الذخيرة هذين الأنموذجين:"

---

[119] / ابن شهيد/ ديوان ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق : د. يعقوب زكي ، م.س.ص : 99.98
[120] / ابن بسام .الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق1 م1 ، ص : 334

قال أبو الأصبغ القرشي:[من الطويل].

أريدُ بسقيَا الغيثِ إحياءَ حُفــرةٍ ***كدَرنا بها نَجــمَ العُلا المُتَوقّدا

ولم أرَ مِثلــي بَاتَ مسْتَسْقي الحَيا ***لمَاء حَيَاء كانَ يُشفِي منَ الصَّدَى

فأيّ جَمَال صَارَ في قبْضَة الثَّرَى ***وأيّ بَهَــاء قدْ طوتْــه يدُ الرَّدَى

وأيّ قنَاة فِي طلى الأرْضِ غُيّبتْ ***وأي حُسَام في حشا القَبرأُغمِــدا..

بنفسِي الذِي أودَى وأنشأ للــنّدى***حَمَامًا على دَوحِ العــَلاءِ مُغَرّدا

أبا عَامر ،بُعدًا لسهمِ مُصِيبــَــة***رَمَاكَ بِه رَيْبُ المَنــُون فأقصَدا..

لقد فتَّ في نشر الفضَائــل يَافعًا ***وبرّزت في جَمْع المَكــارِمِ أمْرَدَا

لشقّت عليكَ المكرمَاتُ جُيُوبــُها***وأظهرَ فيكَ المَجْــدُ خدّا مُخَدّدا

ومنه قول أبي حفص ابن برد الأصغر من قصيدة أولها:[من الوافر].

بفيكَ التـّــــرب من نَاعِ نعَاني***نَعــَــــــى غيري إليَّ ومَا عَدَاني

وكيفَ ولمْ يسلُ طرْفِــي بدَمْعٍ ***عليــْــهِ، ولم يُجــــــنَّ له جنَانِي

لأيَّة خَصلةٍ تبْكِيكَ عَينِــــــــي ***ومَالي بالحسَــاب لهَا يــَــــدَانِ

أَلِلْهمَمِ المنــُــوطة بالثُّــــــريّا ***أم الشيـــــم المهذَّبَــــــة الحسَانِ

أم الكــَــــرَم الذِي مَازالَ يَجْرِي*** مَعَ الأنــْــوَاء فِي طلقِ الرّهانِ

أم القَلــــم الذِي قَد كانَ يَجْنِــــي***مِنَ القِرطــَــاس نوّار البَيــــــّانِ

أم الرَّأي الذِي مَازالَ يُغــــــنِي***عَنِ السَّيــــــفِ المُهنّد والسنانِ

شَهدْتُ لقدْ أصِيــــــبَ بَنُو شَهيد ***بقاطعَــــة السَّــــــواعِدِ والبنــَانِ

بهَا دَرَجُــــوا مِنَ الدُّنْيــــَا فبَانُوا***وكلَّ مَا خَــــــــلا الرَّحمَن فَاني([121])

وبموت ابن شهيد انقطعت سلالة أبيه، فلم يثبت أن شاعرنا تزوّج .:"ولم يترك ابن شهيد ذريَّة ، وبموته انتهت سلالة أبيهِ، ويبدو أنه كانَ مفرَدا ولم يَتزوَّج.."([122])

[121] /ابن بسام.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.تح.إحسان عباس.م.س.ص:336.335

هكذا انتهت حياة أديب تقلب بين نعيم زائل ومُلك آفل..أحبَّ اللهوَ، وغرق في الملذاتِ ،وعاد إلى ربّه يبكي ويذرفُ دموع التوبة والندم على ما فات..كان له محبُّون، كما كان له حسَّاد مبغضون..كتب النثر كما نظَّم الشعر..اعتلى الوزارة كما دخل السجنَ واعتقل..أحس لكل حال، وشعر بكل مآل..وتنوَّعت عواطفه بين فرح وحزن، وموالاة وابتعاد..وحبٍّ وبُغض، وصحَّ أن يكون ما تركه من شعر ونثر سجلا يحكي أفراح ومآسي أهل قرطبة التي أحبّ والبلد الذي التزمه وبه استقرّ. وممّا تركه ابن شهيد شعرا ونثرا:

- ديوان شعر حقّقه الدكتور يعقوب زكي يحوي قصائدَه مجموعة من مصادرها

- حانوت عطار: وهو مفقود إلا القليل مما حوته بعض المصادر :"وضع ابن شهيد كتابه حانوت عَطار الذي لم يدّخِر وُسْعا فيه لإجلاء حقيقة الأدب الأندَلسِي، إمَّا بالترجَمَة للأدبَاء بإظهَارفَضْلهم وإمَّا بالمُوَازَنَة مَعَ نُظرَائِهم مِنَ المُشَارقَة،فَفِي ترجمَتِه للقَاضِي المنذر بن سعيد أورد قصته السَّابقة مع القالي.."([123])

- كشف الدّك وإيضاح الشك. وهو كتاب في علم الحِيَل ..

- التوابع والزوابع. موجودة في أهم مصادر الأدب الأندلسي كالذخيرة . حققها وصوّبها وصحّحها وعلّق عليهَا البستاني.

- التهذيبُ بمحكمِ الترتيب .تحقيق الأستاذ الدكتور حاتم صَالح الضَّامن دار البشائر الإسلامية2002

---

[122] /ابن شهيد.ديوان ابن شهيد.تح.يعقوب زكي.م.س.ص:68

[123] /مصطفى عليان عبد الرحيم.تيارات النقد الأدبي في الاندلس.في القرن الخامس الهجري.م.س.ص:86

مكانة أدب ابن شهيد في الأندلس:

لم يكن ابن شهيد الأديب الأوحد، ولا في عصره الناقد المتفرّد ، بل كان آخرون لهم الأثر والمكانة المميزة، وكان يتقدّمهم دون شكّ، فقد أبان منذ البداية عن منهج نقدي قويم في الكتابة:" وقد ظهر في القرن الخامس الهجري عدد من النقاد الأندلسيين الذين وضّحوا آراءهم في أصول الكتابة وطرائقها وكان في مقدّمتهم ابن شهيد الذي أفصح عن منهج نقدي قويم في تبيين أصول الكتابة الفنية وتطورها من عصورها إلى عصره حيث قال:"لكل عصر بيان ولكل دهر كلام، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة وضرب من البلاغة .."([124]) ويربط الثعالبي ابن شهيد الشاعر بابن شهيد الناثر،ولا يميّز بينهما، بل يعطي لكل منهما صفته يقول:"قنثره في غاية الملاحة، وشعره في غاية الفصاحة.."([125])

لقد تجاوزت مكانة أدب ابن شهيد المكان من حيث هو المدينة قرطبة إلى ما سواها من حواضر الأندلس بل بلاد المشرق، وتجاوز الزمان من حيث هو عصر ابن شهيد الممتدّ من نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري، وهذا من طبيعة التفاعل بين كتابات الأدباء، وحين التقاطع المختلف في المكان أو الزمان، فيحدث التأثروالتأثير حين يأتون بالجديد.:"وقد ضارع أبوعامرهذا محاسن الطبقة العالية البغدادية المضارعة التي بانت فيها قوّته، ولدُنَتْ اختراعاته ومقدِرتُه، فصار يتناول المعنى فيصيّرهُ محسَّنا بحسن مساقه.."([126])

يشهد معاصروه ومن جاء بعدهم بقوة نثره، وتقلبه بين الجدّ والهزل تقلبه بين النثروالشعر:"إن هزل فسجع الحمام وإن جدّ فزئيرأسد ضرغام.."([127]).بل منَ النقاد والدارسينَ منْ يذهبُ إلى تفوّقه في النثر:"على أنَّ ما تميّزَ بهِ هوجانبُ الأدب فقَد كانَ

---

[124] /فايز عبد النبي فلاح القيسي.أدب الرسائل في الأندلس في ق.5 الهجري.دار البشير.عمان الاردن.ط1..1409هـ /1989م.ص:309

[125] /الثعالبي.يتيمة الدّهر. تح/محمد مفيد قميحة..دار الكتاب العلمية بيروت.ط.1.1983.ص:57

[126] /ابن بسام.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة./تح.إحسان عباس.ج1.ق1 .م.س.ص:219

[127] /ابن بسام.الذخيرة..م.س.ص:192

شاعرا كبيرا، كما كان كاتبا كبيرا أيضا، ويدلّ أن ما روي عنه من آثار أن نثره كان أكبر من شعره، وقد شهد له النقاد بمقدرته فيه وتفوّقه.."([128]) . لم يكتب الشعر ليتفوّق على معاصريه فقط ـ كما يرى ـ ولا النثر ليبيّن علوّ كعبه، ويدفع عن نفسه ما اتّهم به، بل تعدّاهما إلى النقد ليبيّن صناعته فيه وقدرته على تمحيص الغثّ من السمين، وتمييز الصالح من الطالح من إبداعات معاصريه أو سابقيه :" ليس في الأندلسيين الذين درسنا شعرهم حتى عصرابن شهيد من كان أكثر منه توقّدا في القريحة، وانفذ بصرا في نقد الشعر.."([129])

إن تأثيره تجاوز المجتمعَ الأندلسيَّ بأدبائه ومفكريه إلى المجتمَع المشرقِي وحجَّة هذا الرأي هو تأثيره في شاعر الفلاسفة أو فيلسوف الشعراء شيخ المعرة أبي العلاء، حين أجرى قلمه في رسالة الغفران بما جرى عليه قلم ابن شهيد في رائعته:"التوابع والزوابع"..

فقد اختلف الدارسون المعاصرون كالسابقين في قضيَّة سبق المعري لتوابع ابن شهيد من عدمه ،لكن زكي مبارك يقطع الشك والجدل باليقين حين يستند إلى قرينة تاريخية ويحدّد تاريخ الرسالتين وأيهما أسبق في الوجود من الأخرى ،ممَّا يحيل بتأثر اللاحق بالسابق:"إنه كتبَ هذه الرسالة في عهد المستعين.والمستعينُ هذا هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمان الناصرالأموي ،الذي بويع بقرطبة منتصفَ ربيع الأول سنة 400هـ.وقد بحثنا طويلا في كتب التراَجم عن التاريخ الذي كتبَ فيه المعري رسالة الغفران فلم نهتدِ، ولكنَّنا وصلنا بعد التأمّل إلى تقريب التاريخ، ذلك أن رسَالة الغفران جَواب على رسالة ابن القارح، وقد عدنا إلى رسَالة ابن القارح، فدرسْناها فقرةً فقرةً حتى انتهينا إلى قوله:"وكيف أشكو من فاتني وعالني نِيِّفا وسبعين سنة ".

---

[128] / شوقي ضيف.الفن ومذاهبه في النثر العربي.دار المعارف ط5.مكتبة الدراسات الأدبية.ص:321

[129] /إحسان عباس.تاريخ الأدب الأندلسي.عصر سيادة قرطبة.م.س.ص:63

فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة351هـ.فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ـ 70 ـ وجدناه كتبَ رسالته حوالي سنة 421هـ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت سنة 422هـ ،وإذا قدّرنا أنَّ ابنَ القارح قال نيّفا وسبعين، وللنيّف دلالته، وقدّرنا أنَّ أبا العلاء اعتذر عن تأخير الإجابة لأنه مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكونَ رسالة الغفران كتبتْ بين سنتي 422هـ.و423هـ. ونتيجةُ هذا التحقيق أنَّ رسالة الغفران كُتِبت بعد التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة.."([130])وفي ردّه على الدكتور شوقي ضيف يضيف:"يتبينُ أن الدكتورَ ضيف لم يكن مصيبًا حين افترضَ أَنَّ ابنَ شهيد قلّد أبا العلاء، وصَار منَ المرجّح أن يكونَ أبو العلاء هو الذي قلّد ابن شهيد"(131) .

إنَّ المشارقة كانوا مطلعين على المنتوج الأندلسي في حينه، نتيجة الحركة والتنقل المستمرإلى المشرق من الأدباء والعلماء والفقهاء، واتصالهم بأهل الأدب وكتابه المشارقة، وكانت المخطوطات الأندلسية تصل المشرق في حينها:"كان أهل الشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية في الأندلس بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت في الشرق ودوّنها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران.." ([132])

وهو ما يذهب إليه الدكتور محمد بن علي في تأكيد أسبقية ابن شهيد الزمنية في تأليف التوابع :"والذي نستطيع أن نطمئنّ إليه غاية الاطمئنان، هو أن أباعامر بن شهيد قد أنشأ "التوابع والزوابع" في شبابه وذلك ما أجمع عليه الدارسون الذين أتينا على ذكرهم .وأما سبقه أبا العلاء إلى هذا التأليف فمع أن ذلك من قبيل الحقائق التاريخية والإنصاف

---

[130] /زكي مبارك.النثر الفني في القرن الرابع الهجري.المكتبة العصرية بيروت.2006.(د.ط) ج.1.ص:318

[131] / كتب الدكتور زكي مبارك على الهامش في النثر الفني الصفحة 320 الجزء الأول ما نصّه:" بعد تحرير هذه المسألة[ويقصد بها تأكيد أسبقية رسالة ابن شهيد زمنيا] وصلنا إلى نص في رسالة الغفران يدلّ على أنها كتبت سنة 424 هـ إذ يقول المعري:"ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله في سنة أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان ابن فلان.."

[132] / زكي مبارك . ام.س، 1975/ 320/2

الذي يعطي لكل ذي حق من المبدعَين حقه.."[133]. ومما لا شكّ فيه ولا مراء أن ابن شهيد أتى بما لم يأت به السابقون ،وذهب غير مذهب المتقدّمين في جعل التوابع مقتصرين على من يقول الشعر ويشتغل به ،بل جعلهم أيضا للكتاب وهذا ما لم يألفه الموروث الثقافي العربي:".وهذه لأول مرة أرى فيها أن العرب يعتقدون وجود شياطين للكتاب والخطباء، وقد حدثنا ابن شهيد أنه صادف في أرض الجن شيطان الجاحظ، وشيطان بديع الزمان، وشيطان عبد الحميد .فهل كان العرب يرون ذلك أم اختراع ابن شهيد..؟.."[134] .

والجديد الذي نجدُه في رسالة ابن شهيد هوَ عرضه لطريقة الدِّفاع عن إنتَاجه وبحثه عن الإجازات من الأعلى مرتبة والأقوى حكمًا من الذين يَراهُم أمَامَه لا يستحقُّون الاحتِكام إليهم:" فبقدرما يرمي إليه ابن شهيد من سخريَّة، إلا أنَّ هذه السُّخريَّة تَمِيل فِي مُجْمَلهَا إلى الحِدّة والخشونَة وتَعْكسُ إحسَاسًا حَارًّا بالغَضَب والنِّقمَة ،لاعَلَى خُصُومِه فَحَسب بل عَلى طائفة بأكمَلها مِنَ المؤدّبين والمشتغلين باللغة والنحو.."[135].

وعن هذه المكانة التي بلغها وتركها في غيره أنه كان ذا أراء نقدية يعترف بها غيره، ويشهد لها الدارسون بالقيمة العلمية لأنها صادرة عن تجريب لا تنظيرفقط:" أراء ابن شهيد النقدية ـ معظمها إن لم نقل جلُّها ـ صادرةٌ عن وعيٍ ورأيٍ تجريبِيٍّ لارأيٍ تنظيريٍّ.."[136]وهذا ما اتبعَه اللاحقونَ من اعتبَار العَمَل الإبدَاعِي لابدَّ أنْ يخضعَ للتَّجربَة حينَ الدِّرَاسَة ولا يجبُ الاكتفاءُ بالتنظير وإطلاق الأحكَام الجَاهزَة والنظريَّات السَّابقة..

وقد ذهبَ الدكتورُ مُصْطفى عَبد الرَّحِيم عليَان ، في درَاسَتِه حَول التيارات النقديَّة في الأندلس حينَ يقارن بينَ المَعري وابن شهيد في نقدهما لدَور المعَلمِين في النَّقد، إلى القول:"كان دورُ مُعلمِ اللغةِ في النقد من أبرَز القضَايا التي وَقَفَ عندَها الناقدَان، فقد

---

133 /علي بن محمد .النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري.دار الغرب الإسلامي.بيروت.ط.1.ج.2.ص:561

134 / زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع الهجري م.س.ص1/:322

135 /فوزي عيسى .الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي .دار المعرفة القاهرة.2002.[د.ط] ص:23

136 /أحمد رضوان الداية.تاريخ النقد العربي في الأندلس بيروت 1968.[د.ط] ص: 296

حمَل ابن شهيد على المعلمِينَ لأنَّهم وقفت بهم صنعتهم التي تقومُ على الحفظ في اللغَة، دونَ الإبداع، في رتبةٍ وُسْطَى دونَ الإحسَان ودونَ الإسَاءَة، ومَا ذاكَ لا لأنَّهم يفتقدُونَ المَوْهبَةَ الفطريَّة في أدبِهم ونقدهم.."([137])وأضَاف مُؤكّدا: "واتَّخذَ ابن شهيد مِن شاعِريتِه وَسيلةً لإثباتِ مَوْهبتِهِ فِي التفوّقِ عَلى المُعلمين.."([138]) بل إنَّ ابن شهيد لم يكنْ ليؤثّرفي المَعَري في اتخَاذ مقاييسَ علميَّة فقط بل تجَاوزه في هذا الأمر:"ويُعَدّ مقياس ابن شهيد أقربَ إلى الشِّعر من مقيَاس أبي العَلاء لأنَّ الفصَاحة والبَرَاعَة والعُذوبَة وإحْكام النَّسج، جِمَاع الكَلاَم الجَمِيل ومقاييسُ الجَوْدَة.."([139]).وقد سَبقَ تشاؤمُ ابن شهيد في شعره ومذهبه الفكري أبا العلاء، وخاصَّة عندما أحسّ بدنوِّ أجلهِ وقبلهَا عندمَا أحسَّ ببُعد الوزارَة عنْه لعَاهَة الصَّمَم التِي لزمته:" والثنائيَّة تقودُ دائمًا إلى اليأس والتشاؤم، ولعلَّ في يَأس ابن شهيد إرهاصًا لمَا يأتِي بَعدَه فِي عقيدة أبي العلاء .."([140])..

وممَّا أثر به ابن شهيد في اللاحقين من الشعراء الشباب أنه أباح لهم أخذ المعنى من السابقين. ولا يكون هذا في كل الحالات بل عند الضرورة الدافعة :"قال إنه يتناول .قلت للضرورة الدافعة وإلا فالقريحةُ غير صَادعَة والشفرةُ غيرُ قاطعة.."([141])..ويؤكّد ذلك الدكتور مصطفى عليان في قوله:" وأكثرُ من ذلك، فإنّ ابن شهيد يرى أن لا ضَيرَ على الشّاعر من تنَاول مَعَاني السَّابقينَ عندَ الضَّرورَة الدافعَة، قال إنّهُ يتنَاول، فقلتُ للضَّرورَة الدّافعَة، وإلا فالضَّرورَة غيرُ صَادعَة والشّفرةُ غيرُ قاطعَة، خاصَّة إذا تحققت الزّيَادة على من سَبَق فِي المَعْنَى أو بتَغيّرفِي الشّكل.."([142])وتجاوزأمرُهُ في النَّقد فضَاء الأنْدَلس زمَكانيًّا ليحلَّ بعصُورلاحقَة ويقدّمَ ما يوافق المذاهبَ الحديثة :"فأبو عامر من خيرة النقاد في العصرالقديم، وله نظرات جريئة يُحمدُ عليها، وإلّمْ تسلم

---

[137] /مصطفى عليان ع.ر.تيارات النقد في الأندلس .مؤسَّسة الرسالة.بيروت.ط1..1984ص:579

[138] / . م.س .ص 580

[139] / .م.س. ص:583

[140] /ابن شهيد .ديوان ابن شهيد.تح.يعقوب زكي.م.س.ص:70

[141] /ابن شهيد .التوابع والزوابع.تحقيق وتصحيح وشرح البستاني.م.س.ص:112

[142] / مصطفى عليان ع.ر.تيارات النقد في الأندلس .م.س. ص:584

من الغمز والتجريح، وفيها ما يوافق المذاهب الحديثة في زماننا كبحثه في تأثير الألفاظ، والجمال الذي لا يوصف..."([143])

وعندما حدثت النكبة بمدينتِه قرطبَة بكاها بَل رَثاها كمَا يُرثِي الشَّاعرعزيزا فقدَه بفاجعَة المَوت، وهو مَاأبقَى في الأندلس ظاهرَة رثاء المُدن بعد ذلك، وهذا ما يراه الدكتورمحي الدين ديب في كتابه المحقَّق:(ديوان ابن شهيد ورسائلُه)حين يقول:"يُعتبر شعرُه فيها فاتحةَ رثاء المُدن في الأندلس"([144])

وممَّا قاله في رثاء قرطبة :[من البسيط].

مَـافي الطلول مــن الأحِبَّةِ مُخْبِرُ*** فَـمَن الذِي عَنْ حَالِها نَسْتَخْبِرُ؟!

جـَارَالـزَّمَــانُ عَليهم فتفرَّقُـــوا***فِـي كـلِّ نـَاحيةٍ وبـَــاد الأكثـَرُ

جرتِ الخُطوبُ في مَحَلِّ دِيَارِهِم***وعَـليهم فَـتَغيرتْ وتَـغَيَّـــرُوا

فـلمثل قـرطبة يـقل بُكــاءُ مُــن *** يـبَكِي بـِعَيْنٍ دَمْـعُهَا مُـتفَجِّـرُ

دَارٌ أقَــالَ اللهُ عـثرةَ أهْـلِهـَـــا***فتبربَرُوا وتغَرَّبُوا وتَمَصَّـرُوا

في كلِّ نـاحِيَــةٍ فَريــقٌ مِنْهُـــم*** مُـتـَفَطِّرٌ لفرَاقِــهَا مُـتَحَيِّـــرُ

أسَفِي عَلى دَارٍ عَهدْتُ ربوعَــها***وظبـَـاؤها بفنائِهـَــا تَـتَبَخْتـَرُ

أيـَّامَ كـانتْ عَـينُ كـــلِّ كَرَامـَـــةٍ*** مِـنْ كُـلِّ نـَاحِيَةٍ إلِيْهَا تَنْظرُ..([145])

ومِمَّا أتَى بهِ ابنُ شهيد وسبقَ غيرَه إليه :ضرورة اعتبار النظرة الجَمَالية عندَ النقاد:"عند ابن شهيد بعض النظرات النقدية الجديدة على النقد العربي، والتي لم يقل بها أي ناقد سواه حتى هذه اللحظة وخاصَّة من نقاد الأدب العَربي مِن ذلك قَوله :" فمن كانت نفسُه المستوليَّة على جسمِه فقد تَأتِي منْه في حُسْن النظام، صورٌرائقةٌ من الكَلام تمْلأ القلوبَ وتشغفُ النفوسَ فإذا فتَّشْتَ لحسنِها أصْلاً لمْ تجدْه ،ولجمَال تركيبهَا أسُسًا

---

[143] / ابن شهيد.التوابع والزوابع.لابن شهيد تح.وشرح ودراسة.بطرس البستاني. م.س. ص:62

[144] / ابن شهيد ..ديوان ابن شهيد ورسائله. تح.محي الدين ديب .م.س. ص:07

[145] .م.س .ص:109

لمْ تَعرفْه. وهَذا هُوالغَريبُ، أنْ يتركّبَ الحُسْنُ مِنَ غيرالحسن.."[146].ويوضح هذه الفكرة فيضيف:" كمايقول الدكتورإحسان عباس:" وهذه نظرة طريفة في الجمال"تركب الحسن من غير الحسن" تُعَدُّ من ابتكار أبي عامر، ولعلَّه يَعني بهَا أن كلَّ جُزءٍ على حِدَه ليس فيه جَمال،فإذا تركَّبَتِ الأجزاءُ شعّت بجمال ناجم عن التركيب المنسجم.." [147] .

إنَّ الذينَ سبقهم ،لم يكتفِ بدراسة آثارهم وما خلفوه من شعربل تفوّق عليهم، وزادت مكانته علوا بذوقه الرَّفيع ،وحسّه المرهفِ وإحساسِه بالجمَال الفنِّي:" أمّا في إصابة الحكم على من درسَهم من الشعَراء فإنّه ربّمَا تفوّقَ على ابن رشيق وابن شرف، وربَّما لم يبلغ أيَّ ناقد أندلسيٍّ آخرَ مبلغَه في إرهَاف الذّوق والإحساس بالجَمَال الفَني،وقَد اتّخذَ مِن شاعريته وسيلة للتَّعبيرعن آرائه النقديَّة بطريق التصوير.."[148] ويؤكّد هذه المكانة العالية والدرجة الرفيعة ما يذهب إليه الدكتور زكي مبارك حين يقول:"لاحظنا أن وسائله في صناعَة النقد والبيَان تدلّ على أنَّه كانَ من أصفَى النَّاس ديباجة ،وأسدُّهم رأيًا وأصدقهم فراسَة إذا مَضَى يشرحُ مَزَالقَ الأفكَار وزلاتِ العُقُول"[149].

والذي نخلصُ إليه أنَّ ابن شهيد يشهدُ لهُ بالتفوَّق في النقد :" وكان ابنُ شهيد معَ هذا من كبَار رجَال الأدَب وأهل النقد، وله آرَاء تَدلّ على فكرِهِ الثاقب وعلمه الواسع في طرق النقد الأدبي ، وكأنها آراءٌ مبنيَّة على نظر عَميق أو درَاسَة فنيَّة أو علميَّة، وفي رأينا أن آرَاءه فِي النقد أكبرُ ميزةٍ من شِعرهِ أو نَثرهِ لأنَّها تدلّ على سَعَة اطلاعِه وابتكارِه الخَالص مِن كلِّ تقليدٍ ،فقدْ انفردَ بينَ نقاد الأدَب في ذلك.."[150] ولعلها الشهادة التي تجعله يحتلّ المرتبةَ التي كانَ يريدُها حيًّا ليبذَّ بها أندادَه، بله خصومه وإن شئت فقل : الافليلي .

---

146 /عبد الله سالم المعطاني.ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي.م.س.ص:138

147 / .م.س ص:140

148 / .م.س .ص:55

149 /زكي مبارك النثر الفني في القرن الرابع الهجري.م.س.ص:387/386

150 /أحمد ضيف.بلاغة العرب في الأندلس.دار المعارف.سوسة/تونس.ط.1998.3.ص:68

الباب الثاني: رسائل ابن شهيد النثرية

الفصل الاول:

رسائل ابن شهيد ومصادر ثقافته.....61

الفصل الثاني:

التعريف بالرسالة:.....70

منزلة الرسالة أدبيا :.....82

تاريخ كتابة الرسالة:.....86

الفصل الثالث:

المكان في رسائل ابن شهيد النثرية:.....89

الفصل الرابع:

إحصاء مفردة الزمن :.....99

رسائل ابن شهيد ومصادرثقافته:

1/ رسائل ابن شهيد النثرية:

لقد ترك لنا ابن شهيد رسائل نثرية تناثر حبرها بين مصادرالأندلسيين، وجمعهاغيرواحد في عصورلاحقة، وأعطوها العناية من التحليل والدّراسة والتحقيق في هذا العصر الذي أدركنا..ولعلَّ الإشارة إلى الذّخيرة كمصدر هام جمع هذه النصوص النثرية لابن شهيد هو اعتراف لابن بسام بهذا الفضل في حفظ التراث الأندلسي عامَّة ورسائل ابن شهيد خاصة من الضَّيَاع ..ومن المصادرالأخرى أيضا نفح الطيب للمقري والجذوة للحميدي وغيرها.

لقد كان للمصادرالأندلسية الفضل الكبير في هذا التدوين والحفظ، ولايهمّنا حجمها ولا عددها بقدرما يهمنا منها أمران:

الأول :قيمتها التاريخية

الثاني: قيمتها الفنية..

ولعل الموسوعات التي خلفها أعلام الأندلس هي التي حافظت لنا على هذا الموروث الضخم، وهي المصادر التي نأخذ منها مادتنا العلمية حين الحديث عن الأدب الأندلسي، وهي الموسوعات التي حافظت على ذكر كل من اتصل بالأندلس من أدباء المشرق وعلمائه، أومن تحرك نحو المشرق وهي ظاهرة [التبادل الثقافي] كما يسميها ابن حزم:" وفي الموسوعات العلمية لهذه القرون تأكيد واضح لبروز هذه الظاهرة [التبادل الثقافي] ودورها الإيجابي في إيجاد وحدة فكرية في العالم الإسلامي كله..فإن ابن بسام يفرد في القسم الرابع من مجلد الذخيرة الأول لمن هاجر إلى الجزيرة (الأندلس) من الأفاق، وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق، ويشتمل هذا القسم على تراجم للرحالة الشعراء في القرن الخامس الهجري ، وحتى وفاة ابن بسام (542هـ) .والمقري يفرد نحوا من مائتين وخمسين ترجمة لمن رحلوا من الأندلس إلى المشرق، وقريبا من خمس وسبعين ترجمة لمن رحلوا من المشرق إلى الأندلس.

وتراجم ابن بشكوال صاحب الصلة المتوفَّى سنة(578هـ) أكثريتها لمن رحلوا إلى المشرق، كما أن هناك مشارقة كثيرين رحلوا إلى الأندلس كان يُلحقهم ابن بشكوال بأعلامه تحت اسم :"الغرباء" وما يقال عن هؤلاء يقال عن التراجم التي أوردها أساتذتهم من أمثال الحميدي في جذوة المقتبس والضبّي في الملتمس...."[151] ومن هذه الموسوعات التي اهتمت بتسجيل الأعلام وما تركوه نسجِّل أيضا:

المغرب في حلي المغرب لعلي بن سعيد المغربي

قلائد العقيان للفتح بن خاقان

مطمح الأنفس للفتح بن خاقان

زاد المسافر لصفوان التجيني، وغيرها غير قليل.

لقد احتوت الذخيرة مجموعة من رسائل ابن شهيد ونثره النقدي، كما احتوت أشعاره كذلك..وأهمها رسالته الرائعة :التوابع والزوابع :"..وهناك رسائل كثيرة لابن شهيد يصف فيها البرد والناروالحلوى والبعوض والثعلب وغير ذلك، وله رسائل أخرى إلى الخلفاء والوزراء .ذُكرت كل هذه الرسائل في الذخيرة واليتيمة وغيرهما من الكتب ..." [152]

وقد احتفظت بعض المصادر بآثار ابن شهيد قَلّتْ أو كثرتْ بحسب ما توصّل إليه الباحث والمحقق..ففي اليتيمة نجد رسائله بعضَها، بل من الرسائل ما يذكر أسطرا منها ولا يثبتها كلها[153]ومثال ممَّا أقُومُ باختصاره مَا يذكرهُ عن وصف المَاء مثلا:" كأنه عَصير صَيَّاح، أو ذوبَ قمْح ليّاح، انصبَّ له من إنائه انصبَابَ الكوْكَب الدُّرّي من سمائه، العينُ كانونه، والقمرُ عفريتُه، كأنه من غزل قلق، أومخصرةٌ ضُربت من ورق، يترفّع عنك فتردَى، ويصدعُ به قلبك فتحيَا.."[154]

---

[151] / عبد الحليم عويس.ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري..م.س.. ص:36

[152] /عبد الله سالم المعطاني.جهود ابن شهيد الأندلسي في النقد الأدبي.م.س.ص"38

[153]/ انظر اليتيمة ج.2.صص51 فما بعدها يذكر رسائله في البرد والنار والبعوض والحلوى و البرغوث وغيرها..وكذا الذخيرة في مايلي الصفحة 193.

[154] /المقري.اليتيمة.ج2.م .س.ص:54

وفي فصلٍ له أيضًا قصيرٍ:

"واصلَ الجِهادَ، واستأصلَ الكفرَ والعنادَ، واتَّخذَ ظهرَ الجَوادِ بيْتًا، وظلّ اللواء كنّا، واستبدَل من نَقر الكرانِ قرعَ الطبول، ومن نَغَم القيَان، شجَا الصَّهيل، ومِن وَجْبَة المعَازف، لجبَ الجيوش، يمشي في الهجيرويسري في الزمهرير، ويحنّ إلى الأذان والتكبيرِ، في خطّة إبليس، ومصدح الناقوس.."

وفي آخر:

"كنت أسمع من هذه المآثر والمكارم مثل نفح الصّبا، ويقرع أذني منهاجرسٌ ألذُّ من نغمة الصّبا، فلا أكذّبُ لصدق الشاهد، وأمانة الناقل، وكثرة القائل، والحكيم أبو فلان خادم الشّيب، ومصلحُ العيب، وله جوارشات مؤلّفة، حارّة مفلفلة، تكادُ الخصيَّ فحلا، والثور المسنَّ عِجلا.."(155)

وقد جمع من هذه المصادروحقّقها كلَّ نثره وشعره الدكتورمحي الدّين ديب في كتابه الموسوم بـ : ديوان ابن شهيد ورسائله..

ويصنّف هذه الرسائل بين تلك التي خاطب فيها الأمراء والخلفاء، وأخرى وصفية جمعها ابن بسام في الذّخيرة وقال عنها:"فصول قصاراقتضبتها في طويل كلام"(156)

ومن هذه الرسائل:

رسالته إلى المؤتمن وهي طويلة يذكر فيها علاقة الأسرتين في الماضي، وماكان بينهما من لحمة وتواصل، ويعرج إلى الحالي وما آلت إليه من فُرقة وتفاصل. ويذكربعض الذي كان من مودّة وائتلاف، ويصلُ إلى مَا عناهُ من إزَالة البُعد والخِلاف.(157)

---

155 /**الكنُّ**:وِعاء كل شيئ وستره/ **الكران**:العود../**جوارشات**:نوع من الدّواء...

156 /الذّخيرة لابن بسام... م.1.ق.1.ص:225

157 /ينظر الملحق في هذه الدراسة..

وله ردٌّ مطوّلٌ عنْها أيضًا، ضمَّنَه شعرًاغيرَ قليل، يذكر فيهَا اعتذارَه عن مُغَادَرة قرطبَة واللحَاق به ببلنسيَّة، وفيها يعقدُ مقارنةً بين الكتَّاب، ويُنهيهَا بمدح المُؤتمَن.([158])

وله رسَالة أخرى خاطبَ فيها مجَاهد أميرَ دانيَة، وكانَ يَبحثُ عن المنْفعَة الخاصَّة وما قدْ يصلهُ من مَال منْه، وينبّهه إلى عَدَم الاكتراثِ بقول الحَاسدِينَ فيه.

وله رسالة قصيرة وجْهَها إلى الوَزير ابن عبَّاس يذكّره فيهَا ما كانَ مِن قبل في وَعْده باقتطاع لهُ ضَيعَة..

وله رسائل وصفيَّة

وهي مجمُوعَة رسَائل يَصفُها الدّارسُون على أنَّها :"تعكسُ الجَانبَ الآخرَ مِنْ حَيَاة أبي عَامر، ألاوَهيَ الحَيَاة اللاهيَة العَابثَة.."([159]) .

وأهمُّ رسَالة فِي نثرهِ كلِّهِ: التوابعُ والزوابعُ" فهيَ درّة الرسَائل، وجَوهَرةُ المَسَائل، أظهرَ فيها براعتَه في البيَان، وتفوُّقَهُ على منْ أنشأَ وأبَان، وعنَى بهَا أهلَ عَصرِه، وفقهَاء مِصرِه. وتناولهَا أهلُ زمَانِه ومَن جَاؤوا بَعدَه ،بالتَّحليلِ والدِّراسَة .ومازالت إلى يومِنا تنزلُ هذا المَحَل، وتنالُ هَذا التكريمَ الأجَل.

لم تكن له كتبٌ يأخذُ منهَا أويتعلّمُ صِناعَةً من صَفَحَاتِهَا، قال عنه ابن حيَّان:"كان أبو عَامر يبلغُ المَعْنى ولا يطيلُ سِفرَ الكلام، وإذا تأملته وَلَسَنَهُ، وكيفَ يجرُّ فِي البَلاغَة رسَنَه، قلتَ:عبد الحميد في أوانِه، والجاحظ في زمَانِه، والعجَبَ منْه أنَّه كانَ يدعُو قَريحَتَهُ إلى مَا شَاءَ منْ نَثْرِهِ ونَظمِهِ، في بديهَتِه ورويّتِهِ، فيقودُ الكلامَ كمَا يريدُ من غير اقتنَاء للكتب، ولا اعتنَاء بالطلبِ، ولا رسوخ فِي الأدَبِ، فإنّه لمْ يُوجِدْ لَهُ، رحمه الله، فيمَا بلغني بعدَ مَوته، كتابٌ يسْتَعينُ بهِ على صنَاعَتِهِ، ويشحذُ منْ طبْعِهِ إلاَّ مَا لا قدّر له.."([160]).

---

[158] /كان هذا قبل أن يقرّر الرحيل مع بعض الكتاب والمفكرين إلى بلنسية يطلبون منه العودة إلى قرطبة.وكان لهم ذلك فعلا،كما مرّ بنا في حياة ابن شهيد وسيرته.

[159] / ابن شهيد. ديوان ابن شهيد ورسائله..تحقيق . محي الدين ديب...م.س.ص:152

[160] / ابن شهيد.التوابع والزوابع.تح/البستاني.م.س.ص:47.

مصادر ثقافة ابن شهيد:

إذا كان هذا رأي البستاني في ثقافة ابن شهيد، وابن شهيد يقول إنَّه كان يجلس إلى الأساتيذ حتى نبضَ له عرقُ فَهمٍ، ولكنَّه يَنفِي أنْ يكونَ أخذَ العلمَ مِنَ الكتب، والبلاغة من الأسَانيد والمعلمينَ، ويراهَا عطاء ربّ العالمين، حينَ يجَادل الإفليلي، فإنّنِي أذكُرُ مَصَادرَ ثقافتِهِ التِي ارتَوى منْهَا، وأخذَ منْ مَنَاهِلهَا ما جَعَلهُ يبلغُ هَذِه الدّرجَة مِنَ الفَهم، والمَكانَة مِنَ العِلم..

أ/ البَيئَة القرطبيَّة

عاش ابنُ شهيد الأندلسِي في قرطبَة، بها وُلِدَ وبها ترعرعَ، ثم شبَّ وانتقلَ بينَ قصور خلفَائِهَا، ومجالسِ أمرَائِها.

تعتبر قرطبة لابن شهيد كالمدينة المنورة للإمام مالك...لم يرتحل عنها إلا في جمع من وجهائها وعلمائها وسادتها يطلبون المؤتمن ليعود إليها بعدَ أن اشتدّت فتنتها، وكيف لا تكون لقرطبة البصمة الكبرى في أعمال ابن شهيد والمورد الأوسع والأشمل في أثارالشاعر والناثروالناقد؟..

وعلى الرُّغم من الفتنَة الحارقَة التي حلَّت بمدينته قرطبَة، طيلة ربع قرن من الزَّمَن بدايَة من وفاة الناصربن أبي عَامر(399هـ)حتى وفاة ابن شهيد(426هـ):" لم يبلغ إلينا من أخبَار أبي عَامر بن شهيد سِوى نُبَذٌ متفرّقة لا يتألفُ منها بحثٌ متسَاوق في حياته، فرأينا أن نسدَّ ثلماتِها بمَا نستطيعُ استخلاصَه من شعرهِ ونثرهِ مستضيئين بمعالمَ التقلباتِ السِّياسيَّة التي مرّت به بعدَ وفاة النَّاصر بن أبي عَامر سنة 399هـ، فإنّ رسَائلَه إلى عبد العزيزالمؤتمن ابن النَّاصر تدلّنا عَلى أنّه لبثَ في قرطبَة لا يبرحُها مع ما نالَ أولياءَ نعمته من غِيَرِالدّهر، فانزعجوا من دارِ مُلكهم، وتفرّقوا في البلاد الأندلسية..."([161])

[161] /ابن شهيد.التوابع والزوابع .تح/بطرس البستاني دار صادر.م.س:ص:174/13

هذه هي المدينة التي أعطته كلّ شيئ احتاجَه، وأخذ منها كلَّ أطايب الحيَاة وملذاتها، وفيهَا أيضًا سُجِن ونال منها الأذى، واعتملَ كلُّ ذلك ليعطينا ابن شهيد أعمَالَه التي تناولتْها مصادرُ الكتَّاب ومَجَالس الأمرَاء، ونوَادي الأصحَاب.

لقد تركتْ شوارعُ قرطبَة العامرَة والعَامِرية ،وقرطبَة الأدبَ والمجالس العلميَّة، وقرطبة الإبداع والطبيعَة المتلوّنَة بالإبداع الربَّاني والاهتمامَ البشري، في ابن شهيد الأثرَ البيّنَ والتأثيرَ المُبينَ ،إنْ في النَّثر أو الشعر.

ب/الخلفاء وأمراء الدولة العامرية

لقد عاش في قصورهم، وتربى مع الأمراء في بيوتهم، ونال الحظوة والمكانة كواحدمنهم، ونالت عائلة ابن شهيد المكانة الأقرب من خلفاء الدولة الأموية :"وأسرة ابن شهيد من أكبر وأشهر العائلات الأندلسية في عصر سيادة قرطبة ،وقد تصرّفَ أفرادُها لخلفاء بَني أميَّة في الخُطَطِ السَّنيّة مِنَ الحجَابَة والوزَارَة والقيَادَة والكتابَة إلى انقرَاض الدّوْلَة الأمَويَّة في الأندَلس.."([162]).

ويذكرُ هو حادثة في قصرِ الخليفةِ المنصور بن أبي عامر يقول:"في يوم مطير وأنا ابن خمس سنين ،أذكر ذلك ذكر ما كان لي بالأمس، وكان من إكرامِه لي ولطيفِ اهتمامِه بي ما يطولُ الكتابُ ولا يحتملُه الخطابُ، وعينه ومحضه وصريحه وزبده أنّى وهبني يومًا تفاحَة كانت بينَ يديه كبيرةً، ولأنِّي أنظرُ إليها نظِرَ الكلِفِ وأتأملها، تأمُّل الشرِهِ، فأمرني بالقبض عليها والعضّ فيها فضَاق فمِي عن أن أحيطَ بجزء من أجزاء كرتها وصغرتْ كفِّي عن أن تقبضَ إلا بمخنق من مَخانق أنحَائها فجعل يقطع لي بفمه، ويطعمُني على حكمه، ودعَا الناصرَ، ومعَه فتًى سمعتهم يكنونضه أبا شاكر، فقال له:احمله إلى أمِّك، وارفقْ به في حَمْلك :فأخذا بيديّ أمامَه، وابتدرا يسيران بي قدّامَه،

162 /ابن شهيد.ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله.تح/محي الدين ديب.م.س.ص:11

وأنا لا أسمحُ في القياد لشدّة ذلك الوابل، وتتابع قطر ذلك الهاطل، فصاح بهما:"أقلاه فاحمِلاه على أعناقكما"[163].

وكانت من الحظوة في قصورِ الخلفاء أن نالَ الوزارةَ في عَهد المظفّر، ولكنَّه لم ينلْ شرفَ الكتابة لينال لقب الوزير الكاتب، وكم كانتْ مرتبةُ الكتابَة راقيَةً في عَصْره... [164]

ج/ **أسرته ومكانتها الإجتماعية والأدبية في قرطبة.**

يقول ابن حيان إنَّ :" البَيئة الاجتماعيةَ والثقافية التي وجد فيها ابن شهيد هي بيئة تلك الأرستقراطية العربية القديمة التي كانت تستأثر بمهام الحكم، فكانت كبني أبي عبدة وبني جدير وبني عبد الرؤوف وبني جهور وبني فطيس، أسرة من تلك الأسر التي احتكرت تماما وظائف الإدارة. وقد امتدّ سلطان هذه الأسر وظلّ غير منقص بحكم صلاتها الوثيقة بالأسرة المالكة، ثمّ بعدها ببني عامر طوال عهد اضمحلال الأرستقراطية العربية التي انهزمت في معركتها ضد السلطة المركزية، والسياسة التي اختلقها الناصر لخلق دولة متعدّدة القوميات..ولقد وُلد ابن شهيد في عهد هشام المؤيّد (الثاني) حين وصلت البلاد تحت قيادة المنصور ورعايته إلى أعلى درجات الرخاء والقوة الحربية..."[165]

لم يكن أثر عائلته مجهولا في زمن ابن شهيد أو قبله، فجدّه أول من عُرِفَ بذي الوزارتين في الأندلس، وقد ذكر الباحثون له أكبر هدية تُقدّم للملوك، وتعجبوا منها. إلى الخليفة الناصر، كما أنّ والده كان رجل علم وفكر،قدّم للمكتبة سفرا تجاوز المائة جزء:"أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن شهيد أوحد الناس بالتقدّم في علم

---

163 /ابن بسام.الذخيرة .ق.1.م.1.م.س..ص:196/195

164 / جاء في تحقيق :ديوان ابن شهيد ورسائله على هامش الصفحة 28مايلي:"الكتابة بالأندلس على ضربين:أعلاهما كاتب الرسائل،وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السمة،يخصه من يعظمه في رسالة ، وأهل الأندلس كثيروالانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه،ولا مكانه من سلطانه مِن تسلط الألسن في المحافل، والطعن عليه وعلى صاحبه، والكاتب الآخر كاتب الزمام،هكذا يعرفون كاتب الجهبذة .ولا يكون بالأندلس وبر العدوةلا نصرانيا ولا يهوديا البتّة، إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم. "

165 / ابن شهيد·الديوان تح/ يعقوب زكي.م.س.ص:12

الخبروالتاريخ واللغة والأشعاروسائرما يحاضر به الملوك، مع سعة روايته للحديث والآثاروهو مؤلف :كتاب التاريخ الكبير في الأخبارعلى توالي السنين" بدأ به من عام الجماعة سنة أربعين وانتهى إلى أخبار زمانه المنتظمة بوفاته رحمه الله وهو أزيد من مائة سفر.."(166)

وأشهرُ من يُذكرُ في قربَه للخلفاء جدُّه أحمد بن عبد الملك بن عمربن شهيد يقول عنه ابن خاقان في المطمح :"مفخرالإمَامَة، وزهر تلك الكِمامة، حاجب الناصر عبد الرحمن، وحامل الوزارتين على سموهما في ذلك الزمان، استقلَّ بالوزارة على ثقلها، وتصرّفَ فيها على حدّ نظرها، والتفات مقلها، فظهرعلى أولئك الوزراء واشتهرمع كثرة النظراء، وكانت إمارة عبد الرحمن أسعد إمارة، وكان لابن شهيد أدب تزخر لُجَجُه، وتُبهرُ حججُه، وشعررقيقٌ لا ينقد، ويكاد في اللطافة يُعقَد.."(167).

كل هذه المصادر على اختلافها كان لها المفعول الواضح، والأثر البيّن في تكوين فكرابن شهيد وصقل موهبته الشعريَّة، فقد اجتمعَ المكانُ، بكل تجلياته وعناصره ـ قرطبة خاصَّة والأندلس عامة ـ والزمَان أيضا [نهاية القرن الرابع ومطلع القرن الخامس الهجريين] وما جرى فيهما من أحداث سياسيَّة، من قيام دولة وانتشارها، وسقوط دولة أخرى وانهيارها، وتوالي الحكام على قرطبة حاضنة الثقافة والسياسة وبوابة الأندلس كلها على العالم الخارجي، في تهذيب شخصيَّة ابن شهيد والوصول به إلى مَدى أبعد ممَّا كان يمكنُ أن يكون لولا المكان والزمان أو قل :لولا قرطبة والعصر.

د/ علماء عاصرهم في قرطبة

منْ بينِ المَصَادر التي عملتْ على تكوين هذه الشخصيَّة، مَا كانَ من علمَاء وشعراء في هذا المَكان وهذا الزمَان..ومَا كان لاحتكاكه بهم ـ من الجانب الإيجَاب

166 /عبد الله سالم المعطاني/ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي .رسالة ماجستير .جامعة أم القرى.1977.ص:27

167 /ابن خاقان .المطمح...م.س.ص:**166.**

والجانب السِّلب ـ من التأثير في الإنتاج والإبداع..وما كان من الحكام المهتمين بالكتب وإنشاء المكتبات، وتقريب الكتاب والشعراء.: "ولعلّ الإلمَام ببعض أسمَاء الذين اختارهم المنصورأعوانًا له ،ووزاء في دولته يدلُّنا أكثر من غيره على تقديره للأدبَاء والمثقفين ،وثقته فيهم ،منهم الزّبيدي ،الذي ولاه قيَادة الشرطة ،وهو من أخطر المناصب في الأندلس ،ومنهم ابن درّاج القسطلي الذي رأينا أنَّه كانَ من كتابه ،ومنهم وزيرُه عبد الملك بن إدريس الجزيري ،الذي كان كاتبًا وشاعرًا مشهورا، وكان من أشهر كتابه المؤرخ الكبيرابن حيَّان.

ولعلنا لا نغفل ـ حين الحديث عن علماء قرطبة في هذه الفترة الزمنية ـ ما جاء في الصِّلة لابن بشكوال(168) من تراجِم لثلاثة وسبعين وخمسمائة وألف عالم وفقيه وشاعر،وهوتكملة لكتاب الفرضي المعروف بـ:"تاريخ علماء الأندلس."(169).

والذي يعنينا من كلّ هذا الكمّ من المترجَم لهم ،أولئك الذين عاشوا فترةَ النكبة في قرطبة وخرجوا منها أوبقوا فيها، وكان لهم تأثيرٌ على الفكروالحَيَاة العلميَّة والأدبيَّة فيها، ومن بينهم قرابَة المائة ماتوا بين 350هجرية و399هجريَّة لم يرِدْ ذِكرهُم في كتاب علماء الأندلس ،وقرابة الأربعين تُوفُّوا سَنَة 400 هـ، وأكثرقليلاً مِن أربعمائة وألف عاشوا خلال الفترة الممتدّة بينَ سنتي401هـ و563 هـ (1011م.-1108 م)، وهي المَادة الغالبَة التي تشكّل منها الكتاب بأجزائه الثلاثة. وتشمل ستًّا وتسعين وثلاثمائة (396)ترجمة لعلماء وفقهاء كانوا أحياءً سنَة400 هـ. ويذكر ابن بشكوال كل واحد منهم بأنه من أهل قرطبَة أو سَكَنَ قرطبة، كما أخبرعن واحد وعشرين منهم ممَّن رحَلَ مضطرًاعنها نتيجَة الفتنة الكبرى، وكانَ الجَلاءُ في فترة النِّصف الثانِي بالتقريب

---

168 / أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال الخزرجيُّ الأنصاريُّ المتوفَّى سنة 578هـ. 1183م،

169/كتاب ألفه أبوالوليدعبدالله بن محمَّد بن يوسف بن نصرالأزدي،المعروف بابنِ الفَرَضي،والمتوفَّى سنة 403 هـ. 1013م

من حَيَاة ابن شهيد الأندلسي، أي من بداية القرن الخامس إلى 422هـ،وهي سنة سبقت وفاته بأربع . ([170]).

التعريف بالرسالة:

أولا / من حَيثُ عرضُ المُحْتوَى :

قِصَّة من نسج خيال ابن شهيد، يذكر في **مدخلـها** لصاحِبهِ أبي بكر بن حَزم([171])، لحظة ارتُجَّ عليه القول وهو يحاولُ رثاءَ مَنْ " كنت أهواه " ([172]) وكيفَ التقى بزهير بن نُمَير، فإذا بفارس عَلى البَاب يستفسِرعَن سَببِ الارتجَاج، أهوَ مِنَ العَجز؟ فيُخبِرهُ ابنُ شُهَيد أنَّ الأمْرَمِن طبيعة البشر، مرة ومرة..فيعينه الفارس على استمرارالقول، ويخبره أنه:"أنا زهيربن نميرمن أشجع الجن"([173]) ويستمر الحواربينهما ليعَرِّفنا على ما كان في اللقاء من علاقة حبّ ومودَّة: فقلت:[وما الذي حَدَا بك إلى التصوُّر لي؟ فقال: هوى فيك ،ورغبة في اصطفائك.

قلت: أهلا بك أيُّهَا الوجهُ الوضَّاح، صادفت قلبًا إليك مقلوبًا، وهوًى نحوك مجنوبا.

وتحادثنا حينا ثم قال: متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات :

و إلى زهير الحُبّ، يا عِزّ، إنَّه ... إذا ذكَـــرتْه الذاكرَاتُ أتـــاهَا

إذا جَرتِ الأفواهُ يومًا بذكرِهَا ... يخيـّـل لِـــــي أنّي أقبّـِـل فَاهَا

فأغشَى ديَارَالذاكرينَ،وإن نَأتْ ... أجَارِعُ من دَاري ،هَوى لِهَوَاهـا ..]([174])

هكذا يكونُ اللقاءُ وتكونُ الرحلةُ التي يريدُها ابنُ شهيد ،وتبدأ فصولُ القصة :التي يذكرُ في بدايَة فصلهَا الأوَّل أنَّه تذاكرمعَ تابعه زهَير بن نُمَيرأخبَارالخطبَاء والشَّعَرَاء،

---

170 /هذا كلام عن الذين رحلوا عن قرطبة بين سنتي 400هو422هـ فقط،وليس عن الذين بقوا فيها أو رحلوا قبل الفتنة. ينظر كتاب:تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي.وكتاب الأعلام للزركلي213/1..وترتيب المدارك للقاضي عياض.ج.2./253بغية الملتمس للضبي.160.الذخيرة لابن بسام تح/البدري.ج.3/554.555..ينظر ملحق الأعلام .

171 / ابن شهيد الأندلسي .التوابع والزوابع: م.س. ص:88

172 / م.س. ص:89

173 /لايذكر المكان بالضبط لكنه يقول[.. أرض الجن]:ص:91

174 / ابن شهيد الأندلسي .: م.س :116

ومَا كانَ يألفُهم مِنَ التَّوابع والزوَابع، وسَأل عَن طريقَة يلتقِي بِهِمْ مِن خلالهَا فمَا كانَ مِن تَابِعِهِ إلا الاستئذان ليَعُودَ إليْهِ ويَحْمِلُهُ إلَى وَادِي الجِنّ حيث يُرِيدُ لقاء من يشاء ..فيختارتوابع الشعراء في البداية ،يطلبهم من صاحبه ،وهم :امرؤ القيس/ طرفة بن العبد/ قيس ابن الخطيم .ومن العباسيين يذكر أبا تمام/ البحتري

وأبا نواس، ليختم بتابع أبي الطيب المتنبي ..وكان في كل مرة يقدم أفضل ما لديه من أشعار ويطلب الإجازة فلا يعدمها ،وينال الثناء والإطراء فوق ذلك..

وأما الفصل الثاني فقد كان للخطباء : وهم في البداية :

تابعُ الجَاحظ، وتابعُ عبد الحميد الكاتب، فيؤاخذانِه على شدَّة كلفِه بالسَّجع واستغراقه فِيه.[فقال إنك لخَطيبٌ، وحَائكٌ للكلام مُجِيد، لوْلا أنك مُغرَى بالسَّجع، فكلامُك نظمٌ لا نثرُ.][175]

ويدافعُ عن استعمَالهِ السَّجعَ، وَيَرَى أنَّهُ ابتلي بِغبَاوَةِ مُعَاصِريهِ، وَجَدِير بِهِ أن يحرِّكهم بالازدوَاج .بل ويرى أنَّ علومَ العربيَّةِ وما تركَه السَّابقون ضَاعَت كلهَا ولم يَعُدْ لهَا ذكرٌ في عَصْرهِ وقدْ اعترتْ ألسنتَهم لكنةٌ أعْجَمِيَّة.": فكيفَ كلامُهم بينَهم؟ قلت: ليسَ لسيبويه فيه عَمل ،ولا للفَراهيدي إليْه طريق ولا للبيان عليه سِمَة .إنما هي لُكنَة أعجَمِيَّة يؤدُّونَ بهَا المَعَاني تأديَة المَجُوس والنَّبط. فصَاحَ: إنَّا لله، ذهبتِ العربُ وكلامُها! ارْمِهم يَا هذا بسجَع الكهَّان، فعسى أن ينفعك عندَهم، ويطيرَلك ذكرٌ فيهم. ومَاأراكَ، مَع ذلكَ، إلا ثَقيل الوَطأة عَليهِم، كرِيه المَجِيءِ إليهم."[176].

إنّ عبد الحميد الكاتب لا يقتنع بهذا الرأي ،فهويرى أن السَّجْع طبعٌ فيه، فيكون ردُّ ابن شهيد لاذعًا عنيفا:" فقلت له: لقد عجِلت ،أبا هبيرة، - وقد كان زهيرعرَّفَني بكنيته - إن قوسَك لنَبع، وإنَّ سَهْمَكَ لسُمٌّ، أحِمَارًا رمَيتَ أم إنسَانًا، وقعقعَة طلبتَ أم بيانا؟ وأبيكَ،

---

[175] / ابن شهيد الأندلسي .التوابع والزوابع: ص:117

[176] /المصدر نفسه : ص:118/117

إن البيانَ لصعبٌ، وإنكَ منه لفِي عبَاءة تتكشَّفُ عنها أستاه معانيك، تكشُّف استُ العنز عَن ذَنبِهَا. الزمَان دفْءٌ لا قرٌّ، والكلامُ عراقِي لا شآمي. إنّي لأرى مِن دم اليَربُوع بكفيك، وألمحُ من كشى الضبِّ على ماضغيك.

فتبسَّم إليَّ وقال: أهكذا أنتَ يا أطيلس، تركبُ لكلِّ نهجِه، وتعجُّ إليه عجَّه؟

فقلت: الذئبُ أطلس، وإنَّ التَّيْسَ مَا علمْتَ!

فصاحَ به أبو عُيَيْنَة: لا تعرضُ له، وبالحرَّا أن تَخْلُصَ منه.

فقلت: الحمدُ لله خالق الأنَام في بُطون الأنعَام !

فقال: إنَّهَا كافيَة لوْ كانَ له حِجر. فبسطاني وسألاني أن أقرأ عليهمَا من رسَائلي، فقرأت رسَالتي في صفة البردِ والنارِ والحَطب فاستحسنَاها . "([177]).

ومن رسَالتِه في الحَلواء:"..بأبي هذا اللَّمَصُ انظروه كأنَّه الفَصّ،مجاجة الزنابير،أُجريتْ على شَوَابير ،وخَالطهَا لبَابُ الحبَّة ،فجَاءَتْ أعَذبَ منْ ريق الأحِبَّة."

ثم يَصِفُ الزَّلابيَة: "ورَأى الزلابيَّة فقال: وَيلٌ لأمِّها الزَّانيَة أبَأحْشَائِي نُسِجَت أمْ من صِفَاق قلبِي أُلِّفَت ؟ فَإنّي أجِدُ مَكَانَهَا مِنْ نفسِي مَكينًا، وَحبْل هَوَاهَا عَلى قلبِي مَتينًا، فمِنْ أينَ وَصلتْ كفُّ طابخِها إلى بَاطِني،فاقتطعتُها مِن دوَاجِني؟ والعَزيزِ الغفارِ لأطلبنّها بالثَّارِ."([178]) .

ويطولُ الحَدِيثُ علَى هَذا الشَّكل واللوْنِ مِنْ السَّجْع والتنْمِيقِ، فيَسْتحْسِنَانِه ويضْحَكان، وَيحْكُمَان عَلى سَجْعِه بالقول:"إنَّ لسَجْعِك مَوْضعًا من القلبِ ومكانًا منَ النَّفس، وقد أعَرْتَه من طبعِك، وحَلاوَة لفظك، ومَلاحَة سوْقك مَا أزالَ أفنَه، ورفعَ

[177] /المصدر السابق ص:118.117

[178] / المصدر نفسه. .ص:.119./121/120./دواجني: هنا الاحشاء التي ألفت باطني.

عينَه وقد بلغَنا أنكَ لا تُجارَى في أبناء جنسك، ولا يُملُّ في الطعنِ عليك والاعتراضِ لكَ ."(179) .

ويذكرأمامَهُما حسَّادَه وما يلحقونَه به من السُّوءِ في مَجَالس الحُكم .فيذكرهم:"قلت: جارانِ دارهمَا صَقب وثالث نابته نوبٌ، فامتطى ظهرالنوَى، وألقت به في سرقسطة العصا. فقالا :إلى أبي محمد تشير،وأبي القاسم وأبي بكر؟ قلت:أجل](180). ويجيبهما عن موقفه من كل واحِد منهما، فأبو محمَّد فقد وشَى به عند المستعين. وأمَّا أبو بكر فعلى الرَّغم من الصَّداقة التي بينهُمَا، لكنَّه اتهمَه بأن له تابعة هي التي توحي له بالقول، وإلا فليس بشاعرولاناثر(*)وأمَّا الإفليلي، فيقول عنه:"وأما أبو القاسم الإفليلي فمكانُه في قلبي مَكين، وحُبُّهُ بفؤادي دَخيل.."(181)ثم يصيحان بصاحب الإفليلي[أنف الناقة] ويحضرأمامَها جني أشمَط، منتفخ الأنف يتظالع في مشيته، ويكون بينهما جدال يدفع من خلاله ابن شهيد قول التابع الإفليلي بتمكّنِه من البيَان وقد تعلمَه من الكتبِ وعلى العلمَاء ومن مجالسهم فيرى أن ذلك من الله تعَالى، يقول:" إنمَا هوَ من تَعليم الله تعالى حيث يقول:﴿"الرحْمَن علّمَ القرآنَ خَلقَ الإنسَانَ عَلّمَه البيَان.."﴾(182) .

فالبيان عند ابن شهيد أنْ تَملك القدرةَ على رَفع الوَضيع ووَضع الرَّفيع ،والقبيح يحسِّنه ،والحسنَ يقبّحُه .ويقدِّم له أمثلةً عن ذلكَ في وَصف البَرغُوث مثلا:"أسود زنجِي ،وأهليّ وَحْشي ،ليس بوان ولا زُميل وكأنه جزء لا يتجزّأ من ليل ،أو شونيزة أوثقتها غريزة، أو نقطة مداد أو سويداء قلب قراد، شُربه عبّ، ومشيه وثب، يكمن نهاره، ويسري ليله، يدارك بطعن مؤلم، ويستحل دم كل كافر ومسلم.."(183) ثم يصف الثعلب، ومما جاء في هذه الرسالة قوله في آخرها:"..مُغرى بإراقة دم المؤذنين،

179/ م.س.ص:122

180/ م.س.ص: 123 */وهذا ما دفعه إلى كتابة رسالة التوابع إليه ،ويقول له في بدايتها:"فاصخِ اسمعك العجب العجاب..."

181 / .م.س.ص:123

182 / .م.س.ص: .125

183/.م.س.ص:126.

المؤذن هنا الديك لأنه يؤذن صباحا.كما قال البستاني في شرحه الرسالة.

إذا رأى الفرصة انتهزها، وإذا طلبته الكماة أعجزها، وهو مع ذلك بقراط في إدامه، وجالينوس في اعتدال طعامه، غذاؤه حمام أو دجاج، وعشاؤه تدْرُج أو دُرَّاج.."(184).

ويتعرَّف في المَجلسِ عَلى تَابع بَديع الزمَان، وَيَنكر عَليهِ تَطاوُله في البيَان على شاكلة أهل العراق وهو فتًى من أهل المَغرب، وفِي مَا يشبه التحدِّي يطلبُ منه ابن شهيد أنْ يقترحَ عليه ما يَشاءُ، فيطلبُ منه وصفَ جارية ،ويصفُها ابن شهيد، فتعجّبَ زبْدةُ الحِقب، ويتداولانِ في وصْف المَاء، يقول صَاحب بَديع الزَّمَان:"أزرقٌ كعين السِّنّور، صافٍ كقضيبِ البِلّوْر، انتخبَ من الفرات، واستعمل بعد البيات، فجاء كلسان الشمعة، في صِفاء الدَّمعَة. فقلت:انظره، يا سَيدي، كأنه عَصير صبَاح، أوذوَّب قمر ليَّاح، ينصبُّ من إنائِه انصبَابَ الكوكب من سَمَائهِ العين حانوته ،والفم عفريته، كأنه خيط من غزل فلق أومخصر يُضربُ به من ورَق، يُرفع عنك فتردَى، ويصدَعُ به قلبك فتحيا.."(185) فيظهِرُ حنقه وغَيْرته منه ،ثم يتدحرج فغاب فيها وانقطع أثره والتفتَ في المجلس إلى أنف الناقة ،ليظهرله شأوه، وعلو مكانته في الشعر كما النثر، فيصف له سحابا عارضا، ثم ذئبا، ومما قاله في هذا:

أزلُّ كسَا جُثمَانَه متَّسِتِّرًا ... طيَالسَ سُودًا للدُّجَى وَهْوَ أطلسُ

فَدلَّ عليْهِ لحْظُ خِبٍّ مُخَادعٍ ... تَرَى نارَه مِن مَاءِ عَينيْه تُقْبَسُ

فصاح فتيان الجن عند هذا البيت الأخير: زاه! وعلت أنفَ الناقة كآبةٌ، وظهرت عليه مهابَة، واختلطَ كلامُه، وبدا منْه ساعتئذ بَوَادٍ في خِطابِه، رحمَهُ لهَا مَنْ حضرَ، وأشفقَ

184 / م.س..ص: 127.التدرج : طائر جميل المنظر، الدراج : طائر مثل التدرج

185 /.م.س.ص:131

عليه ،مِن أجلها، مَنْ نظر.][186] .وكان بالمَجلس تَابع أحَد أدبَاء الأندَلس،وهو أبو إسحَاق بن حَمَام، الذِي أراد أن يتوسط بينهما، ويلطّف الأجواء المشحونة بالكراهية والعداوة، يقول لابن شهيد:"وهل يضرّ قريحتك، أو ينقص من بديهتك لو تجافيت لأنف الناقة، وصبرت له؟ فإنه على علاته زير علم، وزنبيل فهم، وكنف رواية"([187])غير أن ابن شهيد يرى أن هذا الكلام كان الأولى بأبي الآداب أن يوجهه إلى الإفليلي فيمتنع عن ذكره اتباع عورات شعره ونثره بين مجالس تلاميذه:[فقلت: يا أبا الآداب ،وزهرة ريحانة الكتاب ،رفقا على أخيك بغرب(*) لسَانك ،وهل كان يضر أنفَ الناقة ، أو ينقص من علمه ،أو يفلّ شفرة فهمِهِ ،أن يصبرَ لِي عَلى زلّة تمرُّفي شعرأو خُطبَة، فلا يهتفُ بهَا بَيْنَ تلامِيذِه ،ويجعَلُهَا طرمِذة (**) مِن طرامِيذِه؟][188] .

ويرى ابن شهيد أن الأمرَ تكرَّرمَرَّاتٍ، وهوليسَ حَادثَة عَارضَة أومَرَّة نادرة . وينال الإجَازة في الأخيرمن شيخَي المَجلس:الجَاحظ وعَبد الحَميد، بل ويحكمَان بأنَّه شاعِر وخَطِيب.

وَعَلى هذا النَّحوِ ينتهي المَجْلسُ، وترفعُ الأبْصَار نَحوَ ابن شهيد ،تنظرإليهِ بإعجَاب وتميلُ إليه الأعنَاق .

<u>الفصل الثالث:</u> وفيه لقاء بنقاد الجن وقد حضر مجلس أدب ، تذاكر فيه المجتمعون ما رأوه نقصًا في المَعَاني من أقوَال بَعض الشعرَاء ،فتداوَلوه ،ورأى فيه كلٌّ منهم رأيَه وممَّن ذكروهم، الأفوه في قوله:

وترى الطيرَ عَلى آثارِنَا ... رَأيَ عَينِ ثقةٍ أنْ سَتُمَار..

---

[186]/ المصدر نفسه..ص:131 /

[187]/المصدر نفسه..ص:131

*/غرب اللسان:حدّته

**/الطرمذة:الصّلف والمفاخرة.

[188] / ابن‌شهيد الأندلسي.التوابع والزوابع. .ص:131.130

وأنشد آخر قول النابغة :

إذامَاغَزَوا بالجَيش حَلّقَ فوْقهُم ...عَصَائبُ طيْرتَهتَدِي بعَصَائب.."([189])

كما ذكروا من الشعراء أبا نواس وصَريع الغواني وأبا تمَّام والمتنبي والكِندي وعُمر بن أبي ربيعة واسماعيل بن يسار النّسائي..وكان كل ناقد يذكر النقص الذي يراه في قول الشاعر، والبديل الذي يراه في قول آخر:" فقال شمردل السَّحابي: كلهم قصّر عن النابغة، لأنه زاد في المعْنَى ودلَّ على أنَّ الطيرإنَّما أكلت أعداءَ الممدوح، وكلامُهم كلُّه مشترك يَحتَمِل أنْ يكونَ ضدَّ مَا نَوَاهُ الشَّاعِرُ، وإنْ كَانَ أبُو تمَّام قد زاد في المَعنى وإنما المُحسن المتخلّصُ المتنبي حيث يقول:.

لهُ عسكرَا خَيل وطيرٍ إذا رمَى***بهَا عَسْكرًا لمْ تُبقِ إلا جمَاجمُه.."([190]) .

ويَنبرِي في المَجلس ناقد آخر أفضَل مِنَ الجَميع يرفعُه ابن شهيد مكانًا عاليًا ثم يتوجَّه إليه، إنه فاتك بن الصُّقعب:"..ولكن الذي خلصَ هذا المعنى كلَّه، وزادَ فيه وأحسن التركيبَ، ودلّ بلفظة واحدة على ما دلّ عليه شعرُ النابغة وبيتُ المتنبي، من أن القتلَى التي أكلتْهَاالطَّيرُأعداءَ الممْدُوح،فاتك بن الصُّقعب في قوله:(من الطويل):

وتَدري سبَاعُ الطيرِ أنَّ كُمَاتُه*** إذا لقِيَتْ صَيْدَ الكمَاةِ ، سِبَاعُ

لهنَّ لُعابٌ في الهَوَاء وهِـزَّة*** إذا جَدّ بَيْنَ الدَّارعِينَ قِـرَاعُ

تطيرُ جِيَاعًا فوقَهُ و تَردُّها *** ظبَاه إلَى أوْكَارهَا وَهْيَ شبَاعُ

تَمَلَّكَ بالإحسَان ربقَةَ رقِّها *** فهنَّ رقيقٌ يُشتَرَى و يُبَـــاعُ

وألحَمَ مِنْ أفرَاخهَا فَهْي طوعَه***لدَى كلّ حَرْبٍ،والمُلوكُ تطاعُ

تُمَاصِعُ جرحَاها فيجهزُ نقرَها*** عليهم ، وللطيرِالعتاق مِصَاع

فاهتز المجلس لقوله.."([191]) وكان ابن شهيد شديدَ الإعجَاب بفاتك بن صُقعب وبرَأيِه فِي أشعَار السَّابقين، ومَازالَ يقرَأ عَليه شعرَه، وكان بينهما نقاش وآراء في بعض

189/ م.نفسه. .ص:133

190/ المصدر السابق.ص:134

المصاع : المقاتل ،وتماصع القوم ،تقاتلوا [لسان العرب]

المعاني التي تداولها السَّابقون، ويرى كل منهمَا رأيَه. وكان ابن شهيد معجبا برأي فاتك أيمَا إعجاب: " قلت :أعزّك الله، وهو من العُقم. ألا ترَى عمر بن أبي ربيعَة، وهو من أطبع الناس، حينَ رامَ الدّنُوَّ منه والإلمَام به، كيف افتضح قوله:

ونفَّضت عني النوم أقبلتُ مِشيَة الـ***حُبابِ وَرُكنِي خِيفةَ القَوْمِ أزوَرُ.

قال صَدقتَ إنَّه أساءَ قسمةَ البيت، وأرادَ أنْ يلطفَ التَّوصُّلَ ،فجَاءَ مقبِلا بركن كركنه أزور، فأعجبني ذلك منه، وما زلت مقدما رجلا ومؤخراعنه أخرى.."([192]) ويتذكر شعرا في هذا المعنى يقول فيه:

لمّا تسَامَى النَّجمُ في أفقهِ***ولاحتِ الجوزاءُ والمرزمُ

أقبلتْ و الوطْءُ خفيفٌ كمَا*** ينسَابُ مِنْ مَكمنِه الأرقمُ([193])

فعلمتُ أنَّه صَدق، وابن أبي ربيعَة لو رَكبَ غير عروضه لخلص، فقلت أنا في ذلك:

و لمَّا تمَلأَّ من سُكرهِ *** فنَام ،ونامتْ عيونُ العَسَس

دنَوْتُ إليهِ ، عَلى بُعْدِه *** دنُوَّ رَفِيقٍ دَرَى مَا التَمَس

أدبُّ إليهِ دَبيبَ الكرَى *** و أسْمُو إليْهِ سُمُوَّ النَّفَس

و بِتُّ بهِ ليلتِي نَاعِمًا*** إلى أنْ تبسَّمَ ثغرُ الغَلس

أُقبِّلُ منهُ بَيَاضَ الطّلا*** وأرشفُ مِنهُ سَوَادَ اللّعَس

فَقُمْتُ وَقبّلتُ عَلى رَأسِه وَقلتُ :لله دَرُّ أبيكَ !"([194])

وذكرهُ بما كانَ قد تجاذبَه من الشعر مَعَ المُتنبِي، في علوّ المَكانَة والمَجدِ الذِي بَلغَه، فيذكرُ ذلك وَينَال استحسَان صَاحبِه، "..فصَاحَ صَيحَة منكرةً من صيَاح الجنّ كادَ يُنخَّبُ لها فؤادي فزعا والله منه.."([195])

191/ ابن شهيد الأندلسي :التوابع والزوابع :135 /الصيد:الرافع الرأس كبرا/ألحم:أطعم اللحم/تماصع:تقاتل.

192 / البيتان لاسماعيل بن يسار النسائي شاعر أموي من موالي بني تيم بن مرّة،كان منقطعا إلى آل الزبير، ومدح عبد الملك بن مروان ،ويقال إنه عمّر طويلا،وأدرك آخر حكم بني أمية.[البستاني:التوابع والزوابع..]

193/ م.س.ص:136.

تملّأ:امتلأ..الطّلا:واحدة طليّة:الأعناق./ اللّعس:سواد مستحسن في الشّفة.

194/ م.نفسه.ص:138..

195/ م.نفسه: ص:141. ينخّبُ:يُنزع..

ونظرإلى جانبه فإذا هو بجني يرمقه بطرفي عينيه، وينتظر الانكباب عليه كأنه خصمه، فقارعه، واحتدم بينهما القول، فطلب منه أن يرقى بالكلام والمعنى أفضل من هذا لأنَّه أشبه بنافخ في قصَبٍ، فما كان من ابن شهيد إلا الاستجابة لطلبه ويذكر من شعره ما فاق في المعنى ما استشهد به الجني المتحدي، ويعترف ابن شهيد بصعوبة الموقف :"فأدّني والله بما قرع به سمعي، فقلت له: أي ماء لوكان من جمامك، واستهلّت به عيون غمامك ! ثم استقدمت فأنشدته:

و لربَّ ليْلٍ للهُمُومِ تَـهَدَّلتْ*** أستَارُهُ فمَـحَا الصُّوَى بسُتُورِهِ[196]

كالبَحْرِ يَضْربُ وَجْهَهُ فِي وَجْهِهِ*** صَعْبٌ عَلَى العُبَّار وجْهُ عُبُورِه

طاولْتُهُ مِنْ عزمَتي بـمضَبَّـرٍ*** أثْبَتُّ هَمّـي فِي قَـــرَارَةِ كُورِهِ

وَعَليَّ للصَّبْـرِ الجَمِيلِ مُفَاضَةٌ *** تَلقَى الرَّدَى، فَتَكِلُّ دونَ صَبُورِه

وَبِرَاحَتي مِنْ فِكرَتِي ذُو ذُكْـرَة *** عُهِدَتْ تذاكِرُنِي بِطبعِ ذَكيـــرِه

وأنشدته:

اللهَ فِـي أرْضٍ غُذيتُ هَوَاءَهَا *** وعِصَابَةٍ لمْ تَتَّهِمْ إشفَاقَهَا

نَكزَتْهُمُ أفْعَى الخُطوبِ ،وَعُوجِلُوا*** بمُثمّلٍ منْهَا ،فكنْ دِرْيَاقَهَا.."[197]

ومَازالَ ابن شهَيد يذكر شعره وينشدُه ،حتَّى أتَى عَلى ذِكر الكَثيرِ مِنْ أفرادِ عَائلتِه الذينَ يُجِيدونَ الشّعرَ ،فمنهم أبوه ، وأخوه وعمُّه وجدُّه وجدّ أبيه..ثم يختم ببيتين له :

قال فمن القائل:

وَيْحَ الكتَابَة مِنْ شَيْخٍ هَبَنقَة***يَلقي العُيونَ بِرأسِ مُخّه رَارُ*

وَمُنتِنِ الرّيحِ إنْ نَاحَيْتَهُ أبَدًا***كأنَّمَا مَاتَ فِي خَيْشُومِهِ فَارُ

قلت أنا.."[198]

196 / الصّوى :ج.الصّوة:حجر يكون علامة في الطريق يهتدى بها./ المفاضة : الدّرع الواسعة/.الذّاكرة:حدّةُ السّيف.الذّكير:أبيس الحديد وأجوذه.

197/ م.س.ص:141./ نكزته الأفعى:لسعته.المثمّل:السمّ الناقع..

*/ الرَّار : الذائب من المخ..هبنّقة:رجل يضرب به المثلُ في الحمق.

198/ م.س.ص:146

وهنا يعترفُ له الجني بالعَرَاقة في الكلام، وينتَهي اللقاءُ بينهمَا بمَا يصوّره ابن شهيد بصورَة تجعَل الجني العمْلاق، وقد انهزمَ أمَامَه ،وهزلتْ قوامُه: أقل شأنا من خنفسَاء، وأضعف حالا من أن يشغل رجليها:"[إني أراك عريقا في الكلام. ثم قلَّ واضمَحَلَّ حتى إن الخنفسَاء لتدوسه، فلا يشغل رجليها. فعجبت منه..](199) ثم يطلب من تابعه زهير أن يخبره بأمر هذا الجني، فيعرف منه أنه تابع أحد الشيوخ الكبار .

الفصل الرابع:

كان يوما يمشي مع تابعه بأرض الجن حتى أشرفا على أرض منبسطة كثيرةالعشب بها عين ماء وبركة ،فإذا هما أمام عانة من حمرالجن وبغالهم ،قد أصابَها الجنون فهي تصطك في ما بينها، وتضرط، وتنهق، حتى كان منها الانتباه إلى الزائر الغريب، وتوقفت كأنها تريدمنه أمراعظيما:"جاءكم على رجليه"(200) وكانت تقصد تحكيمه في أمرشجرَ بين مجموعتي الحميروالبغال. فطلب سماع القصيدتين. وتقدّمت إليه بغلة شهباء متزنة الحركة، فقالت:" أحد الشعرين لبغل من بغالنا وهو:

على كلّ صبٍّ منْ هَوَاهُ دَليلُ***سَقَامٌ عَلى حَرّ الجَوَى ونُحُولُ

ومَازَالَ هَذا الحُبُّ دَاءً مُبَرَّحًا***إذا مَا اعْتلى بغَلا فليسَ يَزولُ

بنفسِي التِي أمَّا مُلاحِظُ طرفِهَا***فسِحْرٌ ، وَ أمَّا خدُّهَا فأسِيلُ

تعبتُ بمَا حُمّلتُ من ثقل حُبِّها***و إنّي لبَغْلٌ للثقَالِ حَمُـــولُ

والشعر الآخر لدُكين الحِمار:

دُهِيتُ بهَذا الحُبّ منْذُ هَويـْتُ***و رَاثَت إرَادَاتِي فلسْتُ أرِيثُ

كُلفتُ بإلفِي منذُ عِشْرينَ حجَّــة***يجُولُ هَواهَا فِي الحَشَا و يَعِيثُ

وَمَا لِي مِن بُرحِ الصَّبَابَة مَخْلصٌ***ولا لِي مِنْ فَيضِ السَّقَامِ مُغيثُ

و غيَّرَ مِنْهَا قلبَها لِي نَمِيمَــةٌ ***نمَاها أحَــمُّ الخصْيَتين خَبيثُ(*)

---

199 / ابن شهيد.التوابع والزوابع.م.س. ص: :147

200 /م.نفسه .ص: 148

فضحك زهيروتماسكت وقلت للمنشِدة:ما هويثُ؟ قالت:هو هويتُ بلغة الحمير"([201])

ويرى أن رائحة الروث أليق بالإفليلي ليحكمَ في مثل هذا الشعر،ففهمتِ البغلةُ أنَّ البغالَ أفضل من الحمير في الشعر..ويتعرف ابن شهيد على البغلة المنشدة أمامَه وتسأله عن حاله وحال الذين كانت تعرفهم في الحياة الدنيا وتطلب منه أن يبلاغهم السلام، فيستجيب.

ويختم لقاءاته بإوزة أديبة ،وهي تسبح في بركة ،تحاول أن تجادله في مسائل أدبيَّة فيوقفها عند حدِّها بتبيان حدود الجدل وأن الله بيّن ذلك لسيدنا ابراهيم الخليل في مجادلته الطاغية اليهودي : الملك النمرود

ويصف ابن شهيد الإوزة بأحسن الأوصاف، ويبدي إعجابه بها، ويقرّ أنه يحب الإوز ويستظرف حركاتها ويقبَل ما يعرض من سخافاتها ، ويسألها في الأخير:

[..فقلت: يا أمَّ خفيف، بالذي جَعَل غذاءَك مَاءً، وحشا رأسك هواءً ،ألا أيُّهُمَا أفضل: الأدبُ أم العقلُ؟

قالت: بل العقل..] ..

ويدعوها إلى التَّعَلُّمِ مِنَ التَّجْرِبَة:"لأنَّ الإوزَّ يشهدُ لهَا الجَمِيعُ بالحُمْقِ وَالغَبَاءِ"([202]) ولا سبيلَ لهَا إلى عَقل الطبيعَة، حينهَا يمكن أنْ تجَادلَ في الأدَب..ثمَّ ينصرفُ كلٌّ منهمَا إلى شَأنِه.

وعَلى هَذا تنتَهي الرسَالة، كمَا قرأتها مُحَقَّقة وَمَطبُوعَة .على الرُّغم من رَأي الكثيرين أن أجزَاءَ منهَا قد ضَاعَت، لم تثبتْ في الذخِيرة كلهَا أو غيرها من كتب الأندلسِيّين:" ..والتوابع والزوابع اسمُ رسَالة نفيسة لم يبقَ منها إلا شذرَات في كتَاب

---

*/في نهاية كل مقطع بيت لا يليق تثبيته في المتن لخروجه عن اللياقة والذوق السليم

201 / م.س.ص:149

202/ م.س .ص:152/ لعله يُعرّض هنا بأحد الشيوخ النحويين الذين كان له موقف منهم..:"ومن سخريته بالنحاة أنه جعل في التوابع والزوابع تابعة أحد الشيوخ إوزّةً ، والإوز يضرب به المثل في الحمق والسخافة.."..رسالة التوابع والزوابع بطرس البستاني ..دار صادر ط.1.سنة 1967 ص: 55..

مخطوط هوَ الذخيرة ألفَها أبو عَامر بن شهيد الأندَلسي "([203]).. ودليلُهم في ذلك أنَّ نهايتَها غيرُ معروفَة ولم يرجِعْ ابن شهيد إلى نقطة الانطلاق ،أو لمْ يلمِّح إلى أنَّها انتهت ،بل كان فراقه للإوزة أشبهَ بفراقه لكل من التقاهم في السابق ،والفرق بينهما أن اللقاءات السابقة لم تكن هي النهاية ،وهذا الفراق مع الإوزة كان نهايةَ الرسالةِ..

ثانيا/ المدار:

رسالة التوابع والزوابع رحلة إلى العالم الآخر، يتخيلها ابن شهيد رفقة تابعه زهير بن النمير، وهي رحلة إلى وادي الجن حيث يقترح عليه تابعه أن يرحل به إلى أي شاعر يريد أو ناثر يرغب ،ويكون ابن شهيد هو المنتقي للشخصيات وزهير بن نميرهو المنفذ للرحلة، وهي رحلة يعرض فيها المشاكل العقلية والأدبية بطريقة القص الفني ،وفيها يقدّمُ ابن شهيد المشكلات التي عنت في عصره ،وظهر الجدل حولها ،بيانية وأدبية، وفيها تعريض بيّن بمن عاصره من الكتاب ومن أراد أن ينتقمَ منهم ،وينال مكانته التي يراها رغمًا عنهم ،والشخصيات عنده هم من الجن الذين يسخرهم لحاجته وبغيته الأدبية .

وفي ضوء مقارنتها برسالة الغفران للمعري من حيث الموضوع والتشابه يرى الدكتورزكي مبارك:"والواقع أن التشابهَ تامٌّ بين الرسالتين ،فالموضوعُ واحدٌ، وهوعرض المشكلات الأدبية والعقليةِ بطريقةٍ قصصيَّة ،والخلافُ في جوهر الموضوع يرجِعُ إلى روحِ الكاتبين: فأبوالعلاء يحرصُ أولا وقبل كلِّ شيْئ على عرضِ المعضِلاتِ الدِّينيَّة والفلسفيَّة، وابن شهيد يحرصُ على عُرْض المشكلاتِ الأدبيةِ والبيانيَّة، ويتفقُ كلا الرجلينِ على التعريضِ بمعاصِريهِ ،وشرحِ ما أخذَ على المتقدِّمينَ من أسَاطين العَقل والبَيَان، والمَسرَحُ واحدٌ تقريبًا :فهو عندَ ابن شهيد وادي الجِنّ في الدنيَا ،وهو عندَ أبي العَلاء وَادي الإنسِ فِي الآخرَة: أي الفردوس والجَحيم

[203]/ مبارك ،زكي .النثر الفني في القرن الرابع الهجري . م.س. ص:218/1

فالمُمَثلونَ عند ابنِ شهيد جنّ يُسَخَّرون.."(204) وعلى هذا فهي قصَّة ذاتُ موضوع مُحَدَّد الأرْكَان ،وبنيَة سرديَّة محدَّدة العَنَاصر فالمَكانُ وَادي الجِن والأشخاصُ هم مِنْ الجنّ ،والحدثُ التَّعريضُ بخصُومِه، والتَّنويهِ بأدبِه.

مَنزِلةُ الرسَالة أدَبيًّا :

رسَالة تحمِلُ الظرفَ والفكاهَة :"نفيسَة جدًّا ومؤلفُها خفيف الظل إلى حدٍّ بعيد، وقد وقعت له فيها فكاهات تبعث الأنس إلى النفس.."(205) والظرف في الرسالة من طبيعة ابن شهيد ،وما عرف عنه من طرفة حاضرة، وفكاهة نادرة، وهذا ما يستخلصه من درسَ له آثارَه، ومن عرف أخباره:"وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك .." (206) وقد جاءت الأحكام قيميَّةً على بعض الأشعار و أشكال النثر نتيجة ازدهار أدب الرَّسائل في الأندلس، واعتبار ابن شهيد أحد أعمدته، ولم يكن كاتبَ ديوان:" فقد نبغ من أرباب الإنشاء الأدبي جماعة ممَّن لم يدخلوا في خدمة الديوان كبديع الزمان الهمذاني، وأبي عامر بن شهيد (الأندلسي)، وأبي العلاء المعري، وأبي بكر الخوارزمي وكثير غيرهم.."(207)

ويبدو أن السَّبب في كتابة الرسالة قد أعْطى صاحبَها الدافعَ القويَّ في التأنق والبَراعَة في الأسلوب والمتانة في اللغة ،والرد على كل المشككين في منزلتِه الأدبية ومكانتِه الشعريَّة التي أرادوها دونَ ما يرى ،وأقل مما يستحقُّه ،فانتزعَ الإجازات من الشُّعراء، والخطبَاء على السَّواء، وأقروا بمكانتِه، ومنزلتِه، ولم ينكر عليْه أحَد هذه المكانَة .

204/ د.مبارك ،زكي .النثر الفني . م.س.ص: 320/1

205/ المصدر نفسه. ص: 322

206/ ابن بسام.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،تح.إحسان عباس ق1،م1،م.س.ص: 192

207 / أنيس المقدسي . تطور الأساليب النثرية ..م.س.ص:.323

ويَرى الدارسونَ حديثا لأدب ابن شهيد كما السابقين، بأنه كان الأسبق في التوابع والزوابع إلى قصَّة الخيال، وأدب الرِّحْلة إلى العالم الآخر، فقد سَبق المعري في غفرانه ودانتي في جَحيمه، فاشتهرتْ في المشرق، كمَا في المغرب:"..بدليل أن رسَائل ابن شهيد ذاعتْ في الشرق ودوّنَها المؤلفونَ الشرقيونَ قبل أن يَموتَ وقَبل أن توضَعَ رسَالةُ الغفران.."[208]

ويقول عنها الدكتور مصطفى الشَّكعة :" عمَل أدبيٌّ جليلُ الأثرلأنَّها ترجمان لنفسيَّة الكاتب ومجتمع زمَانه، وأمَّا أسلوبُها فرشيق فكِهٌ مصنوعٌ موشَّى أنيق فيه سحرٌ ورقَّة، وفيه شفافيٌّة واستهواء، وفيه فكاهة باسمَة وسخريَّة لاذعَة " [209]

ولولم يكن لأبي عامرإلا هذا الفضل لكفاه، فزيادة على لغتِها الراقيَة، وأسلوبِها المتحرك بين الرمزوالتلميح، والتعريض بخصومه والتجْريح .فهيَ ترتدي الصِّيغة القصصيَّةَ حلّة لهَا:" إنَّ عمل ابن شهيد قد أصابَ الطرافَة، وحقق صاحبُه الجدَّة انطلاقاً من بحثه عن الأساليب، التي تحققُ له الظهور على خصومه من الأدبَاء وهو في معرض الفخر عليهم بما أوتي من بَرَاعَة الفن وقدرة على التصرُّفِ في وُجوهِ البَيَان، وأي شيءٍ أكثر إعَانَة له عَلى بلوغ هذا القصدِ مِن أن يُحدِثَ صِيغَة لا عَهدَ للناس بِهَا ؟ مِن هَذِهِ الإرَادَةِ كانت هذه **الصِّيغة القصَصِية**.

والذي قرَّر قالبَها الفني إنَّما هو حرصُ الكاتب على أن يُصَوِّرَ نفسَه في صورَة النابغَة الذي يتفوَّقُ بأدبه على جَميع من سبقه أو من عاصَره من نوَابغ الأدب العَربي في المشرق والمغرب، ولمَّا كان الحديثُ المبَاشر مُمِلاً، وكثيراً مَا يبْعثُ على القلق والسَّآمة، إذا طال فيه العرض والإنشادُ فقد اهتدى إلى هَذه الطريقَة التي تتمثِّل في رحلة خياليَّة إلى مَوطن الجن، حيث يتاحُ له أن يعقدَ مجالسَ أدبية

---

208 / مبارك ،زكي .النثر الفني .م.س. ج.1 /320

209/ مصطفى الشكعة:الأدب الأندلسي :موضوعاته وفنونه. دار العلم للملايين،ط/7. 1992 ص:682

مع شياطين كبارالشُّعراء والكتـَّاب، فيناظرُهم في شِعر ونثر أصحَابهم، ويحَاورهم في مسائلَ مختلفة من مسائل النقد الأدبي، ويخرج من كل مَجلس وقد قضَى حقَّ الانتصار لنفسه: الألسنة تلهج بالثناء على براعته، وهو يجر لذلك ذيول التيه والكبرياء، منتشياً من مدامة هذا الظفر" [210]

لقد كانت المُثلُ الأفلاطونيَّةُ مجسَّدةً من خلال مخاطبة التابع ،الذي يعتبرمثالا وأنموذجًا لصَاحبه الشاعرأوالكاتب:".وإذا قلنا إنَّ الأرواحَ من عالم المثل ،فمَا نريدُ به الإفراطَ على أفلاطون وأتباعه من فلاسِفة العرَب، وإنمَا نقصدُ أن أبا عَامر ألبسَ التوابع أثواب أصحَابهَا، فجاءت على غرارالمثل الأفلاطونية في بعض حدودها، وأبانت عن شخصيات الشُّعراء والكتّاب في الصِّفات والأخلاق والآداب.."[211]كما أظهرت رأي أبي عامر في الكثير من القضايا النقديَّة، والفكرية التي كانت تعالج في المنتديات في عصره، وموقفه منها..ولقد أظهر ابن شهيد براعته في استعمال السجع والغريب في اللغة ،حتى لكأنّه مألوف ومتداول لحسن التركيب ،وجودة الصياغة..ولا نعدم في القصة الجوَّ المرحَ الذي غلَّف به الكثيرمن المجالس، والدعابات التي زيَّنت اللقاءات، والسخرية التي قصدها،والتهكم الذي عناه..ولم يسبق أحدٌ ابنَ شهيدفي إيجاد تابع للناثرأو الخطيب:"..

وهذه لأول مرة أرى فيها أن العرب يعتقدون وجودَ شياطينَ للكتاب والخطبَاء ، وقد حدثنا ابن شهيد أنَّه صادفَ في أرض الجنِّ شيطان الجاحظ، وشيطان بديع الزمان، وشيطان عبد الحميد .فهل كان العرب يرون ذلك أم اختراع ابن شهيد..؟][212]

210/علي بن محمد:النثر الفني في الأندلس في القرن الخامس الهجري:مضامينه وأشكاله.دارالغرب الإسلامي بيروت.ط.1990/1 ج2.ص:562

211 /ابن شهيد.التوابع والزوابع ، تح:البستاني.م.س.،ص:76

212/ زكي مبارك: النثر الفني. م.س.ص1/:322

.هواختراع ابن شهيد دون شك .وهذا فضل له وسبق لم يعرفه أحَد قبله..وهذه الرسالة من روائع ما كُتِب في هذا العصر،في الشعرأو النثر،

وهي:"من أروع نماذج أدب الفكاهة في الأندلس"([213]) ولعلَّ هذا التوصيف لما حملته من مواقف طريفة، وحالاتٍ ظريفة ابتدعَها ابنُ شهيد وخلقَ لهَا أجْوَاءً رآها تناسبُ توجُّهه في الدفاع عن مَكَانتِه، بأشكال مِنهَا المُنَاظرة والمُحَاورَة، والمُجَادلة ذهبَ فيهَا كلَّ مَذهب، وأفرغَ مَا عندَه مِن فِكر فِي كلِّ منْ لاقاهُ، وَوَجَدَه، وزارَه من شعراءَ وخطباءَ من عصور مختلفة، و**أماكن** متعدِّدة..متبعًا فيها طريقة القص الفني من خلال الأبطال، والأحداث والفكرة، والمكان والزمان، والعقدة والحل وما تحتاجه القصة الفنية ولذلك فهي تعتبر:"في عداد التراث القصصي عند العرب.."([214])..

ويذهب صاحبُ الذخيرة إلى وصف أدب ابن شهيد وفنون الفكاهة عنده بقوله:" وله رسائل كثيرة في فنونِ الفكاهة وأنواع التعْريضِ والأهزال، قِصَارطوال، برزفيهَا شأوَهُ ،وأبقاهَا في الناس خالدَةً بعْدَهُ.." ويضيفُ متحدثًا عن أسلوبِه في ذات الفقرة :"وكان في سهولة ألفاظه و براعة أوصافه و نزاهة شمائله و خلائقه آية من آياتِ الله خالقِه"([215])

إنَّ الرسَالة تحملُ موقفَ ابن شهيد من علمَاء اللغة ،ومنْ ينصبُون أنفسَهم حمَاة لها، ويترفعُون عن كل نَقد يلحَقُهم ،أو إبداع يوجِدُه غيرهم ،ويرونَ أحقيتهم في كل ما ينتجُ بالحكم عليهِ أو لهُ ،ولا حَقَّ لسوَاهم ولو كانَ من المتقدمِين، والمشهود لهم بالبراعة والمُكنة ،وكانت السّخرية طريقته ،في الرد عليهم :"فبقدر ما يَرمي إليه ابن شهيد مِن سُخرية، إلا أن هذه السُّخرية تميلُ في مجمَلها إلى الحدّة والخشونة. وتعكسُ إحساسًا حارا بالغضَب والنقمَة ،لاعلى خصومه فحسب بل على طائفة بأكملها من المؤدبين

213/ قزيحة رياض . الفكاهة في الأدب الأندلسي:المكتبة العصرية ط.1.1998. ص:291/292

214 / مسعد محمد الديب:القصة التاريخية الإسلامية في مصر ،دراسة تحليلية نقدية مقارنة، دارالأمين، 1998 ص:32

215/ابن بسام.. الذخيرة: تح : إحسان عباس. م.س. ص: 192...

216/ فوزي عيسى .الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي .دار المعرفة القاهرة.2002.ص:23

والمشتغلين باللغة والنحو.."([216]) وعلى هذا يتَّضح جليًّا ما كان موقفه، من المشتغلين باللغة والنحو، وما هوموقفه منهم عندما يراهم يتنطعون، حتى إذا استوى مجلسهم بين الخلفاء والحكام وتنادوا إلى الرأي لم يجدوا أمرا أسهل من احتساء كؤوس، وتصعيد أنفاس ،ولم يكن لهم رأي لأنهم لم يطبعوا على ذلك بل كانوا من أصحاب الصَّنعة والنظر في ما ترك السابقون..(*)

تاريخ كتابة الرسالة :

كتب ابن شهيد رسالته التوابع والزوابع في القرن الخامس الهجري، وفي مطلعه بالضبط، على اعتبارأن الشاعر كان ملازما للأمويين، وقد ذكرالمستعين فيها، وهو الخليفة الذي بويع في مطلع القرن الخامس الهجري ولم يدم حكمه طويلا، وكان معاصرا للمعري(363هـ.449هـ)وفي هذا السِّياق يرى زكي مبارك: "ليس في أخبار ابن شهيد ذِكْرٌللسَّنَة التي وَضَعَ فيها رسالة التوابع والزوابع، غيرأن المستشرق الألماني ك/ بروكلمان(Carl Brockelmann) يزعَم أنها صُنِّفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة "([217])وفي تحقيقه ،يخلص زكي مبارك إلى:".أن نحقق في هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذي وُضعت فيه رسالة التوابع والزوابع، فلم نهتدِ ،ولكن رأينا في الرسالة نفسِها ما يدل على أنه وضعَها وهو كهل: فقد جاءَ على لسانه ما يشيرُ إلى أنَّ من إخوانه من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة" وألقى إليه على لسَان إوزَّة جنيَّة هذا السُّؤال:ما أبقت الأيام منك ؟ في هذا السؤال إشارة إلى أنه كان قد ودَّع نضارةَ الشبَابِ ."([218]) و يضيف مستندا على قرينة تاريخية :" إنه كتبَ هذه الرسالة في عهد المستعين.والمستعينُ هذا هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمان الناصر

*/ينظر الذّخيرة.ج.1ق.1.

217 / ابن شهيد.التوابع والزوابع بطرس البستاني .م.س.ص67:67

218 / مبارك زكي .النثر الفني م.س:ص: 1/318

الأموي، الذي بويع بقرطبة منتصفَ ربيع الأول سنة 400هـ.وقد بحثنا طويلا في كتب التَرَاجم الذي كتبَ فيه المعري رسالة الغفران فلم نهتدِ، ولكنَّنا وصلنا بعد التأمّل إلى تقريب التاريخ، ذلك أن رسَالة الغفران جَواب على رسالة ابن القارح، وقد عدنا إلى رسَالة ابن القارح، فدرسْناها فقرةً فقرةً حتى انتهينا إلى قوله:"وكيف أشكو مَن فاتني وعالني نِيّفا وسبعين سنة ".فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة351هـ.فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ـ 70سنة ـ وجدناه كتبَ رسالته حوالي سنة 421هـ ،وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت سنة 422هـ، وإذا قدّرنا أنَّ ابنَ القارح قال نيّفا وسبعين، وللنيّف دلالته، وقدّرنا أنَّ أبا العلاء اعتذر عن تأخيرالإجابة لأنه مستطيع بغيره، كانَ مِنَ المُمكن أن تكونَ رسالة الغفران كتبتْ بين سنتي 422هـ.و423هـ.

ونتيجةُ هذا التحقيقِ أنَّ رسالةَ الغفران كتبتْ بعد التوابع والزوابع بنحوعشرين سنة.."([219]) وفي ردِّه على الدكتورأحمد ضيف يضيف:"يتبينُ أن الدكتورَ ضيف لم يكن مصيبًا حين افترضَ أَنَّ ابنَ شهيد قلّد أبا العلاء ،وصَار منَ المرجّح أن يكونَ أبو العلاء هو الذي قلّد ابن شهيد"([220]) وهذه النتيجة بيّنت أن المَعري هو من كانَ متأثرًا برسَالة التوابع، لأنَّه كانَ يطلع على كل ما ينتجُه الأندلسِيُّون، وكان ما يُحبّر في الأندلس يَصلُ المشرقَ غير متأخّر.

ويظهرالاختلافُ من حيث المضمون كذلك ،لأَنَّ الأبطال كانوا عند المعري من الملائكة، ورحلته كانت إلى الجنة والنار، أما ابن شهَيد فلم يلجْ هَذا الجَانب مِن قريب أو بعيدٍ بل كانتْ رحلته مع تَابعِهِ الجِني زهير بن نمَير إلى (أرض الجنّ) وَكانَ يُسَمّي التابعُ بالشيْطان حِينَا وبالصَّاحبِ آخرَ، زيَادة عَلى أن الخُطبَاءَ جَعَلَ لهم توَابعَ وهذا لم يَكن في المَوروث العَربي القَديم، كماجَعَل للحَيَوَانَات مَجلسًا في أرضِ

[219] / م.س:ص ص:320.319/1
[220] /م.س.ص: 320/1.

الجِن، وجَعَل مِن الجِنّ نقادًا كذلك..ويبْدو أنَّ تَاريخَ كتابَة رسَالة الغفران قد حكم فيه الدكتور زكي مبارك بأحقية ابن شهيد وأسبقيتِه .

إنَّ المشارقة كانوا مطلعين على المنتوج الأندلسي في حينه، نتيجة الحركة والتنقل المستمرإلى المشرق من الأدباء والعلماء والفقهاء، واتصالهم بأهل الأدب وكتابه المشارقة، وكانت المخطوطات الأندلسية تصل المشرق في حينها:"كان أهل الشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية في الأندلس بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت في الشرق ودوّنها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران.."([221])

لقد أخذت رسالة التوابع والزوابع من الدارسين ما لم تأخذه رسالة أخرى أو شعر لابن شهيد في عصره وبعد عصره، بل لقد [نام ملء جفونه عن شواردها وترك الناس يسهرون جرّاها ويختصمون] على رأي المتنبي في شعره.

[221] ابن شهيد . التوابع والزوابع تح.بطرس البستاني.م.س.ص:115

المكان في رسائل ابن شهيد النثريَّة

تمهيد:

ومن رسائله النثرية التي وجدتُها في ذخيرة ابن بسام ،وفي ديوان ابن شهيد ورسائله تحقيق الدكتور محي الدين ديب ،عدا الزوابع والتوابع ،ما وجدتُه من ذكر الزمان و المكان، ويبدُو الاختلاف والتبايُن في هذا الاستعمَال واضحًا، فيكونُ كثيفًا، حينًا ويكونُ غيرَ ذلك في أحايينَ أخرى وفي بعض الرَّسائل. بل إنَّ الرسَالة الواحِدَة يطغَى فيها المَكان، ويَقلّ الزمَان أحيَانًا..

ويرجعُ هذا التبايُنُ إلى حَجْم الرِّسَالة من حيثُ الطولُ والقصرُ،ومنْ حيثُ الأهميَّة، فالتي أرسَلَها إلى المُؤتَمن ليسَت طويلة فقط بقدر مَا تحمِله مِن المَعَاني التِي تخدُم المَوضُوع الذي أرسَلت مِن أجْله، ومَوقِفُه من الأعْدَاء والخُصُوم، ومحَاولة استمَالة الأمير ونيل بغيتِه منه.. ولا نجدُ مثل هذا التكثيف عندمَا يصفُ النارَ أو البردَ أو الحطبَ وكذا البَعوض أو الجَارية.. فلم تكن الحَاجة إلى الزمَان ولا المَكان في ذلك بالقدْر الذي تحتَاجُه فقط..

وقد طغى المكانُ في رسالة التوابع والزوابع على سواها من الرسَائل النثريّة لأهمية المكان الذي يذكره حين انطلق منه بداية وهو البستان[الحائر] ليصلَ إلى التوابع في أكثر من موقع سواء كانوا شعراء من الجاهلية أو العباسيين أو الخطباء بمرج دهمان، وكذلك كان الشأن للزمان حين يتكلم عنه بطبيعة الموضوع الذي يفرضه عليه الانتقال إلى العالم الآخر وإلى زمن كل شخصية يزورها، فقد انتقل بينَ الجاهلية والأمويين والعباسيين بعدهم..وهي عصور مختلفة، وقد أفردت لهذا الأمرِ فصولا خاصة في الباب الرابع من هذه الرسالة.

وفي نثره حين يذكر المكانَ أو الزمانَ فالحَاجَة إليه للمَدح حِين يَشَاءُ، وللذّم حِينَ يتعرَّض لخصُومِه ،وعلى سبيل المِثال مَا يقوله عن دار الفرضي وهو يهجوه:"لا يصلح للأفعى مراد الرّوض، ولا ورودَ الحوض، ولا يدفعُ لؤمَ الكلب، كرمُ الصّحْب،

وإنّمَا الأخلاقُ جاريَة على الأعْرَاق..."حتى يقول:"لقد خبثَ مغرسُه عمّا حَاول، ولئِم معطسُه عمّا تناول، وهيهات ! لا تبصرُ الشمسَ العمشُ، ولا تهتدي السّبُلَ الخُفشُ..وإنّي لأخَاف عَلى سَعدك نحسَه وأحذر على يومِك أمسَه، أفقَده الله حسّه، وأورده الكنيف رمسَه، فإنّه لو جاور البَحرَ لسدّه..."(222)

<u>إحصاءُ مفردات المكان</u>(223):

1/"...كارعا في بحر الرجاء.." ص:157

2/"...أني نشأت في حجره، وربيت في قصره..."ص: 157

3/"..ومن مواتي بالناصر أبيه ـ برّد الله مضجعه، ونعّم مهجعه ـ أني صرت بين يدي المنصور في يوم مطير..." ص"158

4/فلا أنسى ذلك البهاء في ذلك البهو.."ص:158

5/".. وطار الخبر بقدومي في مقاصير العقائل، وحجرات الكرائم، فأرقلن من تلك المصانع.."ص:159

6/"وقبضه الله إليه، وقد رتع من مراتعكم، وجثم من مضاجعكم، فنحن عمار مقاصركم أحياءً، وقطان مقابركم أمواتا.."ص:159

7/:ط ومملوكك عاكف على الوطن،عكوف الراهب على الوثن.."ص:160

8/"... ووعد الأمير عباس لي بصرف ضيعة لي بجهة تدمير.."ص:160

9/ ".. استعمل أبي عبده على تلك الجهة الشرقية.."ص/160

10/"...فورد قرطبة بأربعمائة ألف دينار ناضّة.."ص:160

11/"...فاقبضها من أهراء فِلانة(224)، لقربها من مكانك..."ص161

12/"..أو جزع واديا أمدّه من أتيّه..."ص:161

13/"...أو مرّ بروض شقَّ عليه رداء ورد..ّص:161

---

222 /ابن شهيد.ديوان ابن شهيد ورسائله.تح/محي الدّين ديب.م.س.ص:179/178

223 / اعتمدت على رسائل ابن شهيد التي حققها محي الدّين ديب في كتابه:ديوان ابن شهيد ورسائله..وأمّا المكان في التوابع والزوابع فقد اعتمدت على تحقيق البستاني لوجود اختلاف بين التحقيقين.. ينظر الهامش 234.

224 / فِلانة : اسم مكان..

14/"..كتاب منع جانبه، وحمي حامله، كلّمَا خبط بطحاء كتبت بالكتائب، أو ركّبَ جرعَاء رقِّمت بالأرَاقم..."ص:162

15/"..هو الحَديقة تساقُ سوقَ الوسِيقَة..."ص:162

16/"...وقام بوهمي أني ملأت الأرض بجسمي..فأومَأت إلى الجَوزاء بكفّي أن تأمّلي، وإلى العواء أن أقبلي، وقلّت المجرة في عيني أن تكون لي منديلا، وصغُرَ الزبرقان عندي أتّخذه إكليلا..."ص:162

17/"..غاية حسنه لو لفظه بحره على قرْب، وقد كان أقل حقوق مولاي أن أقفَ ببابه، وأخيّم بفنائه.."ص:163

18/ "..لعجوز بخراء سهكة درداء تُدعى قرطبة.."ص:163

19/"...وأصل قلّة هذا الشّأن وعدم البيان، فساد الأزمنة ونبوُّ الأمكنة..."ص:165

20/"...ويستثقل بكل مكان.."ص:165

21/"...ولمّا أسندت منك إلى هضبة لا انخرام لها.."ص:165

22/"..ويتضعضع جبل العمل والعلم.." ص:166

23/"..وحلّ بساحتك من الأعلاج.."ص:166

24/"...وبالحرا أن يرقم على عتبة دكّان، أو يصوّرعلى باب حمّام.."ص:167

25/"..لأدرت بداره دائرة السّوء.."ص:167

26/"...وجعلت عاليها سافلها، امتثالا لقوله تعالى في ديار قوم لوط.."ص:167

27/":..وبِركةً لسمكات العشق..."ص:167

28/"..فلو أنها الجودي كرامة وقرية النمل عمارة..."ص:168

29/"..إلى جارتك القيروان،وأخرى إلى حبيبتك مكة بيت الرحمن.."ص:168

30/:..كان الدّبران كاتبها عليك، ترمقها الأبصار، على انتزاح الأقطار.."ص:168

31/":..لا يصلح للأفعى مراد الرّوض، ولا ورود الحوض.."ص:168

32/ "..وأورده على الكنيف رمسه، فإنّه لو جاور البحر لسدّه.."ص:169

33/".. فسرت حتى انتهيت إلى دار ذات أجوان.."ص:170

34/".. ثمّ أفضيت إلى بيت فيه عدّة أشباح.."ص:170

35/"...لرأيت أن تهديه إلى البلينة(225)ملكة البحر...وعسى أن يخرجه البحربعد حين في عنبره.."ص:173

36/"..شطرا للميدان، وشطرا للدّيوان.."ص:173

37/".وتدنِّي محالّهم على البادية. وتبوُّئهم منازل الفصاحة...وتمتدّ ألسنتهم، وينسابوا في لصاب الدّهاء، ومزاحف النّكراء.."ص:174

38/"..واتخذ ظهر الجواد بيتا.."ص:174

39/والصيد بالكسر في الرُّبَى.."ص:175

40/".. والدّار إذ ذاك صقب، والملتقى كثب.."ص:175

41/"..فنثرتنا بكل فجٍّ عميق، وأفق سحيق..."ص:176

42/"..وجاءتك المُنَى من تهامَة ونَجد، وامتطيتُ ظهر الجوزَاء وافترشتُ لبدة العواء(226).."ص:176

43/"..تترست بالثريا وطعنت بالسِّماك.."ص:176

44/"..فيه لأسد العرين نارٌ.."ص:176

45/"..ثمّ جاشَت لي كمَا يجيشُ البحرُ.."ص:177

46/لم تترك لأرض أعلامًا ولا لغيرك إنعَامًا.."ص:178

47/"..وأنا أوصِي رجلا عزيزا من أهل قرطبة.."ص:180

48/ ".. ووُضعت "رميتَ"و"متن الطّريق" وضعا مليحا.." ص:180

49/"..لكل مقام مقال..."ص:182

50/ "..ولذلك فضّل أهل البصرة صريعَ الغواني.."ص:183.

51/ "...ومجموعة من المعلمين بقرطبتنا.."ص:184

/البلينة : الحوت.[225]

/ منزل من منازل القمر.[226]/

52/".. أشدّهم صبابَة بألاَّ يكون بالأندلس محسنٌ سِواه...وكان الرّأي عندي له أن يسكن أرض جليقية أو قطرا بعُدَ عن الإسلام.."ص:186

53/"..وغنّتا بها على قوارع الطرق ومناقع المياه، ومطارح الزّبول.."ص:186

54/"..وهو أبخل أهل الأرض لا محالة.."ص:186

55/"..ولا تؤثر لهم في البلاد شاردة..."ص:188

56/ "..فإذا جمعتنا المحافل، وضمتنا المجالس.."ص:188

57/ "..وما أذكر أني فزت من هذا المجلس غير مرّة...والمجلس قد غصّ بالعمائم والطماطم (227) من أهل المصر.."ص:189

58/"قصد بيت النار ،ومورد الأبرار والفجار.."ص:190

59/"..وذهبٌ يرفُّ على أرضها.."ص:190

60/"..كان روضها وردا وحوضها شهدا.."ص:190

61/".. والشكروادٍ يسقي أرض المشكورعن كريم عمرالعجاج، وأنزع الأضواج.."(228) ص:191

62/".انصباب الكوكب الدّري من سمائه، العين كانونه، والقمرعفرينه.""ص:191

63/"...وقد أخذ بأطراف السماء.." (229)ص:87

64/ " فكلما رأى ثغرا سدّه بسهاها ،أو لمح خرقا رمّه بزباناها.."87((230)

65/"..وأخذت في رثائه في الحائر.."ص:88 / ((231)

66/ "فإذا أنا بفارس على باب المجلس.."ص:89

67/"..أَجارع من داري هوى لهواها.."ص:90 / ((232)

---

227 / الطماطم:الأعاجم من الناس.

228 /العجاج:الغبار والدّخان/الضوج :منعطف الوادي ومنحناه.

229 / اعتمدت تحقيق البستاني للرسالة في إحصاء المكان..لأنّ محي الدين ديب اختصر الرسالة في تحقيقه،ولم يثبّت بعض الفقرات والفصول ..ونبّه إلى اختلاف بين الذّخيرة واليتيمة في نص الرسالة..ينظر :"ديوان ابن شهيد ورسائله"لمحي الدين ديب ص:193الهامش الأول.

230 / الزبانى:واحد الزبانيين ،وهما كوكبان نيران..

231 / الحائر:البستان..

68/"..ويقطع الدّوّ فالدّوّ.." ص:91 الدّوّ :الفلاة

69/"..حتى التمحتُ أرْضًا لا كأرْضِنَا.."ص:91

70/" حللتَ أرض الجن أبا عامر...ص:91

71/ "...وَادٍ من الأودية،تتكسر أشجاره،وتترنم أطياره.."ص:91

72/" شجته مغانٍ من سليمى وأدؤر.."ص:92 [233]

73/" ومن قبة لا يدرك الطَّرْفُ رأسَهَا.." ص:92

74/ تكلفتُه والليلُ قد جاش بحرُهُ .." ص: 92

75/ " فجزعنا وادِيَ عتبة" ص:93

76/ "انتهينا إلى غيضة :شجرُها شجَرَان"..ص:93

77/"..فرأينا عينًا معينةً تسيل"ص:93

78/ " لسعدى بجِزَّان الشُّرَيْفِ طلول.."ص:94[234]

79/ " نشاوى على الزَّهْرَاءِ ، صرعى كأنهم..."ص:95 [235]

80/".منازلهم تبكي إليك عفاءَها.." ص:97

81/"..بدارتها الأولى نحيي فَنَاءها.."ص:97

82/"..هززتك في نصري ضحى، فكأنني..هززت، وقد جئت الجبال، حراءها..ص:97

83/"..حتى انتهيت إلى شجرةٍ غيناءَ، يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء.."ص:98

84/ " ومالذي أسكنك قعر هذه العين يا عتاب؟ص:98

85/ " يودّ الفتى منهلاً خاليا...وسعدُ المنِيَّةِ في كلّ وادٍ..ص:99

86/" وردت يفاعا وَبِيلَ المُرَادِ" ص: 100.. [236]

---

232 / أَجَارِع:جمع أجرع: وهو الكثيّب له جانب الرمل..وجانب حجارة..

233 / الأدؤر:جمع دار

234 / .. الشريف:قال صاحب القاموس إنه أعلى جبل ببلاد العرب(!!) وفي الأصل كما يرى المصحح بطرس البستاني:الشديف نقلا عن ديوان طرفة بن العبد..

235 / ويعني بالزهراء المدينة العامرة قرب قرطبة.

87/" هوى قمرَا قيس بن عيلان آنفا *** وأوحش من كلبٍ مكانُ زعيم..ص:100

88/ " فضعت بدار منهم وحريم..ص:101

89/ " فثقفتها حولا كريتا ومربَعا..ص:101 .[237]

90/ "ودير حنة بذاك الجبل.."ص:102 [238]

91/ ".. قدامه ناورد.."..ص:102 .[239]

92/" همّة في السماء تسحب ذيلا.."ص:103

93/"إلى أصل جبل حناء...من منازل أبي نواس.."ص:104

94/.. فسرنا نجتاب أدياراو كنائسَ و حاناتٍ..ص:105/104

95/"أوهل صرنا بذات الأكيراح ؟"ض:105(240)

96/" ولربّ خان قد أدرتُ بديره..."ص:106

97/" هبّ من مرقده منكسرا"..ص:108

98/" وإذا بتّ به ،في روضة ..."ص:108

99/..فتراني الدهر أجرى بالكدى..ص:108..[241]

100/"وإذا الأسد حمَت أغيالها..."ص:109.. [242]

---

236 / اليفاع : التل..وهو الموضع الذي يطلب فيه الكلأ (اللسان مادة ي.ف.ع.)

237 / الحول الكريت:السنة التامة..المربع:موضع يقيمون فيه في الربيع..وهنا بمعنى مدة الإقامة.." ثم غاص في العين"

238 / دير بظاهر الكوفة كان يزوره أبو نواس،وذكره في خمرياته..وهنا بوادي الجن مكان يأوي إليه تابع شاعر الخمريات..

239 / ناورد :كلمة فارسية،تعني مكان لعب الخيل والعروض البهلوانية

240/الأكِيراح:تصغيرأكراح،ومفردها:كِرح،وهي لفظة سريانية معناها:الكوخ الصغير،وهو مأوى الراهب ،وقد وردت اللفظة في شعر أبي نواس..ويذكره ابن شهيد نصا في الرسالة :

يادير حنة بذات الأكيراح *** من يصحُ عنك فإني لست بالصاحي؟

241 / الكدى :الأرض الصلبة الغليظة..

242 / الأغيال:العرين..

101/ثم قال:"أنشدني جحدريتك من السجن..فأنشدته..ص:109..[243]

102/"..مقيم بدار الظالمين طريد"ص:110

103/...فحلّت بواد كثير السباع..ص:111

104 /..وأمال عنان الأدهم إلى طريق..ص:111

105/ "وحلقت الخضراء في غرّ شهبها...كلجة بحر كللت باليعالل"ص:113..[244] 105/على شط واد للمجرة سائل.."ص:113

106/ "وفهم لو البرجيس جئت بحدّه..إذًا لتلقاني بنحس المقاتل"ص:114..[245]

107/ ومنها أيضا: هاتيك دارهم فقف بمعانها"ص:114 ..[246]

108/ "على مفرق البدر.."ص:114

109/جمعت لك الخطباء بمرج دهمان.."ص:115

110 /..فأفرجوا حتى صرنا مركز هالة مجلسهم.."ص:115

111/وسرنا إلى مكان خال..كوصف المهلبي:

خان تطيب لباغي النسك خلوته...وفيه ستر على الفتّاك إن فتكوا.."ص:121

112/..ووصل خورنقها بسديرها..ص:122.. [247]

113/..وألقت به في سرقسطة العصا..ص:123

114/سكان خيبر..ص:124

---

243 / الجحدرية قصيدة قالها في جحدر وهو رجل من بني جشم بن بكر كان من مخيفي السبيل بأرض اليمن فقبض عليه الحجاج وسجنه،ثم خيّره بين أن يضرب عنقه أو يرميَه إلى الأسد ..فاختار الرجل أن يعطيَه سيفا ويرميَه إلى الأسد..ففعل الحجاج، ورماه إلى أسد جائع..لكن جحدر قضى على الأسد،وأُعجِب به الحجاج وعفا عنه، وجعله من أصحابه..

244 / اليعالل : السحاب الأبيض..

245 / البرجيس:كوكب المشتري..المقاتل:يقصد به كوكب المريخ لأنه يرمز إلى الحدة والقتال..بينما المشتري يرمز إلى السعد..

246 / معانها :منزلها

247 / الخورنق..والسدير : قصران بالحيرة للنعمان..السدير :أرض في اليمن ،ونهر بناحية الحيرة(كما ورد في المنجد)

115/ "..ليس من شعر يفسر،ولا أرض تكسّر.."ص:125

116/ "..انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البَيَاتِ.." ص:128

117/نكتة بغدادية أتى لك بها يا فتى المغرب..ص:128

118/انصباب الكوكب من سمائه ، العين حانوته.."ص:128

119/"ضرب زبدة الحقب الأرض برجله،فانفرجت له عن مثل بَرهوت.ص129[248]

120/ "..وحطّ بجرعاءَ الأبارق ما حطّا.."ص:129 ..[249]

121/"فألقت على غير التلاع به مِرطا"ص:129 .. [250]

122/"ومازال يروي التّرب حتى كسا الربى...درانك، والغيطان من نسجه بسطا"ص:129..[251]

123/" تذكّر روضا من شويٍّ وباقر..."ص:130.. [252]

124/"..وحضرت أنا وزهير مجلسا من مجالس الجن.."ص:132

125/"..وكان بالحضرة فتى حسنُ البزّة"..ص:134

126/ "..فاهتزّ المجلس لقوله.."ص:134

127/ "..فقلت:جد أرضنا ،أعزّك الله،بسحابك.."ص:135

128/ "..لمّا تسامى النجم في أفقه...ولاحت الجوزاء والمرزم " ص:136 ..[253]

129/ومن قبة لا يدرك الطرفُ رأسَها...ص:137

---

248 / برهوت:بير وقيل هي واد بحضرموت..

249 / الجرعاء:الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل،أو الكثيب جانب منه رمل وآخر حجارة..الأبارق:أرض فيها رمال وحجارة وطين..

250 / التلاع :الأماكن المرتفعة،وهي كذلك مسايل المياه من الجبال والمرتفعات

251/الدرانك:الزهرالذي ينبت عن مطر/الغيطان:ج الغوط وهو المطمئن والمتسع من الأرض..الغوطة:مكان كثير الماء والشجر..

252/ الشوي : شاة.. الباقر: ج.للبقر

253 / المرزم: نجم..

130/"..إذا زاخمت منها المخارم صوبت..."ص:137..[254]]

131/ " اللهَ في أرض سُقِيتَ هواءها.."ص:141..

132/ " لو حاولت سَوْقَ الثريّا ساقها.."ص:141

133/ "الملحفين رداء الشمس مجدهم...والمنعلين الثريّا أخمص القدم.."ص:143

134/ " وما فتئت تلك الدياتر حبائبا...لنا ، قبل أن نلقى بهن حبيبا.." ص:145

135/ : ومشيت يوما أنا وزهيربأرض الجنّ.."ص:147

136/ "..إذ أشرفنا على قرارة غنّاء،تفترّ على بركة ماء.."ص:147

137/ "..وكانت في البركة بقربنا إوزّة..."ص:149

138/ "فاتخذتها السادة بأرضنا.."ص:150

139 / " وأنا الذي استرجعتها إلى الوطن المألوف.."ص:150

254 / المخارم : رؤوس الجبال ،ويقصد هنا أعالي الخيمة..

إحصاء مفردة الزمان

من رسالة له مطوّلة إلى المؤتمن [255]

1/"ولولا أن التطويل فيما أقصدقصده،وأنحونحوه على زمننا وشاغله..."ص:156

2/ ".. نكب عن طريق أهل الدّنيا..وأقلق حادثة سلبت رونق بهجتي وأنا ذاك ابن ثمان .." ص:157

3/ ".. يوم مطير وأنا ابن خمس.أذكر ذلك ذكري لما كان بالأمس.." ص: 158

4/ "..أنه وهبني يوما تفاحة، كانت بين يديه ، كبيرة.." ص" 158

5/"..والدّرق قشور من خشب، فيومي مذكور في منية المغيرة إلى الآن، إذ كان مسكننا بدار ابن النعمان.." ص"159

6/"جمعنا بذلك عشرة العاجلة والآجلة، وحصلنا على صحبتي الدّنيا والآخرة.ص 159

7/ " ولم يبقَ من النعمة غيرُ مصاصة بلّة قد آن لها أن ترتشف، وتفاهة ثمرة حان لها أن تخترف.."ص:160

8/"..فلولا همّتها لأظلم الدّهر.." ص:160

9/"..استعمل أبي عَبْدَه على تلك الجهة الشرقية تسعة أعوام توالت بتُدمير وبلنسية.." ص:160

10/: " ونفقة أبي رأس كلّ شهر سبعون مُديا من القمح.."ص:160

11/ :"..تستظهر بهما على زمانك..."ص:161

12/متكسرا في المشية، جاليا لليل الشّك والمريّة..."ص:161

13/"...وهزّتني أريحيات الشباب.." ص:162

14/"..وبما صدر في أيام الشّباب.."ص:164

15/ وأصل قلّة هذا الشّأن وعدم البيان، فساد الأزمنة ونبوُّ الأمكنة..." ص:165

16/"كفى بذاك إنحاء على الزّمن.." ص:165

[255] / ينظر ديوان ابن شهيد ورسائله..تح.محي الدين ديب.ص:156وما بعدها..الذخيرة تح.إحسان عباس .ق.1.م.1.

17/"..ولولا أن المؤتمن نجم من تلك الأنجم، ودوحة من تلك الدّوحة القديمة ، أمسك على الدّنيا عينها.." ص:165

18/ "...وتغلب الدنيا الدّين..ويسطو الشكّ باليقين.." ص:166

19/"...ولقد سألني أبو جعفرأن ينفرد ذات يوم بأكبر وزيرين عندنا..."ص:167

20/"..وأخاف عليك عاديته، وأتقي على أيامك بادرته.."ص:168

21/"...وأحذر على يومك أمسه.."ص:169

22/"..وإن كلفته تطويله وسجعه :صحبته منذ أعوام،أيام اختلافنا إلى الزاهرة.." ص:169

23/"..وصار في ذلك وضح النهار.."ص:170

24/"..وقصدته يوما على جهل بتلك الخليقة منه.."ص:170

25/"..معاملة عاملني بها أيام حرب المدينة..."ص:171

26/"..ثمّ اشتدّت وطأة هذا الخبيث أيام المستظهر..."ص:172

27/". وقسّم ليله نصفين: نصفا للتلاوة، ونصفا للسياسة، ويومه شطرين: شطرا للميدان، وشطرا للدّيوان.."..ص:. 173

28/"..يمشي في الهجير، ويسري في الزمهرير، ويحنّ إلى الأذان والتكبير.." ص:174

29/"..ومن سارت به الأيام سار.."ص:175

30/ "..وَتَمْخُضُنا الأيَّامُ مخضا، وتركض بنا الليالي ركضا.."ص:175

31/"..وثاربه كمد ساكن، بعتب على زمن...والزمان.."ص:175

32/ "..ثمّ ألقت الأيام علينا بكلكل.."ص:176.

33/ "..وضح الصّبح لذي عينين.."ص:176.

34/ "..ويضربني بغيري من أهل زمانه.."ص:177.

35/ "..لابدّ أن توفى الرجال مقاديرها في أزمانها.."ص:177

36/ "..لأقطعنّ حبالك هاجرا، ولأتركنّ ليلك ساهرا.."ص:178

37/ " قنع منّا بعشرين درهما في رأس كل شهر.."ص:179

38/ "..جلس إليّ يوما يوسف بن إسحاق..."ص:180

39/ " وكذلك لكل عصر بيان، ولكل دهر كلام.."ص:182

40/"..ألا ترى أنّ الزمان لمّا دار كيف أحال بعض الرّسم...؟ثمّ دارالزمان دورانا..ثمّ دار الزمان فاعترى.."ص"183

41/"...وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصّنعة بانتقال الزمان، وطلب كل ذي عصرما يجوزفيه..فكل شعرلا يكون اليوم تجنيسا،أو مايشبهه تمجّه الأذان.."ص:183

42/"..فذلك الألسن يوم حرب الكلام.."ص:184

43/ وبذلك يصاحب الأيام ويجاري أبناء الزّمان...وسياسة يسوس بها فحول زمانه.."ص:184

44/"...ذُكِرَ يوما عند أبي القاسم بن سهل والجاحظ..."ص187

45/"..إن كان واحدَ البلاغة في عصره.."ص:187

46/"..فإذا جمعتنا المحافل، وضمتنا المجالس أو في مجالس الملوك عند أُنْسِها وراحتها.."ص:188

47/ "..صبّحَتنا اليوم خيل البرد مغيرة..."ص:189

48/:..لقد تلقينا اليوم برد شاكرك بنوع ومشى إليه بروع، وكان بالأمس بردا أجحفَ ..قصد بيت النار..."ص:190

49/"...فذكر ما خاطبك به أمس في المعنى الذي كلفته.."ص:190

50/"كنت أيام كتاب الهجاء"ص:194

51/"وكان لي أوائل صبوتي هوًى اشتدّبه كلفي.."ص:194

52/"..وأخذت في رثائه يوما بالحائر..."ص:194

53/إذا جرت الافواه يوما بذكرها...ّص:195

54/"..وتحادثنا حينا .."ص:195

55/"...تذاكرت يوما مع زهير بن نمير أخبار الشعراء..."ص:195

56/ وطار عني كلمح بالبصر..."ص:196

57/ "...ويوم دارة جلجل..."ص:196

58/"..فبخولة وما قطعت من ليلة..."ص:157

59/"..فركضنا ذات اليمين حينا..."ص:197

60/"...وأقسم إن لم تُجِد ليكوننَّ يوم شرٍّ"ص:198

61/"...أصاب المنايا حادثي وقديمي..:ص:199

62/"..فإذا أكملت فجمام ثلاثة لا أقلَّ.."ص199[256]

63/ "..فثقّفتُها حولا كريتا ومَربَعا..."ص:199

64/ "..وما أنت الا محسن على إساءة زمانك.."ص:199

65/"..هو بدير حنّة منذ أشهر..."ص:199

66/"...فإذا بيننا وبينه فراسخ، فركضنا ساعة..."ص:199

67/"...فكأنما غشيَ وجهَ أبي الطّبع قطعة من الليل..."ص"200

68/"..إنّه لفي شرب الخمرة منذ عشرة.."ص:201([257])

69/ "..فركضنا حينا طاعنين في مطلع الشّمس..."ص:205

70/"..ودهيتُ بغباوة أهل الزمان.."ص:206

71/"...الزمان دفْء لا قرّ،والكلام عراقيّ لا شاميٌّ.."ص:207

72/"..وما أرقني إلا ليلة أُضحيانة دخلت فيها الجامع.."ص:207([258])

73/ "..كأنّه عصير صبّاح، أو ذوّب قمر ليّاح..."ص:214

---

[256] /جمام ثلاث :أي فراحة ثلاثة أيام

[257] /عشرة أيام..

[258] /مطلع هذه الرسالة ورد باختلاف بين اليتيمة والذّخيرة،ولم يورده البستاني في تحقيقه..ينظر اليتيمة49.47/2 والذّخيرة:ق1.م.1./. 273.270.....والبستاني ص:123.119

74/"...واختلط كلامه، وبدا منه ساعتئذٍ بـَواد في خطابه.."ص:214

75/"..والليل قد جاش بحرُه..."ص:218

76/"...ولم أنسَ بالناووس أيامنا الأُلى..."ص:219

77/"...وإنّما أنا نفّاخ عندك منذ اليوم..."ص:219

78/"...لا تبكينَّ من الليالي أنّهاحرمتك.."ص:220

79/"...ولربّ ليل للهموم تهدّلت أستاره..."ص:220

80/"...شكوت إليك صروف الزّمان..فلم تعدُ أن كنت عون الزّمان.."ص:221

81/"...ومشيت يوما أنا وزهير بأرض الجنّ أيضا نتقرى الفوائد..."ص:222

82/"...فتباكينا طويلا،وأخذنا في ذكر أيامنا،فقالت: ما أبقت الأم منك؟..."ص:223

83/"...سقاهم الله سبَل العهد، وإن حالوا عن العهْد، ونسوا أيام الودّ..."ص:224

الباب الثالث: الأبعاد الفلسفية لمفهومي المكان والزمن

الفصل الأول:

المكان والمفهوم الفلسفي:.....105

تعريفُ علمَاء الغرب للمَكان:.....113

الفصل الثاني:

- **الزمان والمفهوم الفلسفي:**.....116.

الفصل الثالث:

- **عناية أدباء الأندلس بالمكان **128

- **عناية الأندلسيين بالزمن:.....148**

الفصل الرابع:

- **علم الدّلالة بين المفهوم والتطبيق:**.....151

الأبعاد الفلسفية لمفهومي المكان والزمان:

المكان والمفهوم الفلسفي:

مفهومه: إنه المفتاح حين نريد قراءة نصّ قراءة نخترق من خلالها محتوياته وعناصره، فليس هناك نصّ يخلو من مكان وإن كانَ متخيّلا، فهو ليس:"عاملا طارئا في حياة الكائن الإنساني، وإنّما معطى سيميوطيقي، والمكان يتغلغل عميقا في الكائن الإنساني، حافرا مسارات وأخاديد غائرة مستويات الذات المختلفة، ليصبحَ جزءًا صميميا منها، فالمكان هو الفسحة التي تحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم.."([259]).ولأننا في تفاعل مستمر، فقد أصبح التأثير مرتبطا ارتباطا وثيقا يؤرّخ لحادثة الزمن مرتبطة بحادثة المكان: " فالمكان يعني بدْءُ تدوين التاريخ الإنساني، ويعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش، للوجود، لفهم الحقائق الصغيرة، لبناء الرُّوح، للتراكيب المعقّدة والخَفيَّة، لصيَاغة المشروع الإنسَانِي ضمنَ الأفعال المُبْهَمَة.."([260])

ما هو حدُّ المكان اللغوي ؟

والمكان لغة:"الموضع الثابت المحسوس القابل للإدراك، الحاوي للشيء المستقر، وهو متنوع شكلا وحجما ومساحة، إن الأمكنة شكل من أشكال الواقع"([261]).

وجاء في لسان العرب"(المكان : الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع. قال ثعلب : يبطل أن يكون(مكان) فعالا، لأن العرب تقول : كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك، فقد دل هذا على أنه مصدر من (كان) أوموضع منه "([262])

---

259 /خالد حسين حسين.شعرية المكان في الرواية الجديدة الرياض مؤسسة اليمامة ط.1. 2000.ص: 60

260 /ياسين النصير.إشكالية المكان في النص الأدبي.دراسات نقدية بغداد.دار الشؤون الثقافية العامة.وزارة الثقافة والإعلام ط.1.1986.ص: 395

261/ أيوب بن موسى النصيري:الكفوي،الكليات،معجم في المصطلحات والفروق اللغوية.تر/عدنان درويش ومحمد المصري،دمشق وزارة الثقافة .1981.ج.2 ص:223

262 / ابن منظور. لسان العرب ، تح.وتصحيح.أمين محمد عبدالوهاب، محمد الصادق العبيدي،(ط 3)دار إحياء التراث العربي

وقال الزبيدي "المكان،الموضع الحَاوي للشيءِ، وعندَ بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاو ومحويٍّ، وذلك لكون الجسم الحاوي محيطًا بالمحوي، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين،وليس بالمعروف في اللغة " (263)وعند ابن دريد " المكا: مكان الإنسان وغيره والجمع أمكنة،ولفلان مكانة عند السلطان أي منزلة "(264)

ويورد الجرجاني آراء الحكماء والمتكلمين في(المكان) فيقول":المكان عند الحكماء هو السَّطح البَاطن من الجِسم الحَاوي المَمَاس الظاهر للسَّطح من الجِسْم المَحويّ، وعند المتكلِمين هو الفرَاغ المتوهَّم الذي يشغله الجِسم وينفذ فيه أبعَاده)"(265)

ثم يقسم المكان إلى قسمين : مكان مبهم، ومكان معين. فالمكان المبهم: " عبارة عن مكان له اسمُ تسميته به بسبَب أمْرٍ غير داخل في مسمَّاه كالخَلف، فإن تسْمِيَة ذلك المكان بالخلف إنما هو بسبب كون الخلف في جهة ،وهو غير داخل في مسماه، والمكان المعين هوعبارة عن مكان له اسم تسميته به بسبب أمر داخل في مسماه، كالدار، فإن تسميتها بسبب الحائط ،والسقف وغيرها، وكلُّها داخلة في مسمَّاه "([266])

وبناءً على هذه التعريفات العديدَة للمكان، فإننا نَصل إلى أنَّ المفهوم المتعارف عليه للتعريف:"اللغوي يَرى أن للمَكان حدًا واحدًا، وهو(الحاوي)، أو(الكائن) سواء أكان

مؤسسة التاريخ العربي بيروت – لبنان 1419 هـ - 1999 م (، مادة : مكن)

263 / محمد مرتضى الزبيدي. تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق د.حسين نصار(مطبعة حكومةالكويت 1394 هـ - 1974 م (، مادة) مكن

264 / أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي جمهرة اللغة ، ط 1 دار الباز 1345 هـ. ص: 103/1

265 / على بن محمد الجرجاني التعريفات :، طبعه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، ط 1. دار الكتب .العلمية، بيروت – لبنان 1403هـ - 1982 م، : 227

266 / م.نفسه. ص: 227

مدركًا بالحَواس أم بالتَّصوُّر الذهني.."[267] كما أن الفَاعل في المَكان أصبحَ هو المنتج الأول والمستهلك لهذا الفضاء من خلال التفاعل بين الطرفين، وهو ما يراه دارسو السيميائيات المكانية من خلال إنتاج الإنسان لعلاقات جديدة:"..واستعمل المكان (مصطلحا في السيميائيات) كموضوع تام يشمل عناصرَ غير مستقرّة انطلاقا من انتشارها، ويهتمّ بالفاعل كمنتج ومستهلك للفضاء، بفضل تدخّل الانسان في إنتاج علاقات جديدة.."[268]

وقد اعتنى القرآن بالمكان عناية لم تكن في غيره من كتب البشر،ولا ثقافات الأمم السابقة أواللاحقة..فقد ورد بمعان كثيرة في سياقات مختلفة ومنها ما ورد بمعنى الموضع أو المستقركما في قوله تعالى:"﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها **مكانا** شرقيا..﴾(مريم16)وجاءت كذلك بمعنى المنزلة، كقوله تعالى:"﴿ورفعناه **مكانا** عليّا﴾ (مريم57)وجاء بمعنى البدل أوالعوض كما في قوله تعالى:"(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف78)

والفلاسفة المسلمون عرّفوه على أنه:"السَّطح الباطن للجسم الحاوي المماس للسّطح الظاهر للجسم المحوي.."[269]. ويرى الكِندي أن المكان لا يمكن إنكاره أبدا وهو موجود وعرّفه بأنه :"التقاء أفقَي المحيط والمُحاط به.."[270].وابن الهيثم ينظر إلى المكان نظرة أبعاد فيقول مقالة من يرى ذلك:"..إنّ المكان هو الأبعاد.."[271]

لم يخلُ عمل أدبي قديمًا أوحديثا من خاصيَّةِ المكان، كمُكوّن أسَاس، لا تتواجَدُ بقيَّة العَناصِر بدونِهِ، فلا أثرَ لأيّ حدثٍ خارج المَكان أو الزَّمن.

267/ هيلة عبد الرحمن المنيع . أبعاد المكان في شاعرية المرأة العربية المعاصرة ، ، رسالة دكتوراه (كلية التربية للبنات) بالرياض 1424هـ . ص 4–

268 /سعيد علوش.معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. دار الكتاب اللبناني1985.بيروت[د.ط] ص:164
269/عبد الرحمن بدوي.موسوعة الفلسفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.بيروت.ج1. الطبعة الأولى 1984 .ص:461/2
270 / .الكندي .رسائل الكندي الفلسفية /تح.محمد هادي أبو ريدة طبعة القاهرة1953.. ج.26/2
271 / نعمة محمد ابراهيم.نظرية المكان في فلسفة ابن الهيثم.مجلة أداء المستنصرية،ع . 1985/12.ص:526

وتبقى علاقة الإنسان بالمَكان علاقة ذات تأثُّرٍ متبادل، فلا يبقى بعيدا عن مخلفات ومكونات المكان وما يمكن أن تفعله به، كما لا يمكن للمكان أن يكون بمعزل عن تأثيرالإنسان فيه من حيثُ التَّعديل والتغييرُ: إنْ عَلى المُسْتوَى المَادي كالتأثِيرفي الأبْعَاد والأشكال، أوْ التَّغيير فِي المكوّن كمَا هو شأن المكان في البيئة الجاهلية من حيث الأطلال ،وما يتركه الراحلون فيه، من بعرالأرام، أوالأثافي أوالرماد الكامِن بينها، أوبقايا أخرى تدلُّ عليهم.:"علاقة الإنسَان بالمكان علاقة تأثير متبادل، فالإنسان يمارسُ فاعليته في المكان، بل ويغيّرُ من طبيعته في كثير من الأحيان، ثم يعود المكان فيمارس تأثيره على الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل.([272]) فعلاقة الإنسان بالمكان"...علاقة لغوية متولدة تتمتع بخصوصيتها من السياق والموضوع داخل النص.."([273])والإنسان هذا هو الإنسان الفاعل والمؤثّر،والمنتج للنص الإبداعي المجسَّدُ فيه المكان تجسيدا إبداعيا تظهر علاقته به من خلال سياقات ومواضيع في متن النص.

وليس من المعقول أن نعتقد انفصال الإنسان عن المكان الذي يشغله:"فمن الوهم إذن الاعتقاد بانفصال المكان عن تأثير الإنسان القاطن به أو العابر له, ذلك أن علاقة التأثير والتأثر بين المكان والإنسان تتوثق من خلال الدور الذي يلعبه كل منهما إزاء الآخر; فالمكان يكشف عن شخصية الإنسان، بينما يعطي الأخير للمكان قيمته من خلال تجربته فيه.." ([274]).

وكما أنَّ المكانَ:"سلسلة من الأنماط الشيئية المتوزعة التي تحتل حيزًا، ولها أبعادُها وخصائصُها المادية ففهمُ المكان قائمٌ أوَّلا عَلى الخبرةِ والتجربَةِ، أنْ نفهم المكان يعني أن نجرِّبه، وبذلك يصبحُ المكانُ إطارًا للأشيَاءِ، ينطوي عليهَا ويبرزُها

---

[272] / محمد السيد إسماعيل. بناء ((فضاء المكان)) في القصة العربية القصيرة ، نقد ، / دولة الإمارات العربية المتحدة ، حكومة الشارقة ، دائرة الثقافة والإعلام 2002 م ، ص 87

[273] / مدحت الجيار. جماليات المكان في مسرح صلاح عبدالصبور, »ألف« مجلة البلاغة المقارنة, القاهرة, الجامعة الأمريكية, ع6, ربيع 1986م, ص40.

[274] / آسية البوعلي. أهمية المكان في النص الروائي • مجلة نزوى مجلة فصلية ثقافية.عدد.30.أفريل 2002. عُمان

ويصبحُ التعبيرُ مكانيًا تعبيرًا عن خصائص الموضوعَات المادية المحيطةِ بنا التي سُرعانَ ما تتكوَّن صِلاتنَا بها."([275]) .

فقد وجد السَّابقون ارتباطا وثيقا بين الشاعر والمكان من حيث تفاعله معه، وتبادله خاصية التأثُّر والتأثير،كما سبق ذكره،فقد سمى المكوِّنَ الأساس في القصيدة الشعرية "بيتا" كأنه يذكره بالمكان الآمن، والحيز الأسري الذي نشأ فيه، وكان هذا :" سواء فيما يتَّصل ببناء البيت الشعري، أم بالصورة الفنية ، أم بالغربة المكانية المتحقّقة في بكاء المنازل والديار،والوقوف على الأطلال وشعر الغربة والحنين.."([276]) وقد كانت البيئة مؤثرة في الشاعر،من ذالك ما يراه الجاحظ في الحيوان من أنَّ للبيئة :" أثرا في قلَّة الشعر وكثرته.."([277]) .

كما يحلّ المكان بالنفس حلولا لافكاك منه، ويقبع في ذاكرتنا كمكان أليف ارتبطنا به، وعشنا فيه :" إن المكانَ المرتبط بالتداعي النفسي هو المكان الذي يقبع في الذاكرة، وذلك أن المكان الأليف الذي عشنا فيه بيت الطفولة نبقى دائما نستعيد ذكراه حتى وإن ابتعدنا عنه.."([278]) .

كما كان الاهتمام بالمكان من خلال الرسائل التي كتبها الأدباء في مواضيع ذات علاقة مثل: الحنين إلى البلدان والأوطان كرسالة الجاحظ في هذا المجال: الحنين إلى الأوطان" وكذلك كتاب أسامة منقذ:"المنازل والدِّيار"وكتاب: "أدب الغرباء" للأصفهاني. وهذه المؤلفات دليلُ اهتمَام عَربيٍّ قدِيم بالمَكان والحَدِيث عن تأثيره في الشاعِر، ولعلي أذكر هنا ما قاله حَازم القرطاجني عن الأماكن المألوفة للدلالة على حالة الوَجد والحَنين التي تَمتلك الشاعر إلى أول منزل، إذ يقول:"..لمَّا كان أحقُّ

275/ طاهر عبد مسلم .عبقرية الصورة والمكان: .دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان / الأردن 2002 م ص 16

276/هيلة عبد الرحمن المنيع. أبعاد المكان في شاعرية المرأة العربية المعاصرة ،م.س. ص6

277/ أبو عثمان الجاحظ .الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى ط 1 .(د.ت) 38/4

278 / ابن السايح الأخضر/جماليات المكان القسنطيني.قراءة في رواية ذاكرة الجسد .منشورات دار الأديب وهران.2007.ص:**13**

البواعث بأنْ يكونَ هو السَّببُ الأوَّلُ الدَّاعي إلى قول الشعر،هو الوجدُ والاشتياقُ والحنينُ إلى المنازل المألوفة وإلافِها عند فراقها.

وتذكَّرَ عهودَها بعضُ السَّابقين بوضع كُتُب أو رسَائل عن عَلاقة الشاعر وعهودهم الحميدَة فيها، وكأنَّ الشاعرَ يُريد أن يُبْقِي ذكرًا، أويَصُوغ مقالا يخيل فيهِ حَال أحبَابه ويقيمُ المَعَانيَ المُحَاكية لهم في الأذهان مقامَ صُورهم وهيْآتهم، ويحاكي فيه جميعَ أمورهم حتى يجعل المَعَانيَ أمثلةً لهم ولأحوالهم، أحبوا أن يجعلوا الأقاويل التي يودعونها المعاني المتخيلة لأحبابهم المقيمة في الأذهان صورًا هي أمثلة لهم ولأحوالهم، مرتبَّة ترتيبًا ينزل من جهة موقعه من السمع منزلة ترتيب أحويتهم وبيوتهم، ويوجد في وضع تلك بالنسبة إلى ما يدركه السَّمع شبه من وضع هذه بالنسبة إلى ما يدركُه البَصر."(279).

فما من شكٍّ أنَّ الإنسَانَ يعيشُ في عالم يتَّصفُ بمكوّنين أسَاسيَين هما: الزمَان والمكان، يحيَا فيهمَا وينمو ويعيشُ حياتَه التي قدَّرها الله له.

ولأن المكانَ أقدمُ منَ الإنسَان، قال تعالى:﴿"وإذقال ربُّك للمَلائكة إنّي جَاعِلٌ في الأرضِ خليفةً"﴾ [البقرة.30.] فإنَّ هذا(الخليفة)لا يتحركُ في المَكان(الأرض) خارج الزمَن ولا يحيَا إلا مُصَارعًا من أجلِ البقاء فيشكل المكانَ حسبَ حاجاته، ويتنقل فيه حسبَ متطلبات العيش وما تمليه عليه ثقافته. وبما أنهما متلازمان في ثنائية: الإنسان/الخليفة، من جهة، والمكان/الأرض ،من جهة أخرى، فإن حركة الزمان ليست كالمكان المعروف بالثبات والقرار وهو لذلك يُدرَكُ بالحواس:"المكان صُورة أولية ترجع إلى قوَّة الحَسَاسيَّة الظاهرة التي تشمُل حواسَنا الخمس" (280).ولا يستطيع الإنسانُ

279/ أبو الحسن حازم القرطاجني. منهاج البلغاء وسراج الأدباء تقديم وتح/ محمد الحبيب الخوجة دارالكتب الشرقية.ص:249

280 / يوسف كرم. تاريخ الفلسفة الحديثة, ط 5, القاهرة, دار المعارف, 1986م, :ص:222

أن يعيدَه إذا مضَى، لأنهَا خاصيَّة يمتازُ بها دون غيره:"..ومن بين خصائص الزمان عدم قابلية الإعادة.."(281)

وقد نشأت علاقة وطيدة بين الإنسان والمكان، فانتمى إليه بكل جوارحه، ودافع عنه واستبسل دونه، واستشهد من أجله، حتى:" أصبح المكان واحدًا من القضَايَا التي يخترقها الإنسان بالبحث بغية التعمُّق في هذا المَحسُوس، وتمَام إدرَاكه" (282)

ونتيجة اهتمام الانسان منذ القديم بالمكان فقد تنوَّعت الدراسَاتُ حوله، ووُجِد علم خاص به يُعرف بالطوبوغرافيا، الذي عني بدراسَة:" ..أخصّ خصائص المَكان من حيث هو مَكان، أي العَلاقات المكانية المختلفة كعلاقة الجزء بالكل، وعلاقات الإندماج والانفصال والاتصال التي تعطينا الشَّكلَ الثابتَ للمكان الذي لايتغيَّرُ بتغيُّر المَسَافات والمِسَاحَات والأحجَام"(283)

كمَا أعطِيَ المكانُ بعدًا فلسفيًّا، فأصبحَ:"هو مَا يحِل فيه الشَّيء أو مَا يحْوي ذلك الشيءَ ويحدُّه ويفصله عن باقي الأشيَاء"(284). وتَمَّ تقسيمُ المَكان إلى المَكان التصوُّري، والمَكان الإدراكي الحِسّي، والمَكان الفيزيَائي، والمَكان المُطلق وفي الدراسَات الأدبيَّة المهتمَّة بالمكان، فقد أنتجتْ مجموعة من المصطلحات الخاصَّة بها مثل:"المكان

281/ بنروبي .ج.(j.benrobi)مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا.تر/ عبد الرحمن بدوي.المؤسسة العربية للطباعة والنشر.بيروت (ب.ت)ط.2.:.397
282 / مصطفى الضبع.استراتيجية المكان. م.س:ص:60
283 / يمنى طريف الخولي. إشكالية الزمان في الفلسفة والعلم, "ألف" مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة، الجامعة الأمريكية، ع9, 1989م،ص :13
284 / مصطفى الضبع. استراتيجية المكان ..مرجع سابق, ص:60

الروائي، الفضاء، الفضاء الجغرافي، الفضاء الدَّلالي، الفضاءُ النَّصي والفضاء بوصفه منظورا..."[285] ولهذا فالمكانُ يشكل عنصرًا مهمًّا في الفنون الأدبيَّة لاتُنْسَجُ العَمَليةُ الفنيَّةُ في غيابِه، ولا تنتجُ النصوصُ الإبداعيَّةُ بدونه. وعبقريَّةُ الأديب أو الروائي وقدرته هِي المتصرِّفة في المَكان الفيزيَائي تصرفًا تجعَلنا: "نقفُ على الصُّور"الطوبوغرافية" للمكان ،والتي تخبرنا عن مظهره الخارجي"(286).

وتعتبرُ ظاهرة الوقوفِ على الأطلال في القَصيدَة الجاهلية الأنموذج الأمثل لمعرفة العلاقة الحميمَة التي نشأتْ بينَ الإنسَان في صُورة الشَّاعر، وبينَ المَكان من خلال تَواجد الأحبَّة فيه أومغادرتهم له، وكانَت كل عَنَاصر الطلل تُوحِي بهَذِه العَلاقة وتشيرُ إليه. فَهَذا يتسَاءَل:

هل غَادرَ الشعراءُ من مُتردّم***أم هل عرفتِ الدّارَ بعد توهّم ؟

والآخر يبكي :

قفا نبكِ من ذكرَى حَبيبٍ ومَنزلِ***بسقطِ اللوَى بينَ الدّخُول فحَوْمَل

وثالث يصفُ:

لخولةَ أطلالُ بِبَرْقَة ثَهْمَد***تلوحُ كبَاقِي الوَشم فِي ظاهِرِ اليَد

285 /يمني طريف الخولي . إشكالية الزمان في الفلسفة والعلم. مرجع سابق .ص:13

286/ حسن بحراوي. بنية الشكل الروائي: الفضاء - الزمن - الشخصية, ط1,الدار البيضاء,المركز الثقافي العربي،1990م, ص60

وهكذا..فالحَالة النفسيَّةُ للشاعِرهي التي شكّلت المكانَ،وعبّرتْ عن مكوّناته التي بلغتنا وعلمنَاها منه هو ،ولا ندري أصحَيحَةٌ هي أم لا.لأنَّنا في غنًى عَن رَفْضِها، أو الدّخول في شكوك عن حقيقتها.:"..فالمكان يتشكل دائمًا ويتلوَّنُ وفق الحالة النفسيَّة.."[287]

إنّ حادثة المَكان تمكّنت من صَاحبها تمكُّنًا لم يستطعْ منها فكاكًا، ولم ينجُ منها ناجٍ ، ليسَ لأهميتها في تشكيله، بل لأنَّها العنصر الأسَاس في حركته والتعبير عن وجوده. لم يحدثنا التاريخُ في صورته الزمنية عن حَادثة خارجَ المكان، وليسَ من الأفعال ما يستقيمُ إنجازُه وراءَ هذا الحيّز، إنّ هذا الـ(وراء) مكانٌ لا يعدمُ حادثةً .

تَعريفُ علمَاء الغرب للمَكان

ليس هناك اتفاق منذ القدم بين علماء البشرية ومفكريها حول مفهوم المكان فلسفيًّا، فأفلاطون(Platon) يرى أنه :"الخلاء المطلق"[288]. والمكان "...هوالمسَافة الممتدّة والمتناهيَّة لمتناهي الجسم"[289].وبهذا المفهوم فهو غير مستقل عن الأشياء المحيطة به أو الكائنة فيه، بينما يرى أرسطو أن المكان:" موجود مادمنا نشغله ونتحيزفيه، وكذلك يمكن إدراكه عن طريق الحركة التي أبرزها حركة النقلة من مكان إلى آخر، والمكان لا يفسد بفساد الأجساد.."[290]. وهذا يحدّد وجود المكان وعدم القدرة على نفيه لأننا ببساطة نشغله ومتواجدون في حيّزه، بحيث يتأكّد هذا الإدراك للوجود عن طريق حركتنا من نقطة إلى نقطة.

---

[287] / على الشرع. ابن خفاجة وتشكيل النص .مجلة دراسات مج(18 ،ع 3 ،عمادة البحث العلمي ،الجامعة الأردنية ،عمان ، ص 194

[288]/عبد الرحمن بدوي.موسوعة الفلسفة.م.س.ص:169/1

[289] /حسين مجيد الربيعي.نظرية المكان في فلسفة ابن سينا.بغداد دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والإعلام ط.1. 1987.ص:27

[290]/م.نفسه.ص:48

بل إن المكان موجود في الذّاكرة ،وموجود حيثُ ننْأَى أو نأوِي، وحيث تُحِيلنا مؤثراتٌ خارجيَّة لها أصُولها وجُذورُها في اللاوَعي "..سمات المأوى التي تبلغُ حدا من البساطة ، ومن التجذر العميق في اللاوعي ، يجعلها تُستعاد بمجرد ذكرها أكثر مما تستعاد من خلال الوصف الدقيق لها)" [291]

يرى نيوتن.(Newton. I) أن هناك أكثر من مكان منها المطلق ومنها النسبي:"إنّ المكان المطلق وفي حقيقته الخاصّة به، يبقى دائما مشابها لنفسه وثابتا غير متحرك، أما المَكانُ النسبي فهو بُعْدٌ متحرّكٌ أو وِساطة للأماكن المطلقة، التي تحدّدها حواسنا بواسطة وضعها بالنسبة إلى الأجسام ويُعدّ مكانا ثانيًّا غيرمتحرك.."[292].

بينما يرى الفيلسوف الألماني ليبينـز(Leibniz.W.G) أنَّ المكان ليس فيه المطلق بل هو ذهني في ذاته ولايمكن أن يوجد خارج العالم المادي:" المكانُ ليس مطلقا ولا يمكن أن يكون جوهرا، بل هو علاقة(relation) .والمكانُ بوصْفة علاقة هو نظام وترتيبُ الوجودِ معًا أيْ هو نظام الظواهر الموجُودة معًا...بمعنى أنه لا يوجد مكان واقعي خارج العالم المادي، والمكان هوفي حدّ ذاته أمر ذهني.."[293] بينما يرى عالم الاجتماع الحديث دوركايم (Durkheim.É)إنَّ المكان نسبي..[294].ويذهب علماء الهندسة إلى تحديد الأبعاد الثلاثة للمكان ورأوا:"إنَّ أجزاء المكان مطابقة بعضها لبعض،بحيث يمكنك أن تنشيء فيه أشكالا متشابهة على جميع المقاييس.."[295]. وتذكر موسوعة لالاند أن المكان وسط مثالي يتميّزبظاهرية أجزائه، تتمركز فيه مداركنا وهو يشمل كل الفضاءات المتناهية..[296].

---

291 / غاستون باشلار: جماليات المكان ، ترجمة : غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، م.س.ص 42

292/ عبد الرحمن بدوي موسوعة الفلسفة.م.س.ص:462/2

293 /.م.س.ص:462/2

294 / انظر محمد علي عبد المعطي.قضايا الفلسفة العامة ومباحثها .دار المعرفة الجامعية الاسكندرية.ط.2 .1984.ص:133

295 /جميل صليبا.المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية.دار الكتاب اللبناني.1982. ص.412/2

296 /انظر موسوعة لالاند..م.س ص:362

ومن المدارسِ الفكريَّة من فتّتَ المَكان وجزّأه، وكان هذا للتمييزُ بين المصطلحات كما ذهبتْ إليه المدرسة الألمانية التي ميّزتْ بينَ(lokal) المتعلّق بالمَكان تحديدًافي حيّز واضح المعالم ،ومحدَّد الأبعاد ،له قياسات تضبطه وتهيكله..

أمّا مصطلح (raum)فهوَ يتعلّق بالمكان الرّوائي حيثُ نجدُه مرتبطا بالأحدَاث الروائيَّة ونمُوها، وبحَركة الأبْطال وتفَّاعلهم مع المُحيط الذي يتَحرَّكون فيهِ سَواء أكان مفتوحا أم مُغلقا [297]

وأمَّا المدرسةُ الروسيَّةُ فيرَى باختين أنَّ للمَكان أربعَة أنْواع هِي: المَكان الداخلي والمكانُ الخارجي والمكانُ العادي وفضُاء العتبة وهو فضاءٌ معالمُه النوافذُ وممرُّ البطل وتنقله وحركته عبرالأبواب والسلالم ووسائل النقل المختلفة والمصاعد الخ...[298]

هذا هو مفهوم المكانِ كحيّز أوفضَاء يوجدُ بالفعل ،وفي عالمِنا الوَاقِعِي، وحين ينتقل إليْه مخيَال الإنسَان يَجْعَله في عَالم الافتراضِ ويشكّلهُ حسبَ رؤاه كيف يشاء..ولهذا لم يخلُ عمل أدبيٌّ من المكان كمَا لمْ يخلُ من الزمَان.

الفصل الثاني:

<u>الزمان والمفهوم الفلسفي:</u>

لقد شغل "الزمنُ" البشريةَ منذ ضياءاتها الفكرية الأولى، ومنذ بدأت عملية الحبو في سبيل المعرفة، متجهة في ذالك نحو كوّة النور القادمة من الآفاق..فهي وثيقة الاتصال بها، لا مناص ولا محيد عنها، لقد تساءل الإنسان قديما ومازال حول أبعاد الزمن واتجاهه، بل يصارعه ليتّحد به ثم يريه العدم، وهو من ينبّهه إلى الموت وزواله، كما ينبّهه بداية بالميلاد ونهاية بالفناء:"..يتحد بالوجود ثم العدم، بالحضور ثم الفناء، والزمان هو الذي ينبيء الإنسان بموته وزواله وعبثية كل وجوده، كما يبشر

---

[297] /انظر.شريبط أحمد شريبط : الفضاء في رواية غدا يوم جديد.مجلة الثقافة .وزارة الثقافة والاتصال العدد 115 سنة 1995 صص143.142.141 .

[298] / انظر.سعيد بنكراد:مدخل إلى السيميائيات السردية" دار تينمل للطباعة والنشر مراكش 1994ص:88.87

بالجديد الوافد، الميلاد الذي سوف يحدث والجديد الذي سوف يطرأ، مثل ما أنَّالموت سوف يحدث، والطارئ سوف يبلى. إن الزمانَ هو الذي يحملُ أملَ الإنسان ويأسَه، مجـدَه وتفاهَـةَ شأنه، إنَّه الكيانُ الموجودُ الفانِي."([299]) .

وفي المصطلح الفلسفي الإغريقي للزمن نجدُه من آلهة اليونان الذي اختارَالعدم لعقبه على الفناء في ذاته من مُلكٍ لم ينتبه إلى زواله بالزمن بل خشي عليه من ولده، فالتهمهم الواحد تلو الآخر:" لورجعنا إلى المصطلح اليوناني لكلمة الزمان، فسوف نجد أن كلمة كرونوس، تشير إلى الزمَان منذ عصرِهوميروس"([300])فمنْ هوَ هذا الـكرونُوس (Chronos)؟ :" «وكرونوس Chronos إله يخْشَى على ملكهِ مِن أبنَائِه فيلتهمُهم الواحدَ بعدالآخـر، وكذلك الزمان فهو الذي ينجبُ الكائنات، ثم هو الذي يقضِي عليْهَا»([301]).

ولم تكن الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة منعَزلة في الخَوض في هَذِهِ المَقولة بَل استغرقَتْها تحليلا ودراسَة منذ باكورَاتها الأولى، ولم ينكرْ هذه المجْهودات إلا بعضُ الجاحدين من المستشرقين والحقيقة لا ينكرها مستغرب ولا مستشرق، كما لا يمكننا أن ننكر ذلك على فكر أو عقيدة أو قناعة تاريخية لأمَّة ما من الأمم القديمة أو الحديثة .:" فإن الفلسفة العربية الإسلامية بدورها تناولت هذه المقولة ،انطلاقا من قناعاتها التاريخيَّة والفكريَّة والعقائدية ،وهو ما يؤكده محمود أمين العالم الذي يفند ما ذهب إليه بعض المستشرقين في عَدم أصَالة الفلسفة العربيَّة الإسلاميَّة، فيما يتعلق بفلسفة الزمن لتأثرها التام بفلسفة الزمن الإغريقية، إذ يرى أن مثلَ هذا الموقف متعسفٌ لسببين أولهما :"..أن هذا التأثر لم يكن مجرد أمر خارجي مفروض، بل كان تعبيرا عن حاجَات وملابسَات داخليَّة اقتضت هذا التأثر وفرضته، وثانيهما أنَّه لم يكن تأثرا سلبيا، بل كانَ تفاعلا أدى

---

[299] / عبد الرحمن بدوي . الزمان الوجودي . النهضة المصرية . القاهرة، ط2.1955 ص:20

[300]/ أمير مطر، دراسات في الفلسفة اليونانية : التأمل، الزمان، الوعي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1980 .(ص132

301 /P. commelin, mythologies greque et romaine . ED, illustrée de nombreuse Reproduction.ED,garnier,paris.P:11

إلى إضَافات وإبداعَات جَادَّة في كثير من الأحيَان نتيجَة لطبيعة الهيَاكل التاريخيَّة والاجتماعيَّة التي ظهرتْ في إطارهَا الفكري.."[302].

لقد تمّ طرحُ أسئلة عديدة منذ القدم حَول ماهيَة الزمَن، هل هو مفهوم مُجَرَّد أم محسُوسٌ أم همَا معا؟ وهل هوَ منغلق أم مستمِرٌّ خطيٌّ؟ وهل هو ثابت أم متغيّر؟ وهل هناك فواصل يمكن أن تحُدَّ بين الفترة والمدّة والأزل والأبد ؟ وهل هو خاضع للقياس أم لا؟ وهل يمكن تجزئته وحساب أجزائه؟ وهل هومطلق أم نسْبي؟ وهل هو متَّصل بغيره أم منفصَل بذاته؟ وما العَلاقة بين الزمَن مثلا والمكان؟.

إنّ هذه الأسئلة هي قليلٌ من كثير منذ القدم، ولكن الجَدل مازالَ مطروحًا والحلول مازالتْ لم تقدِّم الكثيرَ للبشريَّة في هذه المسألة:" فما زال العلماءُ حتَّى اليوم، على الرُّغم من التقدُّم الهائل في الفيزيَاء، يشعرون بالحَيْرة والدَّهشة إزاءَ هذا المفهوم الذي يسْحرُ الإنسانَ ويسخرُ منْه في الوقتِ نفسه، ومن منّا لا يشعرُ بهذه الحَيرة القديمَة وهذا السِّحر الهَادئ عندما يردِّد مقولة هيرقليطس :"لا يستطيعُ المرء أن يستحمّ في ماء النهر الواحد مَرَّتين لأنّ ميَاهاً جَديدَة تجري من حَوله أبداً. ففي الزَّمَن تكمُن معضِلة البدء والولادة والحياة، ثم الموت والفناء. فالزمَان يثيرُ سؤالين كبيرين، يتمثل الأول في ماهية الزمان في حين يتمثل الآخر في كيفية قياسِه، والسُّؤال الأول يخُص الفلاسفَة، أمّا الآخر فيخصُّ الفيزيائيين والعلمَاء .ويعتقدُ الكثيرون أنّ السؤال الأول بقيَ من غير جَوَاب نهَائي وقدِ يبْقى إلى الأبَد.." (303)

ومحَاولة الأجوبَة عن هذه الأسْئلة وتَحديد تَعريف للزَّمن هو في حَدّ ذاته أمْر بالغ الخطورة والتعقيد، فأغسطين يعترفُ بأنه يضطربُ حين يحاول تفسيرَه "..نحن نحفظُ عن ظهر قلبٍ صيحَة أوغسطين وهوَ على أعتاب تأمُّلاته (ما الزمن إذن؟) إنَّني لأعرفُ معرفةً جيِّدة ما هو، بشرط أن لا يَسألني أحدٌ عنْه، لكنْ لو سَألني أحَد مَا هو وحَاولتُ أن

302 / رابح الأطرش. مفهوم الزمن في الفكر والأدب. مجلة العلوم الإنسانية. جامعة فرحات عباس. قسم اللغة العربية وآدابها. مارس2006 ص:5

303 / علي أسعد وطفة. الأبعاد الفلسفية في مفهوم الزمن.التقدم العلمي.ديسمبر2010.العدد71.ص:13

أفسِّرهُ لارتبكتُ.."[304] إنَّه مَفهوم مشَاع بينَ الأمَم لا تحتكرهُ واحِدة عن غيرها. فمَا مَفهوم الزمَن لغة واصطلاحًا بين الثقافتين العربيَّة والغَربيَّة ؟:

الزمن لغة:

هو اسم للقليل من الوقت أوكثيره. يقال: زمان وزمن، والجمع أزمان وأزمنة. ويقال: أزمَنَ الشيءُ أي طال عليه الزمن، وأزمَنَ بالمَكان أقَام به زمَانا. ويقولون: لقيتُه ذات الزّمَين ؛فيراد بذلك تراخِي المُدَّة .والزمَن والزمَان لفظتان تحمِلان نفسَ المَعنى[305] ولا يرى اللغويُّون فرقًا بينهما لأنهمَا تنتميان إلى مادة لغوية واحدة (ز.م.ن.)

وأما اصطلاحا

فمفهوم الزمن لدى علماء المسْلمين مرتبط بمعنَاه اللغوي، فهويَعني: ساعَات الليل والنهار،ويشمُل ذلك الطويلَ من المُدة والقصيرمنها[306]. وبذلك عرفه الزركشي إذ يقول: "إن الزمَان الحقيقي هو مرورالليل والنهار، أو مقدار حركة الفلك [307] ."ولهذا لم يكنْ هناك اختلافٌ كبيرٌ بينَ هذا المفهوم الاصطلاحي ومَا وردَ في المَعنى اللغوي.

أمَّا في القرآن الكرَيم، فإننَا نَجد عَدَم استخدَام مَفهوم"الزمن " كمُصطلح عَام وإنَّمَا ورَدَت فيه ألفَاظٌ دالة عليْه، من ذلك:

الوقت.

قال تعالى:"﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ المعلوم(38) ﴾ الحجر.38.37

الحين.

---

[304] / بول ريكور. p.Ricoeur الزمان والسّرد.الحبكة والسرد التاريخي.تر/سعيد الغانمي.،فلاح رحيم.دار الكتاب الجديد المتحدة.ط.1.ج.2006.1ص:30

[305] /1/انظر: ابن منظور، محمد: لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د. ط، د. ت)، مادة (زمن)، ج 13، ص 159، ص 0199. ابن فارس،أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون،(بيروت: دار الجيل، ط 1، 1411 هـ \1991 م)مادة (زمن)ج 3،ص 22

[306] / انظر: الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد إبراهيم، "بيروت: دار سويدان، ط 2، 1387 هـ \1967 م)، ج 1، ص 5. ابن الأثير، علي الشيباني: الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر، د. ر، 1385 هـ \1965 م)، ج 1، ص 13

[307] / الزركشي، محمد: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد إبراهيم، (القاهرة: د. ط، د. ر، 1957 م)، ص 123. وعرف المرزوقي الزمن بأنه: "دوران الفلك ". المرزوقي، أحمد: الأزمنة والأمكنة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1417 هـ \1996 م)، ص 123

قال تعالى ::" ﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾." هود.5

- الدهر.

قال تعالى :"﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾"الانسان.1 وممّا لا يخفى بيانه مدى عناية القرآن الكريم بالزمن، وذكره في مواقع عديدة وبصيغ متعدِّدة كالقسم به أو بأحَد أجزائه كالفجر والصّبح والنّهار واللّيل والشَّفق والضُّحى كقوله تعالى:"وَ الفجرِ وليَالٍ عَشر"(الفجر..1).

وكذلك:"والضُّحى والليلِ إذاسَجى."(الضحى1).

وكذلك:"والشَّمسِ وضحَاها."(الشمس1)

وكذلك:"والليلِ إذايَغشَى."(الليل1).

وقال الله تعالى﴿ وَالْعَصْرِ () إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾(العصر1) .

ولهذه الأهميَّة أقسمَ الله بنفسه العليَّةِ أيضًا، ولا يقسم تعالى بشيء إلا لأنه عظيم ذو شأن .وفي القسَم بهذه الوحَدات الزمَنية تنبيه إلى الاعتبَار بهَا في الاستدلال على حكمَة نظام الله في هَذا الكون وبَديع قدرَته.

لقد اعتنَى القرآنُ الكريمُ بالزمنِ عنَاية فائقةً يقولُ الله سبحانه في إظهار فضْله ونعمتِه على خلقِه ومدى تسخيرِه مخلوقاتِه لهم:"﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(النحل12) .

ومن آيات الله تعالى الليل والنهار،وهما فترتان زمنيتان تختلفان في الطول والقصر،وجعلهما الله تعالى للناس ليعلمُوا من خلالهمَا الحسَابَ وعددَ السِّنين، يقول تعالى :﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا ﴾(الإسراء13).

فتعاقبُ الليل والنهَار هو تعاقب لزمَن يُحيلُ المدَّةَ الواحِدَةَ إلى مُدد، ويجعَل للحياةِ لونًا وطعمًا، فلو لم يكنِ التعاقبُ لكانَ الزمَن على خلافِ الذي نَعرفُ ومَا كانَ للمدَّة مدَدٌ ولا تعاقبت الأزمنَة وتوالتِ الأيام والشُّهوروالسِّنون والقرون .بل لفسدَت حَيَاة الإنسَان (308)

أمَّا في السُّنة النبويَّة، فإنَّنا نَجدُ هذا المُصْطلح قَد وَرَدَ كثيرًا وفي مَواضعَ غير قليلة، ومِن ذلك: قولـه صَلى الله عليْه وسَلم:" إذا اقتربَ الزمَان لم تكدْ رؤيَا المؤمِن تكذبُ.." [309] .وقولـه صلى الله عليه وسلم: يتقارب الزمانُ وينقص العملُ، ويلقى الشح، ويكثرالهرج، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتلَ، القتلَ[310].. "وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم:"إنَّ الزَّمانَ قدِ استدارَ كهيئتِهِ يومَ خلقَ اللَّهُ السَّمواتِ والأرضَ، السَّنةُ اثنا عشرَ شهرًا، منهَا أربعَةٌ حُرُمٌ ... "[311]

هذا إضَـافة إلى ورود المفردات الزمنيَّة الأخرى كالدَّهر.[312] والوقت (313) ونحْوهما. وإذا ما انتقلنَا إلى الفلسَفة الإسلاميَّة، نَجد أنَّ بعضَ الفلاسفَة المسْلمينَ قَد تأثروا بالفلسفَة اليونانيَّة، بينمَا حافظ الآخرونَ عَلى هُويتهم الإسلامية .فشاعر الفلاسفة أو فيلسوف الشعراء أبو العَلاء المَعري من القائلين بأن الزمَن أزلـيٌّ أبديٌّ، أيْ لا بدايَة لوجوده ولا نهايَة، ونَجد ذلك في قوله(من المتقارب):

نَزُولُ كمَا زالَ أجْـدَادُنا***ويَبْقَى الزمَانُ عَلى مَا نَرى

---

308 / انظر السيد قطب في ظلال القرآن دار الشروق.2003ط32.مج/4..ص:2216.2217

309 / أبو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسلبوري.صحيح مسلم.كتاب الرؤيا.تح/نظر بن محمد الالغارياني ابو قتيبة.دار طيبة 2006.ط.1.حديث رقم2263.ص:1415

310 / أبو عبد الله محمد بن إسماعيل.صحيح البخاري.مراجعة أ.د/محمد فؤاد عبد الباقي.دار الإمام.الجزائر2010ط.1 كتاب الأدب باب رقم 39.حديث رقم 6037..

311 / م.نفسه.حديث رقم 5550..

312 / ومن ذلك: دخَل عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال :(ألم أُخبَرْ أنك تقومُ الليلَ وتصومُ النهارَ) قلتُ :بلَى، قال:(فلا تفعَلْ، قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأفطِرْ،فإن لجسَدِك عليك حقًّا، وإن لعينِك عليك حقًّا، وإن لزَورِك عليك حقًّا، وإن لزَوجِك عليك حقًّا، وإنك عسى أن يطولَ بك عمُرٌ، وإن من حَسبِك أن تصومَ من كلّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ، فإن بكلّ حسنةٍ عشْرُ أمثالِها، فذلك الدهرُ كلُّه) قال : فشدَّدْتُ فشُدِّدَ عليَّ، فقلتُ:فإني أُطيقُ غيرَ ذلك، قال :(فصُمْ من كلّ جمُعةٍ ثلاثةَ أيامٍ) قال: فشدَّدْتُ فشُدِّدَ عليَّ، قلتُ: أُطيقُ غيرَ ذلك، قال:(فصُمْ صومَ نبيّ اللهِ داودَ).قلتُ :وما صومُ نبيّ اللهِ داودَ ؟ قال :(نصفُ الدهرِ)**.** رواه البخاري.انظر: الصحيح مع الفتح، كتاب الصوم، باب رقم 54، حديث رقم 1974، ص 736

313 / ومن ذلك: ما روي عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله؟ قال: "الصلاة على وقتها". رواه البخاري. انظر: الصحيح مع الفتح، كتاب مواقيت الصلاة، باب رقم 5، حديث رقم 527، ج 2، ص 190

نَهَارٌ يُضيئُ وليلٌ يَجِيءُ***ونجْمٌ يَغورُ ونَجمٌ يُرَى([314])

وممَّا ذهبَ إليه ابنُ القيم الجَوزي في المَدارج أنَّ الدنيَا حين تأخذ حيزا مُعيَّنا تكونُ زمَانا، وحِينَ تأخذ آخر تكونُ مكانا: "الدنيا:اختلفَ المتكلمون فيها على قولين ـ حكاهما أبو الحسن الأشعري ـ في مقالاته، أحدهما: إنها اسمٌ لمدّة بقاء هذا العَالم. والثاني اسْم لما بينَ السَّمَاء والأرض، فمَا فوق السَّماء ليس من الدّنيا، وما تحتَ الأرض ليس منها. فعلى الأولى تكون الدنيا زمَانا، وعلى الثانية تكون الدنيا مكانا.."([315]).

ولشدّة اعتناء العرب قديمًا بالزمن ودقة استعمال ألفاظ الدلالة عليه، فقد جعلوا لكل فترة من النهارأو الليل اسمًا خاصّا بها. فعن الأوقات:

"يقال مضى هزيع من الليل وهدءٌ من الليل، وذلك من أوله إلى ثلثه،

وجَوْزُ الليل:وسطه،

وجُهْمَةُ الليل:أوّل مآخيره،

والبُلجَة:آخره، وهي مع السّحر، والسُّدفة مع الفجر،

والشُّحرة : السّحرالأعلى،

والتنوير:عند الصلاة.

والخيط الأبيض: بياض النهار.

والخيط الأسود: سواد الليل.

والضُّحى من حين تطلع الشمس إلى ارتفاع النهار.

وبعد ذلك الضَّحاءُ ـ ممدود ـ إلى وقت الزّوال.

والهاجرة: من الزّوال إلى قرب العصر.

وما بعد ذلك فهو الأصيل.

والقَصْرُ والعصر: إلى تطفيل الشّمس.

---

[314]/.أبو العلاء المعري.اللزوميات.تح/أمين عبد العزيز الخانجي.مكتبة الخانجي القاهرة(د.ت) ج.1 ص:67

[315] /ابن القيم الجوزي.مدارج السالكين.م.س.ج2.ص:463

ثم الطَّفل والجنوح :إذا جنحت الشمس للمغيب، وهما شفقان: الأحمر والأبيض. فالأحمر: من لدن غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء، ثم يغيب ويبقى الأبيض إلى نصف الليل.."[316].

والألفاظ في ذاتها لا تدلّ على زمن معيّن ما لم تقترن بقرينة دالة على الفترة أو تحدّد المدّة، وإلا أصبحت غير محدّدة بزمن :"هناك ألفاظ في العربية تدلّ على زمن غير محدّد كالأبد والحين والأمد والوقت والدّهر والزمان والزّمن والأمّة والعصروالبرهة واللحظة والميقات والهنيهة. والذي يحدّد دلالتها السياق الذي ترد فيه، والقرينة التي تقترن فيها.."[317].

وحين يتكلم ابن القيم عن الزمن الضائع فإنَّما يُقَرِّبُ هذا الضَيَاعَ والحُزن عليه بالغيرة من حيث هي قيمة خلقية ودينية في الآن نَفسِه، ودرجَة من مَدارج الصُّوفية في التقرّب إلى الله تعالى، بل إنَّ ما فات من الوقت لا مردّ له، ولذلك وجبت الغيرة عليه وعدم تضييعه: ".. فالوقتُ أعزُّ شيء عليه، يعزُّ عليه أن ينقضيَ بدون ذلك، فإذا فاته الوقتُ لا يمكن استدراكه البتَّةَ لأنَّ الوقتَ الثاني قد استحقَّ واجبَه الخاص. فإذا فاته وقتٌ فلا سبيل إلى تداركه، كمَا في المستند مرفوعًا:"من أفطرَ يومًا من رمضانَ متعمّدا من غير عذرٍلم يقضِه عنه صيَامُ الدّهر، وإنْ صَامَه.." ثم يضيف:" فالوقتُ منقضٍ بذاتِه، منصَرِمٌ بنَفسِهِ، فمنْ غفلَ عن نفسِه تصرَّمَت أوقَاتُه، وعَظم فواتُه، واشتدَّت حَسَراتُه، فكيفَ حَاله إذا عَلم عندَ تحقق الفوْت مقدارما أضاع، فطلبَ الرجعى، فحيل بينه وبين الاسترجاع، وطلبَ تناول الفائت وكيف يردُّ الأمسُ في اليوم الجديد.. "[318] .

ومن شدَّة حرص السَّلف الصَّالح على الوقت وعدَم تضييعِه ولو كان في ضيق الحَال وآخرالأنفاس ما يرويه الفقيه أبو الحَسن الولوالِجِي، أنَّه دخَل على أبي الريحَان

---

316 / عبد الله بن مسلم(أبو محمد) بن قتيبة.أدب الكاتب.حققه وضبط غريبه:محمد محي الدين عبد الحميد.دار الجيلط.4 سنة 1963صص:74.75.

317 / محمد حسّان الطيّان.الزمن في اللغة.مجلة التقدّم العلمي العدد 71.ديسمبر 2010 ص: 41.

318 /ابن القيم . مدارج السالكين .لجنة من العلماء.دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة1.(د.ت) ص: 51/3

البيْروني، وقد حشْرجَ نَفَسُه، وضاقَ به صدرُه، فقال لي في تلك الحال: كيف قلتَ لي يومًا حسابَ الجدَّات الفاسِدات فقلتُ له إشفاقا عليه: أفِي هذه الحَالة؟ قال لي: يَا هَذا أودِّعُ الدنيَا وأنَا عَالم بهذِه المَسِألة، ألا يَكونُ خيرًا مِن أن أخليَهَا وأنا جاهلٌ بها؟ فأعدتُ ذلك عليْه، فحفظ، وعلمَني مَا وعَد، وخرَجْتُ من عندِه، وبينمَا أنا في الطريقِ سمعتُ الصُّراخَ عَليه.."[319] .

وعند المتصوّفة فقد أفرد ابن عربي كتابين عن الزمن هما:

1/كتاب أيام الشّأن

2/كتاب:مجموعة ساعات الخبر.

ومن الكتاب الأول نجد له ذكرا حين يعرض لآية قرآنيَّة من سورة الرحمن، وهو ما يثبتُه الدكتور محمَّد بن بريكة في قوله:".. كتاب (أيَّام الشأن) وفيه نجد الفهمَ العرفاني الأكبر لقوله تعالى:"كلّ يَومٍ هوَ فِي شَأن"(الرحمن/29) وهو تَعبيرٌ عن الارتبَاط الفلكي الروحَاني بمقولة الزّمَن مفهومه من حيث التّجلّي الأسمَائي لا الحسَابي.قال:"فما بقيتْ روحانيَةٌ في فلك إلا سَاعدتْ (على الأمر الألاهي)وابتنَى على هذا علم كثير.."[320]

وعند الغربيين يرى بول ريكور(Paul Ricoeur) أن الزمن يكون إنسانيًّا حين يأخذ أنساقه وفقا لمنظومة سردية ذات نمط مُعيّن:"إنّ الزمَن يصِيرزمَنا إنسَانيًّا مادام ينتظمُ وفقا لانتظام نمط السَّرد.."[321] .

ويرى علماءُ الاجتماع أن فكرة تقسيمات الزمن تعود بالأساس إلى تعودهم المنتظم على الاحتفالات الموسمية والسنوية بالأعياد المختلفة :"إنّ فكرة الزمان قد تكوّنت

---

319 / انظر ياقوت الحموي :معجم الأدباء 124.123/5

320 / محمد بن بريكة.التصوّف الإسلامي من الرمز إلى العرفان.دار المتون.ط.1./1427.م.2006هـ.ص:192

321 / بول ريكور.(*Paul Ricoeur*)الزمان والسرد الزمن المروي..تر/سعيد الغانمي وفلاح رحيم..دار الكتاب الجديد ط.الأولى 2006. ج.1.ص:20

من جرّاء التعوّد المنتظم للأعياد الدينية، نظرا لأنّ تلك الأعياد تُقَسِّم الحياة الاجتماعيَّةَ إلى مراحل ذوات طابع خاص ومنسجم.."([322]).

ويرى ليبنتز(Leibniz.W.G):"أن الزمان تمثّل ضروريٌّ يمتدّ في أساس التخمينات والحدسيّات كافة، فما الأزمنة المختلفة سوى أجزاء زمان واحد ووحيد، والقول إن الزمان لا متناه، لا محدود، يعني فقط أنّ كلّ مقدار زمني محدود ليس ممكنا إلا بحدّ زمن وحيد يكون ركيزته الضمنية.."([323]).

ويرى بول ريكور(Paul Ricoeur)أهمية الزمن في معالجة النص من حيث تحليلُه فيقول:"إنّ عزل تحليل الزَّمن عن التأملِ يَعني مُمَارسَة العُنفِ على النَّص.."([324]).

فالزمن أشبهُ بالعدد من حَيث تكوُّنُه بواسطة التمييز، فإنَّه يشملُ علامة هي [l.instant: الآن]، وإذا أضيفتْ هذه إلى الزَّمن المُنتهي [المضى] فهمَا معًا يعطيان ما يُعرفُ زمنيًّا بـ[ــالمدة la durèe]:" ومقولة الزمَان ذات طابع تركيبيٍّ في جَوهره، إنَّها تنشأ عن تَركيب الإضَافَة معَ العَدد:الإضَافة، نقيض الموضوع:العدد، مركب الموضوع: الزمان. ومادام الزمانُ مثل العَدد ،يتكوَّنُ بواسطة التمييز فإن فيه علامَةً وتعبيرا عن التمَايز،أعْني [الآن: l.instant] ومن ناحيَةٍ أخرى لمَّا كان الزمانُ يعبّرُ أيضًا عن ارتباط، فإنَّه يحتَوي عَن شيئ معنَاه ـ بوصْفه نقيض مَوضوع الآن ـ عدم التمايز، ألاوهومَضى الزمان، وأخيرا نجدُ أنَّ الآنَ ومضَى الزمَان إذا ارتبطا أعطيَا [المدَّة la durèe]..."([325])

وتقابل هذه الخاصية في الزمان، خاصية القابلية للإعادة والتكرار في المكان، بل هي نظير له :"والمكان هوفي الوقت نفسه نظير للزمان ومقابل له. وقابلية إعادة المكان

322/ أندريه لالاند.André Lalande . موسوعة لالاند الفلسفية..منشورات عويدات بيروت.باريس.تعريب خليل أحمد خليل.ط.2. 2001ص:1436

323 / م.نفسه ص:1434

324 /بول ريكور (*Paul Ricoeur*.) الزمان والسرد .الزمن المروي .م.س.ص:23

335/ ج.بنروبي (j.benrobi).مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا.تر/ عبد الرحمن بدوي.المؤسسة العربية للدراسات والنشر.بيروت (1980)ط.2ص: ج397/1 .

تقابل عدم قابلية الزمن للإعادة وأول نظير ومقابل للآن أي الحدّ المكاني الذي لا شيئ فيه أكثر من ذلك، هو النقطة، والفترة وهي نقيض موضوعه وهي المسافة،ومركب الاثنين، أو الفترة المحددة والمعينة بنقطتين فقط. هو المستقيم. والمستقيم والزاوية إذا اجتمعا عيّنا المستوِي،فالمستقيم والزاوية والمستوِي هذه: هي المظهر الثاني للمكان، والمستوِي والزاويَة والحجم تؤلفُ اللحظة الأخيرة للمكان، وللمكان مفهوم وما صدق. وهو إذن من نوع التصور، إنه أولا في العقل، وبعد ذلك في الحساسية.."([326])

ولهذا يرى كانط(I.Kant) أن الزَّمان والمكان شكلان في العقل، يرى أصحابُ النسبية أنهمَا منتسبَان إلى الكون مَتى ما اعتُبِر مستقلا عَن "الأنا" :" فبينَما الزمَان والمكانُ عند كانط شكلان في العَقل، فإنَّ الزمَان النسبي والمكان النِّسبي ينتسبَان إلى الكون منظورا إليه على أنه مستقل عن "الأنا" ([327]) مما يوحي لنا بأن دراسته يجب أن تكون خارج الذات، بل ومتأثرا بذاته هو [الزمن] لا بذات "الأنا" لأنها مرتبطة ارتباطا علائقيا بفكرة الدَّوام التي هي خاصية زمانية :" وإذا كانت هناك من نقطة يمكن أن ينكشف فيها الزمان مستغلقا، في الأقل بالنسبة لنظرة الاستقراء المتعالي لنفسه، فلا بدّ قطعا أن تكون لهَا علاقة بفكرة دوام الزمان هذه، بالإضافة إلى مضامين تأثر الزمان بذاته.."([328])

كما يرى أنَّ أرسطو حين ربط الزمن بالحركة ،وإضافة علاقة عددية لها، قد اكتمل تعريف الزمن لها:"لأن الزمن ليس سوى هذا ـ أي عدد الحركة فيما يتعلق بالقبل والبعد"، وهذا البرهان لا بدّ له من قدرة للعقل يستطيع من خلالها التمييز بين نهايتين وفاصل بينهما. ولهذا فالنفس يمكنها أن تلاحظ وجود [آنَيْـن] ويمكنها أن تلاحظ أيضا مجموعة الفواصل بينهما:"ما يحدّده الآن (اللحظة) هو ما يبدو لنا أنه ماهية الزمان ـ لنعتبرهذا أنه أمر مكتسب. غير أن هذا لا يضعف الامتياز الذي تحظى به الحركة، وإذا

---

[326] / ج.بنروبي (j.benrobi))مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا.م.س..ص:398/1

[327] / م.نفسه .351.35./1.

[328] / بول ريكور (*Paul Ricoeur*)الزمان والسرد.الزمان المروي:تر.سعيدالغانمي،دارالكتاب الجديدالمتحدة بيروت. 2006. ط.3. ص:402

كانت النفس ضرورية في تحديد الآن (اللحظة).أوبعبارة أدق: من أجل تمييز الأنات وعدّها ـ ولمقارنة الفواصل استنادا إلى وحدة ثابتة، فإنّ إدراك هذه الفروق يقوم على إدراك متصلات المقداروالحركة، وعلى علاقة التنظيم بين القبل والبعد .التي تنبع من تنظيم الاشتقاق بين ثلاث متصلات متماثلة.. "(329) وهذه المتصلات الثلاث هي القبل والآن والبعد، وحين نفرق بينها نكون قد فرقنا بين المقدار والحركة. وهذا المقداريفصل السرعة عن الزمن :" فلكي يمهد أرسطو الطريق لهذا البرهان، يشير أوَّلا إلى علاقة المماثلة التي تجمع بين هذه الوحدات المتصلة الثلاث: المقدار والحركة والزمان. من ناحية:" تتماشى الحركة ، الأفضل القول [تتخضع]،مع المقدار.ومن ناحية أخرى تمتدّ المماثلة من الحركة إلى الزمان:"لأن الحركة والزمان يتلازمان دائما مع بعضهما. والآن ما الاستمرار أو الاتصال إنْ لمْ يكن إمكان تقسيم المقدار عددا لا نهائيا من المرات"؟...وهكذا لا توجد علاقة البعد والقبل في الزمان إلا لأنها موجودة في الحركة"(330)

وحين نتكلم عن ثلاثية الزمن بين الماضي والمستقبل مرورا تحدده اللحظة[الآن] أو ما يعرف بالحاضر، فإننا بالفعل نكون قد حدّدنا بداية ونهاية ولا يكون هذا التحديد إلا بالفاصل الذي تحدّده [الآن]:" وكون الآن أو "اللحظة" يشكل المقوّم الأساسي لنظرية أرسطو عن الزمان..:"إذ يعتقد أنّ ما يحدّده "اللحظة" هو الزمان ـ قد نفترض ذلك" لأنه فعلا "اللحظة" أو "الآن" أي نهاية القبل وبداية البَعد، وما يمكن قياسه وعدُّه هو الفاصل بين"الآنين"، بهذا الصّدد، فإن فكرة "الآن" تتماثل تماما مع تعريف الزمان بوصفه متوقفا على الحركة من حيث قوامُه.فهي تعبّرعن انقطاع ممكن في الاستمراريّة التي يشترك بها الزمان مع الحركة ومع المقدار بفضل المماثلة بين المتصلات الثلاثة..(331).

329 / .م.س..ص:23
330 /المصدر نفسه ص:22
331 /م.نفسُه .ص:29

الفصل الثالث:

عناية أدباء الأندلس بالمكان وبالزمان:

تمهيد:

إن القصدَ من العناية، ليس التعمّد في استغراقه، بل في ما يفرضه المكان على الشاعرأوالناثر وما يمليه عليه من صدق الارتباط به حين الكتابة والإنشاء :" حيث المكان مؤهّل للكشف عن لا وعي الشخصية وحيويتها النفسية والاجتماعية، لأنه ببساطةلامعنى ولا دلالة للمكان بعيدا عن الانسان الذي يقوم بتنظيمه وإجراء عمليات التقطيع والمفصلة في بيئته وفقا لآليات ثقافية محدّدة.."([332]).

وكان الأندلسيون يميلون إلى المكان من حيث هو عنصر جمالي في الطبيعَة الخلابة، فلم يخلُ الغزل منه كما لم يبتعدْ عنه المديحُ لارتباطه بالأحبّة :" وشعراء الأندلس من الشعراء الذين استخدموا المكان أداة للتعبيرعن معاناتهم فجاء مقترنا بالغزل، فلا تُذكر الدِّيار إلا وتُذكرُ الحبيبة فهي علاقة ارتباط بين الشاعر والمرأة علاقة تذكُّر للدياروالأحبَّة، والأمر نفسه يقال بالنسبة للمديح إذ عكسَ الشاعر المكان بدلالته ورموزه على ممدوحه وأخذ الشعراء المكان بجماليته، ليكون ساحة تستوعب صفات الممدوح.."([333]).

إن المكان اتخذَ صفة الوسيلة الفنية التي يعبّرمن خلالها الأديب عن مشاعره الداخلية على اختلاف الأغراض:"فقد بقي المكان يؤدي دورا فاعلا في الغرض الشعري فضلا عن كونه وسيلة فنيّة معبّرة عن الكثير من المشاعر الداخلية وسواء أكان الغرض مديحا أم رثاءً أم هجاءً أم فخرا، فإنّ المكان يظلُّ فيه شاهدا حسيّا على متغيّرات تلك الحياة الإنسانية..."([334]).

---

[332] /خالد حسين حسين.شاعرية المكان في الرواية الجديدة.كتاب الرياض العدد 83 أكتوبر2000 ص:118

[333] /محمد عبيد صالح السبهاني.المكان في الشعر الأندلسي ..دار الأفاق العربية.القاهرة.ط. 1.2007.ص:38

[334] / محمد عبيد صالح السبهاني المكان في الشعر الأندلسي.م.س.ص:38

وكان الأندلسيون حين المديح لا يكتفون بالبداية به بل إنّهم يذكرون المكان من حيث المشاق والأهوال التي عانوها ليبيّنوا قيمة الممدوح عندما ترتبط بالمكان :" والعادة أن يذكرَ الشّاعر ما قطع من المفاوز وما أنضى من الركائب وما تجشّمَ من هول الليل وسهره وطول النهار وهجيره..ثم يخرج إلى مدح المقصود..:"([335])

وكذا اعتنى الأديبُ الأندلسيُّ بالزمن من حيث هو تأريخ لحالة يريدها شعراأو نثرا، وهذا ما وجدته في الآثار التي وصلتني،والمراجع التي اطلعتُ عليها ودرستُها.وقد لاحظتُ أن العناية بهما اتخذت لها عدةُ أوجه، كانت كلها بدافعين: خارجي وداخلي.

أما الخارجي فهو ما أملته الظروفُ وشهدت به الحوادثُ أو ما دُفع إليه الأديبُ الأندلسي دفعا من قبل حاكم أو صديق..

أمَّا الداخلي فهو مَا أملته حَالتُه النفسيَّة وموقفُه الذاتِي من أحْداث عَصرهِ وتوالي النكبَات أو المَسَرَّات.. وهذا مَا سَأوضّحه بحول الله وعونه في هذا الفصل:

1/ العناية بالمكان:

قد أندفعَ إلى الحَديث عن جغرافية بلاد الأندلس حين الحديث عن المكان، وعناية الأدباء به، لكنني أبتعدُ عن هذا الفضاء لشساعته، وأكتفي بتواجد المكان في الأعمال المختلفة.

لقد اصطدمَ الإنسان القادم من الجزيرة العربية والمشرق العربي بجمال الطبيعة وما تحويه من تنوع لم يكن مألوفا في البيئة المشرقية فاستغرقت كتاباته، وتفوّق تفوّقا لافتا في مجال الوصف، وكان الأندلسيون أبرع من المشارقة ابتكارا وتجديدا ودقّة وتصويرا ومردّ ذلك:"..أولا إلى طبيعة الأندلس، هذه الطبيعة الرائعة الخلابَة التي عبّرت فيها الأرضُ عن نفسها أجْمل تعبير بما أطلعته على سطحها ونثرته في شتى أرجائها، ومن طيب التربة وخصب الجناب، ومن الأنهار الغزار،والعيون العذاب، ومن البرّو البحر،

[335] /أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني.العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.حقّقه وفصله وعلّق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل.بيروت.ط.4.1972ج.1/226

والسهل والوعر،ومن الحقول والبساتين، والحدائق والرياحين، ومن الاعتدال الغالب فيها على الهواء والجوّ والنسيم، وعلى الربيع والخريف، والمشتى والمصيف، ومن المدن الحصينة، والقلاع المنيعة، والمصانع الجليلة، واستبحار المدن والعمران، ثمّ من ابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وشهامة الطباع.."([336])وزيادةعلى:"هذه المحاسن هي التي جعلت أبا إسحاق إبراهيم بن خفاجة شاعرَالطبيعة الأكبر في الأندلس يهتفُ بجمالها قائلا:(من البسيط)

يَا أهْـلَ أندلسٍ لله درُّكُـــمُ : *** مــاءٌ و ظلٌّ و أنهـارٌ وأشجارٌ

مَا جنّة الخُلدِ إلا فِي ديَارِكُـم *** ولوْ تخيَّرتُ...هذا كنتُ أختارُ!

لا تَختَشُوا بَعدَ ذا أنْ تَدْخُلوا سَقَرًا *** فليْسَ تُدخَلُ بَعدَ الجَنّة النَّارُ.."([337])

ومن قدرة شُعراء الأندَلس عَلى وَصف الطبيعَة أنهم تَحدّثوا باسم الجَمَاد وبثوا فيه روحَ الإبداع حَتى لكأنكَ تراه ماثلا أمَامَك ينطقُ بلسَان فَصيح وقَول بَليغ يُخبرُ عن حَال ويصِفُ مآل، كمَا فعلَ ابن خفاجَة في وصْفه الجَبل :" بَثّ الحياة والنطق في الجمَاد، لمَا لذلك من طرافة ووقْع حسَن في النفوس،ومن أمثلتِه قول أبي إسحَاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي في وصف جبل:"(من الطويل)

و قورٌ على ظَهْرِ الفَلاةِ كأنَّـــــهُ**طِوَالَ اللياَلِي ناظرٌ فِي العَوَاقِبِ

أصَخْتُ إليهِ وهْوَ أخرَسُ صَامِتٌ **فحدّثنِي ليْلُ السُّرى بالعَجَـائبِ

وَقالَ: ألا كَمْ كنتُ مَلجَـأ قاتــِل **وَ مَوْطِـــنَ أوَّاهٍ تبتّـــلَ تَائبِ

وَ كمْ مَرَّ بِي مِنْ مُـدلِجٍ ومـُؤوّب ** وقالَ بظلّي من مَطِــيّ ورَاكِبِ

فالجبلُ وهو جَمَاد تحوَّل بالتوسُّع الذي هيّأتْه الاستعَارة إلى إنسَان حَيّ ناطِق يروِي بعضَ مَا مَرّ بِهِ منْ التَّجارب..."([338])

---

[336] /عبد العزيز عتيق.الأدب العربي في الأندلس:دار النهضة العربية..بيروت.(د.ط/د.ت) ص:291

[337] /عبد العزيز عتيق.م.س ص:292

[338] /عبد العزيز عتيق..الأدب العربي في الأندلس. م.س.ص:294

إنّ المَكانَ تَجاوزَ المَفهُومَ الجغرافِيَّ عند الشاعر الأندلسِي ليصبحَ مفهومًا آخرَ يلخّصُ حالتَه النفسيَّة، فيتّخذ من البيتِ الشِّعري مكانَه الأليف الذي يأوي إليه ويتّحدُ به، ويأخذُ منه طاقته المتميّزة في قول الشِّعر:" فالمكانُ يظهرُ بكل تفصيلاته بهَذا الشعر، كقوَّة قادرَة على تلخيص تَاريخ الحَالة، وعلى الاحتفاظ بمعَان وتشكيلات لاتوجَد في سِواها، وعلى قدرَتها على إعطاء هذا الشعر طاقة متميزة..."([339]) إنّ المكان يتشكّل دوما ويأخذ لون الحالة الإنسانية.(فالمكان يتشكّل دائما ويتلوّن حسب الحالة الإنسانية.."([340]).

فهذا ابن زيدون يبكي حاله وهو بعيد عن قرطبة بعدَ الذي حلّ به من وشاية لدى أميرها ابن جهوريقول:(من الرجز)

يادمْعُ صُبْ مَا شِئْتَ أنْ تَصُوبَا ** وَ يـَا فُـؤَادِي آنَ أنْ تَـــذُوبَا

إذ الرَّزَايَا أصْبَحَتْ ضَرُوبَـا ** لـمْ أرَ فِـي أهْلِـــهَا ضَرِيبَا

قدْ مَلأَ الـشّوقُ الحَشَا نَدُوبَـا ** فِيالغَربِ إذْ رُحتُ به غَرِيبَا

عليـلُ دَهْـر سَامَـــنِي تَعْذِيبَـــا ** أدْنَى الضَّنَى إذْ أبْعَدَ الطَّبِيبَا([341])

لقد كان فؤَادُهُ جِهَة الغَربِ متعلقا بمن خلفه وراءه، ودعا فؤاده أن يذوبَ حزنًا وكمَدًا وعينه أن تسيلَ دمْعًا .

كما كانت المرأةُ مثيرة له للتوحّد بالمكان والارتباط به، وقد وقفَ على ديارها الأندلسيُّون كما فعل الجاهليون مع الأطلال:"وكان للشَّاعر الأندلسيّ تجربته التي عانى فيها من بُعدِ ديار المَحبُوبَة ،وبكائه نأيَ الأحبّة ووقوفه على أطلالهم .

---

[339] / عبد الرحمن حمادي . ماهية المكان لدى شعراء الجنوب ،(مجلة الباحث، العددان الثاني والثالث (20 و 21) السنة الرابعة (1982-1981) ص: 277

[340] / على الشرع /ابن خفاجة وتشكيل النص، الذات تبحث عن نفسها في إطاري الزمان والمكان(مجلة دراسات مج18،ع 3،عمادة البحث العلمي،االجامعة الأردنية ،عمان) ، ص 194

[341] / أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون .ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق ، محمد سيد كيلاني ،ط 3 - 1965م) ص 208

(*)/لم يخلُ الكتاب من أخطاء أردّها إلى الطباعة بالدرجة الأولى ،كما هو في هذه اللفظة التي صوابها [المعيشة:لأنها من المصدر عيش .والمضارع منه يعيش..فالأصل في عين الماضي ياء..:عاش يعيش عيشا..وعليه يُقال:معيشا..لا معاشا..أ.هـ

فهذا الغزال(ت:250هـ) يصبُّ لنا تجربته المعاشة* في تجربته الأدبيَّةِ فيخرج لنا أبياتا نلمسُ فيها روحَ الفراق ولوعَة الاشتياق وهي تعرجُ على المَكان مضمُونا ودَلالة.

يقول:(من المديد)

ريعَ قلبي لمّا ذكرتُ الديَـارَا*** وتنـــوَّرتُ بالنخَيـلاتِ نَـارا

وازدهتْنِي ذاتُ السّنَا ببُرُوق*** منْ لظاهَا فمَا أطيقُ اصْطبَارا

والقَــريحُ الفؤادُ يزدادُ للنـَّا *** رِوَمِيضَ السَّعِيرمنهَا استِعَارا

فقَرَنَ ريع القلب بذكر الدِّياروااستخدم معاني الشوق والوجد والصّبر على ذلك وجميع هذه المعاني تنبئ بمرارة الحزن ولوعة الفراق وشدّة المعاناة.."([342]).

وقد ربط ابن هانئ المكان من حيث هو ديارالأحبّة التي تعيده إلى الماضي، المتمثّل في أيام الصّبا، بألفاظ دالّة على المكان، فتقع في نفسه موقعا أثار الشجون وجعلت مشاعره فياضة وأحاسيسه جياشة أملت عليه نصّا منه قوله:"(من الكامل)

"ولقدْ مَررْتُ على الدّيَار بمنعَج *** وبهَا الذِي بي غيرَ أنّي سائَلُ

فتوافقَ الطلــلاَنِ هـَــذا دَارسٌ *** في بُردتِي عَصَبٌ وهذا مَاثلُ

فحمَا معـَــــالمَ ذا نَجِيعٌ سَافـك *** و مـَـحَا معَالم ذا مُليثٌ وابل

يا دار أشبــهت المها فيك المها *** و السّربَ إلا أنَّهــنَّ مطَـافلُ

نضجَتْ جَوانحَكَ الريَّاحُ بِــلؤلؤٍ *** للطلِّ فِيــهِ رَدع مِسْكٍ جَائِلُ

وغَدَتْ بِجَيبِ فِيكَ مَشــقُوقٌ،لَهَا *** نَفَسٌ تُــــرَدِّدُهُ وَدَمْـعٌ هَامِلَ

هلاَّ كـــــعَهدِكَ والأراكُ أرائِـكٌ *** والأثلُ بانَ والطّــلُولُ خمَائلُ

إذْ ذالكَ الــــوَادي قنًا وأسنّــةٌ *** وإذا الدّيَار مشـَــاهِدٌ ومَحَافلُ..."([343])..

وقد وقفتْ حمدة بنت زياد([344]) يوما على مكان فأعجبَها فتجاوزَت وصفَه الظاهري إلى إيجَاد عَلاقة بينَها وبينَه أشبَه بعلاقة المُرضعَة برَضِيعِها.

---

[342] / محمد عبيد صالح السبهاني.المكان في الشعر الأندلسي .م.س.ص:42.41

[343] /ابن هانيء الأندلسي.الديوان تح/...كرم البستاني .دار بيروت للطباعة والنشر 1980.ص:293.292

قالت(من الوافر)

وقانَا لفحـةَ الرمْضَــاء وَادٍ *** سَقاهُ مُضَاعَفُ الغَيثِ العَمِيمِ

حللنَا دوحَــه فحَنَا عَلَيْنَــا *** حُنُوَّ المُرضِعَات عَلى الفَطِيمِ

وأرشفَنَا عَلَــى ظمَإٍ زلالا *** ألَــــذّ مِنَ المُدَامَــة للنَّدِيمِ

يَصُــدُّ الشَّمسَ أنَّى واجَهَتنا *** فيَحْجبَــها، ويسمَح للنَّسِيـمِ

يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَة العَذارَى*** فتلمَسُ جـَانبَ العَقْـد النَّظِيمِ.

ولأن الممدوح مرتبط بالمكان فقد رثَى الشعراءُ المكانَ من خلال صاحبه فهذا ابن لبانَة يبكي العبَّاديينَ حينَ غَادَروا إشبيليَّة يَقول:(من البسيط)

تبكِي السَّماءُ بدمْعٍ رائـحٍ غادِي *** على البَهـَاليلِ(345) مِن أبنَاء عبّـَاد

على الجِبَال الّتِي هَدَّ تْ قواعِدَها *** و كَانَتِ الأرضُ منْهُم ذاتُ أوتَــادِ

يَا ضَيْفُ أَقْفَرَ بَيْتُ الْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ *** فِي ضَمّ رَحْلِكَ وَاجْمَــعْ فَضْلَةَ الزَّاد

وَيَا مُؤمِّلَ وَادِيــــهِمْ لِيَسْكُنَــــــهُ ***خَفَّ القَطِينُ وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالــوَادِي

إِنْ يُخْلَعُوا فَبَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ خُلِعَــوا ***وَقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمْصٍ أَرْضُ بَغْــدَادِ

حَانَ الوَدَاعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَــارِخَةٍ ***وَصَــــارِخٍ مِنْ مُفَدَّاةٍ وَمِنْ فَــادِي

وَالنَّاسُ قَدْ مَلَؤُوا الْعَبْرَينِ وَاعْتَبَـرُوا *** مِنْ لُؤْلُؤٍ طَافِياتٍ فَوْقَ أَزْبَــــادِ

سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَالنَّوْحُ يَتْبَعُــــــهَا*** كَأَنَّـهَا إِبِلٌ يَحْــدُو بِهَا الحَــــــادِي

نَسِيتُ إِلاَّ غَدَاةَ النَّهْــــــــرِكَوْنَهُمُ *** فِي المُنْشَــآتِ كَأَمْوَاتٍ بِأَلْحَــــادِ

كَمْ سَالَ فِي الْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ ***تِلْكَ القَطَــائِعُ مِنْ قِطْعَاتِ أَكْبَــادِ

مَنْ لِي بِكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَــــاءِ إِذَا ***مَــاءُ السَّمَاءِ أَبَى سُقْيَا حَشَا الصَّادِي

وَأَيْنَ أَلْقَاكُمُ فِي الرَّوْعِ مِنْ فِئَــــــةٍ ***مُدَرَّبِينَ عَلَى الْهَيْجَــــاءِ أَنْجَادِ(346)

---

344 / حمدة بنت زياد بن تقي و يقال لها حمدة بنت المؤدب، من شاعرات غرناطة في عصر ملوك الطوائف،من أشهر شاعرات زمانها، وكان لها نصيب كبير من العلوم،وكانت أشهر عالمات عصرها، لقبت بخنساء المغرب توفيت سنة 1204 ميلادي الموافق لـ 600 هجري.للزيادة ينظر: 1/ خير الدين الزركلي (الأعلام) – دار العلم للملايين – (2/274/...2/ عمر رضا كحال (أعلام النساء) – مؤسسة الرسالة – (1/ 292-293 ../3-/ محمد بن شاكر الكتبي (فوات الوفيات) – دار صادر– 1/ 394

345 / البهاليل : جمع بهلول ، وهو العزيز الكريم الجامع لكل خير(انظر لسان العرب (مادة بهل)/الصّنادي:العطشان

وإذا كانَ الجبلُ يرمزُ للقوَّة والمنَعة والعلوّ والصَّلابَة، فقد جَعل بعضُهم الممدوحَ أو المَرثي أكثرَ من الجَبل ليرفعَ المشبَّه عن المشبَّه به درجَة، ومردُّ ذلك هَوْل المَصَائب وشَدّتْها حينَ بدأتِ المَدَن تتهَاوى والأمكنَة تضيعُ من المُسلمِين:" وليسَ غَريبًا حِينَ يبرز الشاعرضعفَ الجبَال وعدم صمُودها أمَام المصَائب أن يَجعل الميت يفوُقها حين ينتَمي إلى النَّوع نفسِه.."(347).

ومن أروَع ما تركَ الأندلسيُّون في عنَايتهم بالمَكان مَا ترَكوه من نُصوص رَاقيَة في رثاءِ المُدن حينَ توالتْ عَليهَا النكبَاتُ وتسَاقطت المَمَالك والإمَارات الواحدة تلو الأخرى. فقد أفردوا لها غرضًا قائما بذاته على خلاف المشارقة الذين لم يهتموا بها، على الرغم أنهم سبقوا إلى رثاء المدن :"..ولكن المشارقة لم يتوسّعوا في "رثاء المدن والممالك" توسُّعَ الأندلسيين، ولذلك لم يظهر هذا اللون من الشّعر في أدبهم، كما ظهر في الأدب الأندلسي فنّا قائمًا بذاته."([348]). ولعلّ أشهرَ ما يذكرُ في هذا الموضوع هو مرثية الأندلس لأبي البقاء الرندي :"لعلّ نونية أبي البقاء الرندي ، هي أروع وأشجى ما جادت به قصيدة شاعر أندلسيٍّ ،لا في رثاء مدينة بعينها ، بل في رثاء الأندلس كلّ الأندلس ،وتصوير نكبته التي تعدو على كلّ فجائع الدّهر،وتتحدّى السلوان والنّسيان !"([349])وفي ما يلي مقتطفات من هذه المرثية الشاكية الباكية، وهي بذاتها تغني عن كلّ شرح وتعليق قال أبو البقاء الرُّندي(من البسيط):

لكلّ شَيئٍ إذا مـَـا تمّ نقْصَـــانُ *** فلا يُغرُّ بطيبِ العَيـــْـــش إنسَانُ

تلك الأمُورُ كمَا شاهدتَهَا دُوَل *** مَنْ ســــــــرّهُ زمنٌ ساءتْه أزمَانُ

وَ هذهِ الـدارُ لا تُـبْقِي عَلىَ أحَـــدٍ***و لا يـَدومُ عَـلى حَـالٍ لهَا شـَـانُ

وصـارَمَا كانَ مِنْ مُـلكٍ ومِنْ مَلِكٍ***كمَا حَكَى عَن خَيَالِ الطيفِ وسْنَانُ

---

[346] /مجلة الوعي الإسلامي العدد 23 مقال للأستاذ/ إبراهيم الجيوشي.موقع الألوكة الالكتروني.
رابط الموضوع:http://www.alukah.net/literature_language/0/31914/#ixzz5AyackyHN :
[347] / جريدي المنصوري الثبيتي.شاعرية المكان ط 1.شركة دار العلم للطباعة والنشر،المملكة.ع .س / 1999 م)ص:44
[348] /عبد العزيز عتيق.تاريخ الأدب الأندلسي بالأندلس...م.س.ص:320
[349] / م.س.ص:225

فجائعُ الدّهْرِ أَنْوَاعٌ مَنَـــــــــوَّعَةٌ***وللزَّمَـــــــانِ مَسرَّاتٌ وأحْزَانُ
وللحَـــــــــــوَادِثِ سُلوَانٌ يَسَهِّلُهَا***ومَا لِمَـــــا حَلَّ بالإسْلاَمِ سُلوَانُ
دهَـى الـجَزيرَةَ أمْرٌ لاَ عَزَاءَ لَـــــهُ*** هَـــوَى لَـهُ أُحُدٌ وانْـهدَّ ثهلانُ
أصَابَهَا العَينُ فِي الإسْلامِ فَارْتَزَأتْ *** حَتَّى خَلتْ مِنْهُ أقْطَارٌ وَبُلدانُ
فَاسْـــــأَلْ(بَلنْسِيةً) مَا شَأنُ(مُرسِيَةً) *** وَأيْـنَ(شَاطبَةٌ) أمْ أيْـنَ (جَيَّانُ)
وأيْـنَ(قُـرْطبَةٌ) دَارُ الـعُلُـــوم فَكمْ *** مِـنْ عَـالِمٍ قَـدْ سَمَا فيهَا لهُ شَانُ
وأينَ (حْمص) ومَا تَحوِيهِ مِنْ نُزُهٍ *** ونَـهْـــرُهَا الـعَذبُ فيَّاضٌ وملآنُ
قَوَاعدٌ كـنَّ أركـــــانَ الـبِلادِ فمَا *** عـسَـى الـبَقَاءُ إذا لـمْ تبقَ أرْكانُ
تـبْكي الحَنيفيَّةُ البيضَاءُ مِنْ أسَـــفٍ*** كـمَـــا بَكَى لِفِرَاقِ الإلفِ هَيْمَانُ
عَـلى ديـَارٍ مـنَ الإسْلام خَاليـَـــةٍ *** قَـدْ أقْفَرتْ و لـهَا بالكفرِ عُمْرانُ
حيثُ المسَاجِدِ قدْ صَارتْ كنَائسَ *** ما فِـيـهنَّ إلا نَـواقيسٌ و صُـلبانُ
حتَّى المَحَاريبُ تبْكي و هْي جَامدَةٌ *** حَـتَّى الـمنَابرُ تُرثي وهْيَ عِيدَانُ
يـا غـافلاً و لهُ في الدَّهْرُ موْعِظةٌ *** إنْ كـنْتَ فِـي سِنَةٍ فالدَّهرُ يقظانُ
ومَـاشيًا مَـرحًا يـلهيهِ مَـوطنُـــــهُ *** أبـعَـــد حِمْصٍ تَغرُّ المَرءَ أوطانُ ؟
تِـلك الـمُصيبَةُ أنـستْ مَا تقدَّمَـــها *** وَمَـا لـهَا مَعَ طولِ الدَّهْرِ نِسْيَانُ
يَـا رَاكِـبينَ عِتَـــاقَ الخَيلِ ضَامِرَةً *** كَـأنَّها فِـــي مَـجَال السَّبقِ عُقبَانُ
وحـامِلينَ سُـيُوفَ الـهِندِ مُـــرهَفَةُ *** كـأنَّها فِـي ظـَــــلامِ النَّقع نِيرَانُ
وراتِـعينَ وَرَاءَ الـبَحْر فِي دَعَـــــةٍ *** لـهُمْ بـأوْطـــَـانِهم عِـزٌّ وسُـلطانُ
أعـندَكم نَـبأٌ مـنْ أهْـــــــلِ أندَلسٍ*** فـقَدْ سَـــرَى بحَدِيثِ القومِ رُكبانُ ؟
كمْ يسْتَغيثُ بنا المسْتضْعفُـونَ وهُم *** قـتَلـَـــى وأسْرى فمَا يَهتزُّ إنسَانُ؟
لمَـاذا الـتَّقَاُطـــــعُ في الإسْلام بيْنَكمُ *** وأنـتمْ يـَا عِـبـَـــــادَ اللهِ إخْـوانُ ؟
ألا نـفُـــــــوسٌ أبِـيَّاتٌ لـهَا هِـمَمٌ *** أمَـا عـلى الخَيْرِ أنْصَارٌ وأعْوَانُ؟
يـا مَـنْ لـذلةِ قـومٍ بَعْدَ عزِّهـــِـــــمُ *** أحـَال حـَالـَـــهمْ جـورُ وطُـغيانُ ؟بـالأمْس

كـانوا مُلوكًا في منـــــازِلِهِمْ*** والـيَومَ هُـم في بِلاد الكُفرِ عُبدَانُ !

فلَو تـرَاهُمْ حَيارَى لا دَليـــــلَ لَهُمْ *** عـلَيهِمُ مِن ثـيـــــابِ الـذلِ ألوانُ!

وَلـــــــوْ رأيْتَ بُكاهُم عِندَ بيْعهِمُ *** لـهَالكَ الأمْـــرُ واستهْوَتْكَ أحزانُ!

يـا ربَّ أمّ وطـفْـــــــلٍ حِيلَ بينَهُما*** كـمَـا تَـفـَـــــرَّقُ أرواحٌ وأبْدَانُ

وطفلةٍ مثلَ حُســـنِ الشَّمسِ إذْ طلعَت *** كـأنَّما هـِـي يـَاقوتٌ ومُـرجـَانُ

يـَقودُها الـعِلجُ لـلمَكـــــروهِ مكـرَهَةً *** و الـعَينُ بـَاكيةٌ و الـقلبُ حَيْـــرانُ

لـمِثل هـَذا يَذوبُ القلبُ مِنْ كمَـــــــدٍ *** إنْ كـانَ فـي القلبِ إسْلامٌ وإيمَانُ[350] لقد امتلأ النصُّ بذِكر المكان من خلال تعقُّبه المدن التي تهاوت وتساقطت الواحدة تلوالأخرى،وانتهت بلاد الأندلس كأرض ومكان للمسلمين. فهو يذكرالمدن الموجودة في جزيرة الأندلس ، وهي :

بَلَنسِيةً /مرسِيَـــــــةٍ / شاطِبة / جيّانُ/قرطبة/حمص/ [351]..ومفردة المكان لم تكد تخلو من أبيات القصيدة كلها، فكانت :المساجد الأركان المنابر،الديار، أقطار، بلدان، النهر، العمران، الكنائس، المحاريب وغيرها..

ولعلها القصيدة الأوفرحظا من حيث التداول بين الدَّارسين والتي أعلنت عن الفاجعة الكبرى التي حلَّت بالأندلس، لأنها لم تختصَّ بمدينة بعينها بل تعدّت ذلك إلى اعتبار الأندلس كلا متكاملا ووحدة واحدة:"ولعلّ نونية أبي البقاء صالح بن شريف الرندي،هي أروع وأشجى ما جادت به قريحة شاعر أندلسي، لا في رثاء مدينة بعينها..بل في رثاء الأندلس كل الأندلس، وتصوير نكبته التي تعدو على كلّ فجائع الدّهر، وتتحدّى السّلوان والنسيان.."[352]

---

350 /عبد العزيز عتيق.الأدب العربي في الأندلس.م.س.ص:326

351 /حمص في الأندلس هي اشبيلية .فقد سمّى الأندلسيون مدنهم بأخرى في المشرق تيمنا ،وذكرا لها.

352 / عبد العزيز عتيق الأدب العربي في الأندلس. .م.س.ص:325

وحين استولى الأفرنجُ على مدينَة طليطلة في منتصَف مُحرَّم من عام 478هـ أحسَّ المسلمُونَ بالخَطرالدَّاهم بهم، فتأثروا لذلك تأثرًا شديدًا:"..إنَّ من أوَّل مَا استردَّه الافرنج من مُدُن الأندلس العَظيمة مدينَة طليطلة، فقد استولىَ عليهَا النصَارى بقيَادَة الأذوفونش في منتصَف محرم سنة 478هـ ،من صاحبها القادر بالله بن ذي النون بعد حصاردام سبع سنين،وكان سقوطها بالنسبة للأندلسيين مصابًا جللاًهزّ نفوسَهم هزّاعنيفًا، وقد رثاها بعض شعرائهم([353]) بقصيدة طويلة من 72بيتا،(من الوافر) قال في مطلعها:

لثكلكِ كيفَ تبتسمُ الثغـــــورُ*** سرورا بعدَمَا يئستْ ثغُـورُ؟
أمَا وأبي مُصَاب هدَّ منـْــــهُ***ثبيـــرُ الدِّين فاتّصلَ الثُّبـُورُ

.....

طليـــْطلةٌ أباحَ الكفرُ منْهـَا ***حِمـَــــــاها...إنَّ ذا نبَأ كَبيـــرٌ
فليسَ مثالهَا إيوانُ كسـْــرى*** ولا مِنهَا الخورْنق والسّـَــديرُ
ألـــمْ تكُ معقِلا للدِّين صَعْبـا؟*** فللهِ كمـَــــــــا شاءَ القَديـــرُ
وأخرجَ أهلهَا منـْــهَا جميعـًا***فصَاروا حَيثُ شـَاءَ بهمْ مَصيرُ
وكـــــانتْ دارَ إيمانٍ وعلـمٍ*** معالمُها التي طُمِسَت تُنيـــــرُ
فعادتْ دارَ كفـْــر مُصطفَـاةٍ***قد اضطربَت بأهليـــهَا الأمُـورُ
مســـاجِدُها كنَائسٌ !أي قلبٍ***علـَــــــى هَذا يَقَرُّ ولا يَطِيـرُ؟
فيَا أسَفاه يا أسَفـَـــاه حُزنـًا*** يكرَّرُ ما تكـــــــرَّرتِ الدّهـُورُ

---

[353] / شاعر مجهول لم يقف أحد على معرفة اسمه، ينظر نفح الطيب ج6ص228.

لئِـــنْ غُبنَا عَنِ الإخْوَان إنّـا***بأحْـــــــزَان وأشْجَان حضـُـورُ
أتأمَنُ أن يحلّ بنا انتقَـــــــامٌ*** وفينَا الفسْقُ أجمَـــــعُ والفُجُـورُ؟
يزولُ السِّترُ عَن قَومٍ إذا مَـــا***علـَـــى العصْيان أرخِيَتِ الّستُورُ
خُذوا ثَأر الدّيَانة وانصُـروهَا*** فقدْ حامَت على القتْـــلى النّسُورُ
وموتُوا كلّكم فالمـَــوتُ أوْلى***بكُم منْ أن تُجـَــــاروا أو تَجُورُوا
أَصَبرًا بعْدَ سبـْـيٍ وامتحَـانٍ*** يُلامُ عليهمَـــــــا القلبُ الصّبُورُ؟
أتتنَا الكتْبُ فيها كلّ شـَــــرٍّ***و بشّرنَا بأنحَسِنا البَشِيـــــــــرُ
وقيل تجَمَّعُوا لفِـــرَاق شَمْـل***طليطلـَــــــــــة تمَلَّكهَا الكُفُورُ !
فقل فِـــــي خِطّة فيهَا الصَّغَارُ***يشيبُ لكرْبهَا الطفلُ الصَّغيرُ
لقد صـَــــمّ السميعُ فلم يُعـوَّل***علـَـى نبَإ كمَا عَمِيَ البصيرُ
كفـــَــى حزنًا بأنَّ النَّاسَ قالوا*** إلَى أيْنَ التّحوّلُ والمَسِيـــــرُ؟
أنتركُ دُورَنَا ونَفِـــــرُّ عَنْهـا*** وليسَ لنا ورَاء البَحـْر دُورُ؟
ولا ثمَّ الضِّيـــاعُ تروقُ حُسْنًا***نبَاكـــــرُهَا فيُعجِبُنَا البُكـورُ
وظلٌّ وارف وخريـــــرُ مـَاء***فلا قـــَــرٌّ هناكَ ولا حـرورُ
ويؤكَلُ من فوَاكهَا طـــَــريّ***و يشربُ من جَداولهَا نَميـرُ
لقدْ ذهبَ اليقينُ فلا يَقيـــــنُ*** وغـَــــرّ القومَ بالله الغَـرورُ
رضَوا بالرّقّ !ياألله مَـــــاذا *** رآهُ وما أشـــَــــار به مُشيـرُ؟
مضَى الإسْلامُ فابكِ دمًاعليهِ ***فمَا ينْفِي الجَوَى الدَّمعُ الغزيرُ
ونُحْ واندبْ رفَاقا فِي الفلاةِ *** حيَارى لا تَحطّ و لا تَسيـــرُ
و لا تجنَحْ إلى سِلمٍ وحاربْ ***عَسَى أنْ يجْبـــرَالعظمُ الكسِيرُ
أنَعَمْـَى عَن مرَاشدِنا جَمِيعًا***ومَا إنْ منْهـُــــــم إلا بَصِيـرُ؟
ولوْ أنّا ثبتْـــنا كانَ خيـرًا***ولكـــــــنْ ما لنا كرمٌ وخيـرُ

إذا مَا لمْ يكـــنْ صبرٌ جَميلٌ***فليسَ بنـــــَـــافعٍ عددٌ كثيــرُ

ألا رجـــُلٌ له رأيٌ أصيلٌ؟***بهِ ممّـَـــــا نُحَاذر نَسْتَجِيــرُ

ويطعنُ بالقنَا الخَطّارحَتّـــى ***يَقولَ الرُّمــحُ: مَن هذا الخَطيرُ؟

يبادرُ خَرقـــَـــها قبلَ اتّسَاع*** لخَــطبٍ منه تنْخَسفُ البُدورُ

يوسّع للّذِي يلقـــَـــاه صَدرا***فقدْ ضاقتْ بما تلقَـــى الصّدُورُ

تنغّصت الحياة فلا حيـــــــاة***وودّع جيـــــــرة إذ لا مجيـر

فليلٌ فيهِ هـــــــمٌّ مستَكيـنٌ***ويومٌ فيه شـــــــرٌّ مُستطيــرُ

ونَرجو أن يُتيـــــحَ اللهُ نصْرًا***عليهِم، إنَّهُ نِعمَ النَّصِيـــــــــرُ.."([354])

وقد يقف الشاعر على الأطلال فيذكر الأحبَّة ويتأسف على آثار أصبحت أطلالا لا حياة فيها ولا أهل، يقول ابن حمديس يبكي ديارَ الأحبَّة وقد خَلتْ منهم(من الطويل).

أيَا جَزعَي بالدَّارإذْ عنَّ لي الجَزع ** وقادَ حَمَامي من حمَائمه السَّجعُ

و عَاودَني فيها ردَاعي و لمْ أشُمَّ ** ترائبَ عَوَّا دٍ يضمِّخُها الرَّدْعُ

وقفتُ بها و النفسُ من كلِّ مقلَـةٍ ** تذوبُ بنارٍ في الضُّلوع لهَا لذْعُ

مُطِلا مَطيلَ النَّوحِ لو أنَّ دمْنَـةً ** لهَا بصَرٌتحْتَ الحَوادِث أو سَمعُ

طلـولٌ عفتْ آياتُهـا فكأنَّمـَـــــا ** غرابيبُها جزعٌ و أُدمَانُهـا ودَعُ

حكَى الرَّبْعُ منْها بالصَّدى إذسَألتَه **كلامِي حَتَّى قيل:هلْ يمزحُ الربْعُ ؟

تحظّ مع المحَل الجَنوب بمَحوهَا ** سُطورَ البَلى فيهَا وتعجَبُها المَسْعُ

و لم يبقَ إلا ملعبٌ يبعثُ الأسَى **ويدعُوالفتَى منْه إلَى الشَّوق مَايَدْعُو

ومجْمُوعةٌ جمْـع الثَّلاثِ ولمْ تَزِدْ ** عليهِ صَوالِي النَّار أوجُهُهـا سَفْــعُ

لبسْنَ حِدا دَ الثّكلِ وهْيَ مُقيمَـةٌ ** على مَيْتِ نارٍ لا يفارقُها فَجـْــــعُ

و مضروبةٍ بينَ الرسوم ومَاجَنت** عِقابَ النَّوى من هامِها الضَّربُ و القلعُ

---

[354] /عبد العزيز عتيق. الأدب العربي في الأندلس..م.س.ص:322/321/320

ومحلولك مافكَّ زيجـــــا ولا لهُ ** بسِر قضَاء النَّجم علمٌ و لا طبْـعُ
أبانَ لنَا عَن بينِنَا فَلسَـــــــــانُه ** علَيْنَا لهُ قطع أتيـــــحَ له القَطــعُ
إذا لمْ تكُنْ للحَيّ دارًا فمَـــا لهـَا ** إذا وَقَفَ المُشتَاق فيهَا جَرى الدَّمعُ([355])

ويشتدُّ الحنين إلى المكان/الوطن عندما يتعلقُ بالحَاكم الذي أبعَدَته يَدُ القَدر عَنه، فهذا عزّ الدَّولة بن صَمَادح[356] صاحبُ ألمريَّة حَيث سَيْطرالمرابطون على دولته ودوْلة والدِه المعتصم، واضطرَّ لمغادرتها والرَّحيل عنها إلى بجَاية عند بني حمَّاد، وقد استوحش فيها، وظل يتذكر ممْلكته بلهفة وحسرة، فأخذ يقارن بين ماضيه وحاضره، فقال ذات مرّة :(من الطويل)

لك الحمدُ بعدَ المُلك أُصْبحَ خامـِــــلا ** بَأرضِ اغترا ب لا أَمَرُّ و لا أحْلَى
وقد أصْدَأ تْ فيهَا الهَوادَةُ منْصَـــــلي ** كمَا نسيتْ ركْضَ الجيَاد بهَا رِجْلـي
ولا مَسْمعـــــي يصْغي لنغمَة شَاعِرٍ** و كَفِّـــــيَ لا تَمتَـدُّ يومًـا إلى بذْ ل
طريـدًا شريدًا لا أُؤمِّلُ رجعَـــــــةً ** إلـــَى مَوْطن أبْعدْ تُ عنْه و لا أهْلي
و قد كنتُ متبُوعًا فأ مسيتُ تابـــِعًا ** لـــدَى معشرٍ ليسُوا بجنسِي ولا شكلِي
يخوضونَ فيمَا لا أرَى فيهِ خائضًا ** و قْبَلهم قدْ أقصـــَـدْ تُ مقتَلَ النُّبْلِ
و قولي مَسْمُوعٌ و فعْلـــــي مُحْكَـمٌ **وهـــَا أنَا لا قولـــِــــي يجوزُ ولا فِعْلي
عـَــــــزاءً فكمْ ليْث يُصَاد بغيلـةٍ** ويصبِحُ من بَعْد النشَاط لفِي حَبْل([357])

لقد تناثرالمكانُ في نصِّه هذا تناثرالنفس بين المَاضي الجَميل، والحاضر التَّعيس، بين ألمريَّة حيثُ إمارة والده، وبينَ منْفَى في مَكان لم يَألفه،وخِلّ لم يأنس لهم، وأرض لم يطقِ البقاءَ فيها، فقارنَ بينَ ماضيه حيثُ الحُكم والرأيُ المسمُوع، وبين الحَاضر

---

[355] / عبد الجباربن حمديس، الديوان. صححه وقدم له د. إحسان عباس دارصادر.بيروت1960 .ص:307

356 / هو الواثق عز الدولة أبو محمد عبد الله بن المعتصم بن صمادح ، كان رسول والده إلى يوسف بن تاشفين ، غير أن يوسف زج به في السجن ، ثم لم يزل المعتصم يتحيل في تخليصه حتى أخذ من حراسه وهرب به على البحر ، فوافى المرية وهنأ والده بخلاصه ، وعقب ذلك توفي المعتصم فآل أمر عز الدولة في النهاية إلى الرحيل إلى دولة بني حماد في بجاية بعد أن سيطر المرابطون على دولته . انظر ترجمته في :المغرب 2 / ص 201 ، والحلة السيراء 2 / ص 88

[357] / علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، المغرب في حكماء المغرب ، تحقيق د . شوقي ضيف ، ط ٣ (القاهرة : دار المعارف)(د.ت.) .ص:20/2

حيث الغربَةُ والبعدُ الذي نابَ العِزّ. ولكنَّ عزاءه أن الليوثَ يمكنُ أن تُصطادَ أيضا وتشدَّ بالحبَال. هذا الإحسَاس بالغربَة جعَله يقارن بينَ وطنه الأصيل، وبينَ هذا المكان الدّخيل ،الذي فَقَدَ فيه المركز الاجتماعي، وأصبحَ خاملا خامدًا لا يسمعُ ركضَ الجياد، ولايقدرُ على سلّ سيفه الذي صدأ في غمده.

ولقد شدّ الحنين ابن زيدون إلى الزهراء ليتذكّرَ من خلالها ولادة، فيربط بين المكان [الزهراء] وبين محبوبته،

يقول : (من البسيط).

إنّي ذكَرتُك بالزهْرَاءِ مشتـــاقًا **والأفْق طَلقٌ ومَرْأَى الأَرْضِ قدْ رَاقا

و للنسِيمِ اعتِلالٌ فِي أصَائِلِــهِ ** كَـــــــأنَّه رَقَّ لي فاعتَـلَّ إشفـَاقا

والرَّوضُ عندَ مائه الفِضيّ مبتسِمٌ ** كمـــَـــا شَقَقْت عن اللّبـَّات أطواَقا

ونلهو بمَا يستمِيلُ العينَ من زَهَر ** جالَ الَّنـــَّـــدى فيهِ حتَّى مالَ أعنَاقًا

وكـأن أعينَه، إذا عَاينَتْ أرَقـــى ** بَكتْ لِمَا بِي، فجَالَ الدَّمعُ رْقـرَاقَا

ورد تَألَّق فِي ضَا حِي منَابتِــه ** فازدادَ منهُ الضُّحى فِي العينِ إشرَاقًا

سرَى ينَافحُه نيلوفَــر عبِـــــقٌ ** و سْنان نبَّه منهُ الصُّبْحُ أحْـداقا[358]

وعندما أحسّ المعتمد بحالته وهو بعيد عن قصوره تركها تبكي عنه، بدلَ أن يبكي عليها، فكأنّ المكان يحنّ إلى صاحبه يقول: (من البسيط).

بَكى المُبار كُ في إثـر ابنِ عبَّاد ** بكَى عَلى أُثَر غزْلان وآسَاد

بكتْ ثريَّاهُ لا غمَّـتْ كواكبُهَا ** بمثل نَوْءِ الّثريَّا الرَّائح الغَادِي

بَكَى الوَحيدُ، بَكَى الزَّاهِي وقبَّته ** والنَّهْرُ، والتَّاجُ، كُل ذّلهُ بادِي

ويبكي ابنُ الحدّاد الأندلسي[359] ذكرى لقياه بمكان رآه وقد حلّ به، وهو وادي آش، بغرناطة[360] وقف يقول [من الطويل]:

---

358 /أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون. ديوان ابن زيدون ، شرح وتحقيق، محمد سيد كيلاني، ط 3. 1385 هـ - 1965 م .ص:177

أيا شَجَراتِ الحي من شاطئ الوادِي *** سقاكِ الحيَا سقيَاك للدنِفِ الصَّادي

فكانتْ لنا في ظلكـــــن عشيَّة *** نسيتُ بها حسنًا صبيحةَ أعيَادِي

بها ساعدتْني مِنْ زمَاني سَعَـــادَة *** فقابلَنِي أنْس الحَبيـــب بإسْعَادي

فيا شَجَرات أثمَرت كـــــلَّ لـذَّة *** جنَاك لذيذٌ لو جنيتِ على الغَادي

فهل لِي إلَى الظَّبْي الـذِي كانَ آنسًا *** بظلكِ من تجدِيد عهدٍ وتِـــردادِ

وقلبِي على أغصَان دَوحَك طـَـــائر*** ينـُوحُ ويشدُو والهَوى نَائح شَاد[361] .

وعندما حلّت الفتنة بقرطبة وتمَّ تدمير الزهراء لم يجفّ قلم، ولم تقرَّعين، ولم يهدأ شاعر إلا بثَّ قصيده حزنه،وعبّر عن حرقته وأساه .

ومن هؤلاء ماكتبه السميسر(362) يقول:[من المنسرح]

وَقفتُ بالزهْراءِ مستعبـرًا *** معتبـرًا أنـــــدبُ أشتَاتا

فقلتُ: يا زهْرا ألا فارْجِعِي *** قالت: وهلْ يرجعُ من مَاتَا ؟

فلـمْ أزلْ أبكي وأبْكي بهَا *** هيهَات يُغنِي الدمْعُ هَيْهَاتا

كـأنَّمَا آثار مَن قدْ مَضَى *** نَوادِبُ يندبْن أمْـواتا (363)

---

359 / محمد بن أحمد بن عثمان القيسي المعروف بابن الحداد ، أصله من وادي آس ، سكن المرية ، وكان أكثر عمره عند المعتصم بن صمادح ملك المرية ثم فر عنه إلى ابن هود صاحب سرقسطة ثم عاد إلى مدينته مرة أخرى. انظر ترجمته في :الذخيرة مج 2 / ق 1 / ص 691 ، والمغرب 2 / ص 143 . ومطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس ،تحقيق : محمد علي شوايكة ، ط 1 بيروت : مؤسسة الرسالة 1403 ه - 1983 م ص 336

360 / وادي آش وهو من أعمال غرناطة ، مدينة جليلة قد أحاطت بها البساتين والأنهار ،وقد خص الله أهلها بالأدب والشعر. انظر:نفح الطيب من نص الأندلس الطيب ، لأحمد بن محمد المقري ،تحقيق : د.إحسان عباس بيروت ، دار .صادر 1408 هـ ، 1988 م (1 / ص 503

361/ أبو عبد الله بن الحداد الأندلسي .الدّيوان.(ت 480 هـ) جمع وتحقيق وتقديم: منال فيزل ،مؤسسة الرسالة ،ط 5. 1405 هـ. 1985م ص 56

362 / خلف بن فرج الإلبيري ، باقعة عصره ، وأعجوبة دهره كما قال عنه ابن بسام ، عرف بالهجاء والقدح حتى قيل إنه(ألف مجلدات في هذا الفن وسماها) شفاء الأعراض في أخذ الأغراض(هجا باديس في غرناطة، وهرب إلى المعتصم ابن صمادح ملك ألمرية.انظر ترجمته في :الذخيرة مج 2/ق 1 / ص 882 ،والمغرب100/2

363 /ا لمقري ،نفح الطيب.م.س.ص: 527/1

وقد أفرد شعراء آخرون قصائد للمدن حين تسقط بين أيدي النصارى، وكانت مدينة طليطلة هي فاتحة العقد :"فقد ذكر صاحب نفح الطيب" أن أوّل ما استردّه الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة، فقد استولى عليها النصارى بقيادة الأذفونش في منتصف محرم سنة 478 للهجرة، من صَاحبها القادر بالله ذي النون بَعد حِصَار دام سبع سنين. وكان سقوطها في أيدي النصارى بالنسبة للأندلسيين مصابا جللا هزَّ نفوسهم هزّا عنيفا!"(364).

وعناية أدباء الأندلس بالمكان مردّه الإحساس بالتوحّد حينا، والفرقة والنفور حينا آخر، فقد يكون المكان منفّرا ولكن ساكنه يدعو إلى التجسّد وحبّ المكان فيألفه الشاعر،والعكس قد يحدث أيضا، فقد يكون المكان على جانب كبير من الجمال والمناظر الطبيعية البديعة، الشاعر ينفر منه لعدم انسجامه مع ساكنيه وتآلفه :"هذه الرؤية للمكان يمكن أن تكون رؤية إيجابية متمثّلة بالألفة لذلك المكان وقد تكون سلبية متمثّلة بالعدائية أو العيش في حالة غربة تجاه مكان ما.

وكلّ هذه المواقف والرؤى تحدّدُ لنا بشكل واضح موقفَ الشّاعر تجاه المكان...فألفة بعض الأماكن بالنسبة للشعراء متأتّية من ساكنيها فعلى الرُّغم من عدائية بعض الأمَاكن إلا أنّها تكتسبُ الألفة من الأشخاص الذين يعيشون فيها والأحداث التي تقع فيها .

والعكس من ذلك فربَّما يكون المكان ذا طابع جمالي من حيث الشكل إلا أنه يتّسمُ بالعدائية لعدم انسجام الإنسان وتآلفه مع ساكنيه بسبب الظروف الاجتماعية أوالنفسية المتمثلة بعدم شعور الإنسان بتحقيق مطامحه وأهدافه.."(365).

فعن المكان الأول الذي يحبّه الشاعر ويألفه، يقول ابن عبد ربه في وصف قصر الخليفة المسمى [منية] حيث يقول معجبا به (من الطويل):

أَلِمَّا على قصْر الخليفـَة فانظرا *** إلى منيَة زهراء شُيِّدَتْ لأزهَـرا

مزوّقة تستـَودِعُ النجمَ سرّهـا *** فتحسبُه يصغِي إليهَا ليخبـــِـرا

364/ عبد العزيز عتيق .الأدب العربي في الأندلس. .م.س.ص:325

365 / محمد عبيد صالح السبهاني . المكان في الشعر الأندلسي.. م.س.ص:106.105

بناءٌ إذا مَا الليلُ حـلّ قنَاعـُه *** بدا الصّبحُ من أعرافِه الشُّمّ مسْفِرا

تعَالى علوًّا فاتَ عن كلّ واصِف*** إذا أكثَروا في وصْفِـه كانَ أكثرَا

ترى المنيةَ البيضاءَفي كلّ شارِق*** تلبّسَ وجهُ الشّمس ثوبًا معفَّرا (366)

فقد جعل القصرَ جنّة وإن لم يسْكنْه لكن الذي يَحُلّ به كان الدافع لهذا الإحساس والقول والمكان في قرطبة هو مبانيها وقصورها، وهو سجونُها وأنهارُها، وهو كلّ ذلك حينَ يتفاعلُ معَه الشاعرُ معجبًا بهذا أو منفّرا من ذاك، ومنه مَا قاله ابن هذيل القرطبي في وصف مَباني الزهراء. (من الطويل)

كأنَّ حَنايَاها جنـــــاحًا مصفَّــقُ*** إذا ألهبَتهُ الشّمسُ أرخَاهمَا نشْــرَا

كأنَّ سَواريهَا شكتْ فترةَ الضَّنَى*** فبَاتَت هُضَيمَاتُ الحَشَا نُحَّلا صُفْرا([367])

وقديكونُ المكانُ المحبوبُ إلى النفس مَجلس لهوٍوأنس، فيجيدُ فيه الشاعرُ وينظم أشعارًا، ومن هذا قول أغلب بن شعيب الجيَاني وهو من شعراء الأندلس سَكنَ قرطبة،

يقول[من: الخفيف] :

ربَّ يوم قصدتُ فيه إلى اللَّهْــــو وحَوْلي جَمَاعة شطّـار

فنزلنَا على بسَاط مِنَ النّوْر*** أنيقٍ لم تَغْنَ فيه البِحــــارُ

روضَةٍ كالسَّماءِ لونًا لرَائيـــــــها ، ولكنَّ نجومَها نــوَّارُ

تزرعُ اللحْظَ في زرُوع ومَاء*** وعُروشٍ كأنَّها الأبكَــارُ

فكأنّ الرياضَ إذا نَحنُ فيهَـا*** جنّة الخلدِ حَلّهَا الأبْــرَارُ(368)

ويكون المكانُ المعادي صَديقا حينَ يألفه الشاعر، وحينَ يسكنُه ولوْ مرغمًا كالسِّجن مثلا، فهذا أحدُ شعراء قرطبَة(369) وقد سَجَنَه المنصور بن أبي عَامر مَعَ أحَد الأمرَاء المغضُوب عليهم، فألفَ المَكانَ لقربه مِنَ الأمير.فأنْشَأَ يقول:[من البسيط]:

366 /ابن عبد ربه.الديوان .جمعه وحقّقه وشرحه.د.رضوان الدّاية .مؤسسة الرسالة بيروت ط1. 1979ص:68

367 /شعر يحي بن هذيل القرطبي.جمع وتحقيق ودراسة:محمد علي شوابكة،منشورات جامعة مؤتة،الاردن.ط/1..1996.ص:84

368 / أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي .جذوة المقتبس.في تاريخ علماء الأندلس..تح/ابراهيم الأبياري.دار الكتاب المصري.القاهرة.ط 1989.2.. ج.1.ص:271

غدوتُ في الجُبّ خدنًا لابن يعقُوب *** وكنتُ أحســبُ هذا في التكاذيــبِ
رأتْ عِدائي تعذيبي و مَا شعرت *** أن الذي فعلتْــه ضدَّ تعذِيبِـــــي
رامُوا بِعَادِي عَن الدّنيَا لا أبَا لهُم *** قد كانَ غـَــاية آمَالي ومَرغُوبـــي
يا ابن الخَلائِفِ عن مَروَانَ واحَزنِي***علَى ياعــِك يا ابن الصّبيَة الشّيــــبِ

وفيكَ ما يتسلّــَى العاشقُـــــونَ به ***من حسنِ خلقٍ ومنْ ظرْفٍ ومِنْ طِيبِ
بلى قدْ فجَعتُ نفْسِــي لمحتَجِبٍ *** قد كانَ عَن لحْظ عيْني غيرمحْجُوب(370)

وقد اتخذ أحدهم من السجن مكانا للشكوى، وتمنى أن يكون ماهو أنكى منه منتهاه، وأن يكون طعاما للنسور على البقاء في هذا المكان الموحش، وهي من عادة فرسان العرب وشجعانهم أن يموتوا في ساح المعارك مدافعين عن أوطانهم وأعراضهم،ثم يتركوا للنسور يتخذون لهم مقابر في حواصلهم.

يقول سعيد بن جودي(371) [من الطويل] :

خليليّ صَبْرا،راحَة الحرّفِي الصَّبْر ***ولا شيئَ مثلَ الصَّبرفي الكربِ للحُرِّ
فلا تيأسَا من فرحَة بعد ترحـَة *** و أن تأبيَا باليسْــر من بعدِ عُسرِ
فكم من أسير كان في القيْد مُوثقا ***فأطلقه الرحمنُ من حِلَقِ الأســرِ
لئن كنتُ مأخُوذا أسيرًا و كنتُمَــا *** فليسَ على حَرب ولكنْ على غـَدرِ
ولو كنتُ أخشى بعضَ ما قدأصَابني***حمَتنـي أطرَاف الرُّدينيَّة السّمـرِ

---

369 /هو محمد بن مسعود البجاني ،قدم إلى قرطبة واستوطنها،واتهمه خصومه في دينه فسجنه المنصور بالمطبّق وبه توفي سنة 400هـ، ،وكان مجيدا في شعره ذكره صاحب الذخيرة :563.562.1.1وكذا الحميدي في الجذوة:151.1/وفي بغية الملتمس:170.1/والمقري في النفح:388.3]

370 / ابن بسام . الذخيرة .م.س. ص:563.1/الخدن:الصديق.الخلائف:يقصد به الخلفاء/

371 /أبو عثمان سعيد بن سليمان بن جودي السعدي ،من أسرة تعرف بالرياسة،كان من معاوني الزعيم سوار بن حمدون، خاض معارك وحروبا عديدة ،سقط أسيرا ،وقيل إنه قتل غدرا سنة 284هـ للزيادة ينظر:بغية الملتمس:393.2/وكذا الجذوة:356.1/الرّدينيّة:السيوف../الظّاعن:الذّاهب او القاصد/ عرسي:زوجتي../حولة النصر: حوصلته وهي بمثابة المعدة لغيره.

فقد علمَ الفتيـــانُ أنّي كميُّهـا *** و فـارسُها المقدامُ في ساعة الذّعرِ

فيا ظاعنًا أبلغْ سلامِـــي تحيَّةً *** إلـَى والدِيَّ الهائمَين لدَى ذكـرِي

وأدّي إلى عُرسِي السـلامَ وقلْ لها ***عليكِ تحيّـاتي إلَى موقفِ الحشْـرِ

بهمّكِ ألقَى خالقِي يومَ موقفِـــي ***وكربـُك أقضَى لِي مِن الهمّ والأسرِ

وإن لمْ يكن قبرا فأحسنُ موطنًـا ***من القبْـــر للفتيان حولةُ النّسرِ(372)

ومن الشعراء من ضاق ذرعا بالمكان لوحشته وضيقه ووجود من يكره البقاء معهم للغباء المستشري بينهم ،ولأن الليل فيه يتساوى بالنهار يقول أبوالإصبغ(373).[من المديد]:

ليتَ شعري كيفَ البلادُ وكيفَ الـ*** أنسُ والوحشُ والسَّما والماءُ؟

طالَ عَهدِي عَن كلِّ ذاكَ و لَيلِـي*** و نهَاري فِي مُقلتِي سَـواءُ

ليسَ حَظّـي مِنَ البسِيطـَـة إلا *** قدْرُ قبرٍ صَبيحَة أو مسَـاء

و إذا ما جَنحْتُ فيـهِ لأنـْـسٍ *** أوحَشتنِي فيهِ بأنسِهَا الأغبيَاء(374)

وقد عبّرالقرشي(375)عن معاناته داخل السجن كمكان موحش لم يتحمّل البقاء فيه، وقد حمّل نصّه ألفاظا تنوء بأنفاس الهمّ والحزن والأسى قال [من المتقارب]:

ألا أيّها الحَاجبُ المُرتجَى*** وأكرَمُ مَنْ كانَ أو من يَكونُ

دَعَوتُكَ دعوةَ مستصْرخٍ *** أحاطتْ به و أثخنتْه المنـونُ

فإن لم تُعِنّ فمَن ذا الـذِي*** يلوذُ به الخائفُ المستكيـنُ؟(376)

372 /سعيد بن جودي السعدي الألبيري الأندلسي سيرته ومجموع شعره.د.محمد رضوان الدّاية.مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي،دار الفكر المعاصر ،بيروت ودار الفكر ، دمشق.ط.1. 1997ص:84.85

373 /هو عيسى بن الحسن من شعراء الدولة العامرية، وقد سجنه الخليفة بعد أن قتل أباه كما ورد في المغرب 1/212

374 / ابن سعيد المغربي. المغرب في حلى المغرب.تح/شوقي ضيف.دار المعارف القاهرة ط.3..1978 ص:212/1

375 /هوعبد الله بن عبد العزيز القرشي من أولاد الحكم الربضي ،كان متهما بالاشتراك مع عبد الله بن محمد بن أبي عامر في مؤامرة ضدّ أبيه لم تنجح فسجنه في المطبق ،وترك شعرا ونثرا توفي حوالي 390هـ..للزيادة ينظرلأجذوة المقتبس415/2..البغية:449/2..الحلّة السيراء:216/1..

هذا المكان الموحش، هوسجن المطبق(377) ذكره الكثيرون عندما حلوا به. يذكر صاحب الذخيرة هذا الأنموذج لمحمد بن مسعود البجاني تجربة دخوله السجن.يقول(من البسيط):

ما أقبحَ الصَّبرَ عندي بعدَ فرقته *** يا نَفسُ ذوبي عليْه هكذا ذوبِـي

يا غَائبا قدْ أطالتْ كَفُّ غيبَتِـه *** علىَ لظىَ الشَّوق والأحَزانِ تأليبِي

عِندِي استقرّتْ جنودُ الكرْب كلُّهم *** فلستَ تسمع من بعدي بمكروبِ

سجنٌ وقيدُ و أعداءٌ مُنيتُ بهِـم *** لا يسْـأمـونَ مع الأيَّام تأليبِي

في مَنزلٍ مثلَ ضيقِ القبرِ أوسعَه *** دخلتُـــه فـــ الأرضُ تهوى بـــِي

يحنُّ عندَ مقاسَاة البـــــَلاءِ بـــِهِ *** قلبِـــــي إليْكَ حَنينُ الهيمِ والنيبِ(378)

وعند ابن شهيد يصبح السِّجنُ المكانَ الأكثرَ عداوةً، كيف لا؟ وهو من تربى في قصور الأمراء وخالط الخلفاء، وكان له من الدولة العامريَّة نصيبُ المقربين وحظّ المكرّمين. يقول من سجنه:[من الطويل]

فراقٌ وسجنٌ و اشتياقٌ و ذلّـة *** و جبّار حفاظٌ عليَّ عتيـدُ

فمِن مُبْلغ الفتيانِ أنـّي بعدَهم *** مقيمٌ بدار الظالمينَ طَريـدُ

مقيـمٌ بدار ساكنوهَا مِن الأذَى *** قيامٌ عَلى جَمْر الحِمَام قُعُودُ

و يُسمَعُ للجنّانِ فِي جنَبـَاتِها *** بَسِيطٌ كترجِيعِ الصَّدَى ونشِيدُ

وما اهتزّبابُ السِّجنِ إلا تفَطَّرَتْ *** قلوبٌ لنَا خَوف الرَّدى وكبُودُ(379)

---

376 /ابن الأبار/الحلّة السيراء. تح:حسين مؤنس.الشركة العامة للطباعة والنشر.القاهرة،ط الأولى..1963/ص191/3

377 /وهو سجن يقع تحت الأرض بمدينة الزهراء ، وسمي ببيت البراغيث .ذكره الكثيرون منهم:البيان المغرب:270/2..المقتبس من أنباء أهل الأندلس:325..وغيرهما.

378 /ابن بسام.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.م.س.:564/1/1

379 /ابن شهيد الأندلسي.الديوان.تح/ يعقوب زكي.م.س. ص:100

وابن عمار(380) يرى السجن ذلك المكان المنفّر الموحش، بمعارج عالية توصل إلى الأرض الجرداء القاحلة، وأسوار عالية، فيعلو السحب، حتى كأن الجنّ جعلته مرقاة لتسترق السمع، نسمعه يقول:[من السّريع]

أدركْ أخَـاك وَلو بقافِيةٍ *** كالطَّلِّ يوقظُ نائــمَ الزَّهِر

فْلقد تقاذَفَت الركابِ به *** فـي غير مومـاة ولا بَحرِ

طَفحتْ صَحابته بلا سنة ***وتسأقطُـوا سكَرًا بلا خمِر

بمَعارج أ د تْ إلى جَـرَد *** حــتَّى من الأنوَاء و القِطِر

عالِ كأنَّ الجنَّ إذا مردتْ *** جعَلتـه مرقاًة إلى النِّـسِر

وحشٌ تناكرَت الوُجُوه بِه *** حتَّى استربَت بصفْحَة البَدر

قصرٌ تمهَّد بينَ حَاَفـــتي*** نِسْرين من فَلك ومِنْ وَكْر

متحَيِّز سَالَ الوَقار عَلَـى*** عِطفِيْه مِن كبَـرٍ ومن كِبْر

مَلكتْ عنانُ الريحِ رَاحتَـه*** فجيادُهـا من تحتِـه تجري

فالمكان ليس فقط ذلك الحيزالفيزيائي الذي يتحرك فيه الإنسان، فهو متوفّر داخل السجن كذلك، لكنه منفّر وموحش، بل:."..هناك أماكن جاذبة تساعدنا على الاستقرار، وأماكن طاردة تلفظنا، فالإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره، وتتأصل فيها هُويَّتُه.."(381)

فالشَّاعر الأندلسي أخَذَ مَوقفا من المكان في حَالتي السّلب والإيجَاب، وعبّر عن ذلك بالحَنين إلى الوطن، كحَنين ابن زيدون إلى قرطبَة مثلا أو النفور مِن السّجن والاعتقال كمَا هو شأنُ ابن عبَّاد وابن شهيد وغيرهمَا من أهْل الإمَارة والحُظوة، وقد سُجنُوا.

<u>عناية الأندلسيين بالزمن:</u>

---

380 / أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري ، من أهل شلب ، بلغ منزلة عظيمة عند المعتمد بن عباد وكان يؤثره على خاصته إلى أن دخله الغرور وأراد الملك لنفسه ، فأطاح به المعتمد وقتله.

.انظر ترجمته في : الذخيرة مج 1/ ق 2 / ص 368 ، والمعجب / ص 102 ، والحلة السيراء 2/ ص 13

381 / يوري لوثمان (Lotman, Yuri)**.مشكلة المكان الفني ، ، ترجمة : سيزا قاسم**.ص:83

لم يعد الزمن ذلك الحيز الفيزيائي في توالي وتعاقب الأوقات، بل تعدّد في حياة أدباء الأندلس وشعرائه، كما هو شأن غيرهم، فأحسّوا به في البداية حين امتدّ بهم المكان البعيد عن أرض المشرق، واحتاجوا إلى أيام طويلة وأشهر متعاقبة للرحيل والتنقل، وأتخذوا من الزمن النفسي مطية لذلك تعويضا وتنفيسا. فهو الامتداد الذي لا ينتهي لمن هو قلق منتظر، وليس أسرع منه لمن هوفي سرور وحبور،هذا يتمنى زواله وانقضاءه، وذاك يتمنى مكوثه وبقاءه، إنه:"تعبير عن نفس الشاعر وإنّها تشبه الصور التي تتراءئ للشاعر في الأحلام.."[382].

مثال ذلك ما قاله ابن زيدون :

إنْ يُطِل بُعدُكَ ليْلِي فلكَم***بتُّ أشكو قصرَ الليلِ مَعَكْ[383]

فحين كان مع محبوبه زال الليل وانقضى بسرعة، ولما غاب عنه محبوبه، بات يشتكي من طول الليل. كما أنه يجسدُ الليل أيضا في صورة إنسان يتَّصِفُ بالسَّماح، والجَمَال أيضا.

يقول ابن زيدون(من البسيط)

أمّا رضَاك فعلقٌ ما لهَ ثَمَـنُ *** لو كانَ سَامـَـحَني في وَصْلِهِ الزَّمَنُ

تبكي فرَاقَك عينٌ أنت ناظـرها *** قد لُجَّ في هجْرها ـ مِن هجْرك ـ الوسَنُ

إنَّ الزمَانَ الذي عَهدِي بهِ حَسَنٌ***قَدْ حَالَ مذْ غَابَ عَنِّي وجْهُـك الحَسَنُ[384]

وفي نونيته المشهورة، يستعمل الزمنَ كشخص يبكيهِ وقد كان يضحكه، وما ذاك إلا لتحوّل الحَال من لقاءٍ وقربٍ إلى بعدٍ عن محبوبته.

قال من (من البسيط):

إنّ الزمَانَ الذي قدْ كان يضْحكنَا *** أنسًا بقربِكمُ قَـدْ عادَ يبْكينَا

---

382 /إحسان عباس.فنّ الشعر،دار الثقافة بيروت،ط.3.(د.ت).ص:238

383 /ابن زيدون الديوان .تح/علي عبد العظيم.دار نهضة مصر للطبع والنشر.1980ص:168

384 / الديوان .م.س.ص:180

غِيظَ العِدا مِن تسَاقينا الهَوَى فدَعَوْا*** بأنْ نغَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينا[385]

"الشاعر هو نتيجة عملية خلق متناسبَة مع النسيج الزمَاني، أو أثر الزمَن في النفس، والقصيدة التي يبدعُها الشاعرُ ناتجَة عن دفعات وجدانيَّة محمَّلة بالتراكمَات الزمنيَّة"([386])

ولا أجانبُ الحقيقةَ حينَ أقول إنّ دواوينَ الأندلسيين المتقدّمين أو المتأخرين ،وكتبهم النثرية ،قد تزاحمتْ نصوصها بمفردة الزمن ،وتنوعت فيها ،ولم يخلُ منها سفر ،ولم ينجُ منها قول ،وقد نحا المتأخرون كما المتقدّمين نحوَ من اعتنى من الأمم الأخرى بالزمن، ومن نافلة القول أن الأدبَ لا يُنتَجُ خارج الزمَن أو المَكان.

ولا يكادُ نصّ لابن شهيد، نثرا أو شعرا، يخلو من مفردَة الزمن..فهذا نصّ في الغزل يذكر فيه الليل وكأنه مرتبط به وإن زال بانبلاج الصبح، يغدو ويعود، لارتباطه به في لهوه وأنسِه، وحاجتِه إلى ستائره، لا إلى خيوط الصُّبح .

يقول ابن شهيد:(من الخفيف)

وارتكضْنا حَتى غدا الليلُ يسعَى *** وأتَى الصُّبحُ قاطعَ الأسبَاب

فكأنّ النجُـومَ في الليْلِ جـَـيْشٌ *** دَخَلوا للكمُون في جَوفِ غَاب

وكأنّ الصَّبـَـاح قابضُ طيـْـرٌ *** قُبِضَت كفّـُه برجل غـُـرَاب

وفتوّ سَروا وقد عكفَ الليـــــلُ وأرخـَـــــــى مُغدودَن الأطنَاب

وفتى أرهقتْ ظباهُ المَعـــــــالي*** فثنتـْــــه بالباتـِر القرضَاب

نيّبته أيَّامـُــــــــــــــه وليَاليـــــــــه بظفر مِنَ الخُطوبِ و نَاب

حُوَّلٌ لو رآهُ صرف الليـَــــالي*** لَتوارَى منْ خوفِــه في حِجَاب

ذاقَ أيامَه فكَـــــــانَ سـَــوَاء*** عنـَــــده طعمُ شهدِها والصّابِ[387]

---

385 /الديوان ص:142/

385/إميل توفيق، الطيف الشعري رؤية في تدرج الشاعرية وفق التأثر بالزمن، المجلة العربية، المملكة العربية السعودية، السنة 6، العدد 599، 1402هـ - 1982م، ص102

387 /ابن شهيد .ديوان ابن شهيد ورسائلُه.تح.محي الدّين ديب.م.س.ص:57../الفتوّ:جمع فتى/المغدودن:الناعم /الكمون:الاختفاء./.القرضاب:السيف القاطع للعظام./الصّابي:الحنظل

فلم يخلُ بيتٌ من هذا النص لم يشر فيه إلى الزمن، سواء أكان الليل أو الصبح أو الأيام والليالي، فحادثة الزمن عنده يشعربها تلاحقُه في ليله ونهاره في أيَّامه وليَاليه.

وهذا الإحسَاسُ بالتعاسَة أحيَانا وبالسَّعد أخرى ممَّا تحْمله الأيَّام يذكرهُ ابن شهيد في قصيدةٍ له إلى يحْي بن حمود يستعطفه من السّجن، قال: (من الطويل)

ألا إنّها الأيامُ تلعبُ بالفتى***نُحوسٌ تهادى تارةً وسُعود[388]

لقد كان في عزٍّ وعلو مكانة، فأصبحَ في ذُلّ ، وضَعف مآل.

وهذا ابن صمادح وقد دالتْ دولتُه وانتهتْ إمارتُه، يشكو من الزَّمن يقول:

وقد كنتُ غِرًّا بالزمَان وصـرْفِه** فقـد بانَ قدرَ العِزّ عِنْديَ والذُّل.([389])

فقد اغترّ بالزمن، أيام العزوالقوّة، واليوم ظهرله قدرهذا العزّ الذي كانه، وهذا الذّلّ الذي يعيشه...

إنَّ حادثة الزمن لا تأتي على أحَد إلا أهكته، لا تميّز بين أميرأو خفير، بين غني أوفقير..تمثّلت في كل فنونهم..وتجلّت في كل همومهم، وعايشوها حتّى لكأنها منهم، فكان [الآن] خلاصة الماسبق، ونقطة في الما لحِق..وتجسّدت النكبات كما الأفراح، وصبغَها الزمن بلونه تارة أحمرقانٍ وأخرى أخضر جانٍ .فلم يميّز السِّجن بين من سكنه من الملوك، أو لصٍّ وصعلوك. لقد تشاركوا الزمان، واقتسموا المكان..

الفصل الرابع:

علم الدلالة بين المفهوم والتطبيق:

388 /م.نفسه.ص:64

389 / علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد . المغرب في حكماء المغرب ، ، تحقيق د . شوقي ضيف ، ط ٣ (القاهرة : دار المعارف)(د.ت.) .ص:20/2

قبل الحديث عن دلالات المكان ومثلها دلالات الزمان في نص رسالة ابن شهيد، يجدر الحديث عن مفهوم علم الدّلالة قبل تطبيقه ..

علم الدلالة :

المبحث الأول: مفهوم علم الدلالة:

التطور الدّلالي:

كان اهتمامُ الدّارسين بهذا الموضوع منذ القرن التاسع عشر الميلادي، فدرسوا أسباب تغير المعنى وأشكال التغير وصوره، وأقرّوا أن التطورالدلالي هو تغيير الألفاظ لمعانيها ،ذلك ان هذا التطور هو علاقة اللفظة والمعنى لهما علاقة متبادلة، يحدث التطور الدلالي كلما حدث تغيير في هذه العلاقة، فالمعنى قد يخصّص أويعمّم ، فيتحوّل من المعنى الضيق إلى المعنى المتسع أي من الخاص إلى العام، وقد يكون العكس تماما، وعليه يفضّل بعض علماء اللغة المحدثين استعمال مصطلح تغيُّر المعنى عن مصطلح التطور الدّلالي:" إن الحقيقة العلمية التي لامراء فيها اليوم هي أن كل الألسنة البشرية ما دامت تتداول فإنها تتطور، ومفهوم التطورهنا لا يحمل شحنة معيارية لا إيجاباً ولا سلباً وإنما هو مأخوذ في معنى أنها تتغير إذ يطرأ على بعض أجزائها تبدل نسبي في الأصوات والتركيب من جهة ثم في الدلالة على وجه الخصوص ولكن هذا التغير هو من البطء بحيث يخفى عن الحسِّ الفردي المباشر"(390).

فهذا التغير الدلالي يعتبر أمرًا عاديًّا، وهو قابل لأن يرصده المتتبع بحيث يجد العلامة اللغوية تنتقل من مجال دلالي معيّن إلى مجال دلالي آخر، وهو ما يمكن أن يدخل في مباحث البلاغة اللغوية، كتخلف الكلمة مثلا عن معناها الأصلي الذي وضعت له، فاسحة المجال لدلالة مجازية يحملها السياق أو القيمة التعبيرية أو الأسلوبية، ولهذا

(390)/ عبد السلام المسدي/ اللسانيات وأسسها المعرفية،الدار التونسية للمعرفة/1986]د.ط151] ص38.

يمكن للكلمة أن تأخذ مفهوما جديدا، ويحدث أن ينزاح هذا المفهوم الجديد فاسحا المجال لغيره، وهكذا يستمر في حركية مستمرة من المفاهيم المتوالدة والجديدة، وتتميّز بالبطء في حركيتها والخفاء:" "يتغير المعنى لأننا نعطي اسماً عن عمد لمفهوم ما من أجل غايات ادراكية أو تعبيرية، إننا نسمي الأشياء ويتغير المعنى لأن إحدى المشتركات الثانوية (معنى سياقي، قيمة تعبيرية، قيمة اجتماعية) تنزلق تدريجياً إلى المعنى الأساسي وتحل محله فيتطور المعنى"(391)

هذا التغييرلا يحدث خارج عوامل يجب توفّرها ،هي التي تؤثّر في العناصر اللغوية وتدفعها إلى تغيير دلالتها :"هذه الأنواع الثلاثة مجتمعة تستطيع فيما بينها أن توضح حالات كثيرة من تغير المعنى، ولكنها مع ذلك ليست جامعة بحال من الأحوال ، فهناك عوامل نفسية صِرفة كثيرة لم تُفسّر بعد، فالبواعث الإبداعية أو الخلاقة التي تكمن خلفَ بعض المجازات التي تستعملُ في الشعر أو في الكلام العادي مثلا ،لا يمكن إرجاعها إلى أيٍّ واحدة من العوامل السابقة "(392) وهذه العوامل كما ضبطها الدّارسون:

1/**العامل السوسيو ثقافي:** يقول فايز الداية: "وأما الإضافة الثانية فهي الدلالة النحوية أي أن الكلمة تكتسب تحديداً وتبرز جزءاً من الحياة الاجتماعية والفكرية، عندما تحل في موقع نحوي معين في التركيب الإسنادي وعلاقاته الوظيفية: الفاعلية، المفعولية، النعتية، الإضافة، التمييز، الظرفية، فمثلاً: "خاطبت الطحان في شأن تحسين عمله وزيادة مقدار إنتاجه فكلمة "طحان"في موقع المفعول به تبرز في جهة من العلاقة الاجتماعية هي موقع المحاسبة والمسؤولية وهناك من يحاسبها أو يسألها"(393)..

---

(391) **بيير جيرو (Pierre Géraud)علم الدلالة: ترجمة منذر عياشي،دار طلاس دمشق 1988. [د.ط].ص99.**

392 **/ ستيفن أولمان(Stephen Ullmann).دور الكلمة في اللغة: ترجمة كمال محمد بشر، مكتبة دار الشباب. [د.ت]. [د.ط] ص157.**

393 فايز الداية. علم الدلالة العربي- النظرية والتطبيق- م س . ص21.

يتمّ الانتقال من الدّلالة الحسيّة إلى الدّلالة المجردة،لطبيعة التطوّر في الفكر الإنساني، فيمكن للدّلالة الحسية أن تترك مكانها نهائيا للدَّلالة المجَرّدة:"..وقد تظل مستعملة جنباً إلى جنب مع الدلالة التجريدية لفترة من الزمن.."[394]..ففي البداية كان النمو ناتجا عن الدلالة الحسية للأشياء وبالتالي تسميتها بحسب ما توافق على وضعه، وحين تطور العقل تدريجيا، تم انحسار تلك الدلالات ،وحلّت محلّها الدّلالات التجريدية. وبحسب استعمال المجتمع للفظة يمكنها أن تتسع أو تضيق، وهو من طبيعة التطور الثقافي في المجتمع أيضا، كما هو شأن مفردة "صبأ" قبل الإسلام وبعده، ومفردة "ديوان" إداريا وثقافيا..

وكذا ما كان من شأن ألفاظ كالصلاة والزكاة والحج، قبل الإسلام وبعده، وما كان وما يزال من استعمال مفردات يتداولها الإنسان في حياته اليومية كالبرميل والسفينة، فالبرميل من مفهوم إناء مرتبط بالماء وتجميعه إلى مفهوم اقتصادي مرتبط بالبترول،وكذا السَّفينة من مَركبٍ بَحري أو مَرْكَبٍ حيواني في الصَّحراء يرتبط مباشرة بالجمل إلى السَّفينة الفضائية..وعلى الرغم من هذا التطور الثقافي والفكري في المجتمع لكنها مازالت لها دلالاتها القديمة ومعانيها التي وضعت لها بداية.

2-**<u>العامل النفسي</u>**:

ومن خلاله نجد المجتمع أحيانا يلغي كلمة من قاموسه نتيجة التطور الحاصل فيه، ولخروجها عن المألوف،فتوحي بمعاني الكراهية أو النفورأو التقزز منها، ولاتناسب الذّوق العام وهذا ناتج عن تطوّر علوم التربية،ونمط تفكير المجتمع الجديد، فيلجأ إلى تغييرها بأخرى تناسب الذّوق العام،وهذا تحايل في التعبير أو ما يعرف بالتلطف:"وهو في حقيقته

---

[394]/ د. إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، م.س.ص161-162.

إبدال الكلمة الحادة بالكلمة الأقل حدة، وهذا النزوع نحو التماس التلطف في استعمال الدلالات اللغوية هوالسبب في تغير المعنى(395)."..فإذا كانت الكلمات أفعالا كما يقولون، فإنَّ المفردة تدلّ سلوكيا على قائلها وتحمل جزءا من كيانه النفسي أيضا والخلقي..وهذا المخطط يبيّن الأمر :

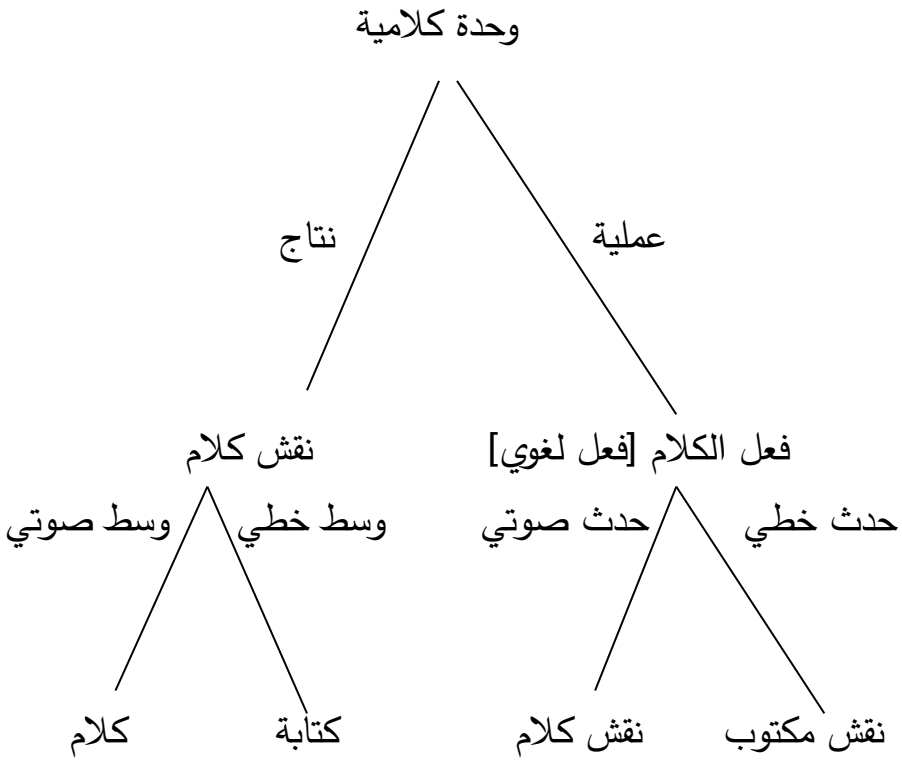

فالكلمات ليست معزولة عن كيان صاحبها النفسي ،إنها في الصوت أو في الخط، حالة دالة..ولهذا رأى أوستن أن الوظيفة الوصفية الفلسفية المهمة الوحيدة للّغة هي إنتاج عبارات خيرية صادقة أو كاذبة (396)

3-العامل اللغوي :وقد يُفتقد اللفظ المناسب الذي يعبّر عن الدلالة الجديدة ،فيلجأ علماء اللغة إلى ما يعرف بالافتراض اللغوي سدّا للحاجة في هذا المجال، وهو ما يعرف قديما أيضا بالاشتقاق، وقد يلجأون إلى ابتداع دلالة جديدة أو نقل لدلالة من حقل لحقل آخر،

---

(395) علم الدلالة .أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع الكويت 1982.، ص 240.

396 /ينظر كتاب:اللغة والمعنى والسياق،تأليف:جون لاينز،تر/ د.عباس صادق الوهاب.دار الشؤون الثقافية العامة.بغداد.1987.ط.1.ص:191/190

كقولنا:"أرجل الكرسي"وهي ليست بالأرجل ،لأن معنى الأرجل مرتبط بالمشي، والكرسي لا يمشي،إنَّما هي دعَائمٌ وقوائمَ. وعليه فالكلمة تفترضُ معنًى لم يكنْ موجودا في إطار الخطاب اللغوي فتصبح ذات دلالة إضافية متداولة مع مجموع المتخاطبين :"إني لا أرى بأساً من التكرار فأقول مجدداً إني أعتقد – مع سوسير– بضرورة وجود مفهومين للقيمة البنيوية والمضمون الدلالي، ولا تنفي هاتان القيمتان بعضهما بعضا بل تتكاملان، فالكلمة من جهة أولى منفتحة على إمكانات من العلاقة تعدها بنية النظام اللساني، ولكن من جهة أخرى كلما تحققت العلاقات الافتراضية ضمن الخطاب وعرفها المتكلمون، نجد أن أثر المعنى الناتج عنها يتخزن في الذاكرة وانطلاقاً من هذه اللحظة يتعلق المعنى بالإشارة ويعطيها مضمونا.."(397).

وفي كتاب [دلالة الألفاظ] يعقد الدكتور ابراهيم أنيس فصلا بيَّن من خلاله أسباب تغيير المعنى ومظاهره نجملها في مايلي:

1/ تخصيص الدّلالة: وهو تحوّل معنى الدّلالة من الكلي إلى المعنى الجزئي أو تضييق مجال الاستعمال لها.

2/ تعميم الدلالة ويعني بهاأن تصبح عدد ما يشير المعنى في المفردة إليه أكثرمما كان في السابق، ويتّسع مجال استعمالها..ولا يضيق.

4.3/ رقيُّ الدّلالة وانحطاطُها: فيصنفه علماء الدّلالة تحت مصطلح:"نقل المعنى" فيمكن للكلمة ان تتردّد بين الرقي والانحطاط في قيمة الاستعمال الاجتماعي، بل إنّنا نجد كلمة واحدة تصعد إلى القمة ثم تهبط إلى الحضيض في زمن قصير، فكانت دلالة طول اليد على الكرم والسخاء والعطاء، وهي قيم عليا، لكنها انحطت عندما دلّت على السارق مثلا..

5/ تغيير مجال الاستعمال: ويمثّل علماء الدّلالة لذلك بكلمات منها رسول" التي كانت تدلّ على المبعوث مثلا برسالة ما، بين حاكم وحاكم أو شخص وآخر، فتمّ تغييروتحويل

(397)بيير جيرو .**Pierre Géraud** علم الدلالة، ترجمة منذر عياش، م.س. ص43.

مجالها الاستعمالي إلى "النبي" فأصبح يتبادر إلى الذّهن مباشرة عند سماعها شخص [النبي] ضمن الخطاب اللغوي العادي(398).

موضوعات علم الدلالة:

ويقصد بها مجالات علم الدّلالة، فنجد بأنه العلم الذي يشمل:

"أ: معاني المفردات:

يعرف ألمان(Ullmann.S)semantics بأنها"دراسة معاني الكلمات."(399) وهوكذلك :

1/معاني المفردات والتراكيب:

وقدبيّن بعضُ الدّارسين أن من مسوغات إدخال دراسة معانيا لتراكيب في علم الدّلالة.." (400) واستدلّ على ذلك ببعض التراكيب التي لها ذات الكلمات لكنها تختلف في معانيها باختلاف مواقع المفردات مثل:

–محمد يقرأ كتابا عن الدكتور سعد الله

– الدكتور سعدالله يقرأ عن محمد كتابا

– كتابا يقرأ محمد عن الدكتور سعد الله

- عن الدكتور سعد الله يقرأ محمد كتابا

وهكذا، فعلى الرغم من وجود ذات الكلمات المشَكِّلة للجُمل:"كتاب/محمد الدكتور/عن/يقرأ/سعد الله.."لكنها تختلف في المَعنى من تركيب إلى آخر،وفي هذا دلالة أن وراءَ معاني المفردات يكمُن معنى آخر يظهر بموقعه في التركيب.

وهي أيضا:"عرضة للإشكالات نفسها التي تتعرض لها الكلمات المفردة، ومن هذه الإشكالات الدّلالية:

398 / أحمد مختار عمر، انظر علم الدلالة، م.س. ص243-245-248

399 / سليمان خماش.المعجم وعلم الدّلالة.موقع الكتروني .ص: 8/ http://www.angelfire.com/tx4/lisan

400 /المصدر نفسه.ص:9

الاشتراك الهيوميني:وهو في الكلمات "دلالة كلمات متشابهة في اللفظ ومختلفة في الأصل على معان مختلفة" ومن أمثلة في الكلمات المفردة:

كلمات:غرب"الجهة" غرب"الدّلو"

كلمات:الجد" أبو الأم،أو أب الأب .الجد" الحظ.الجد"الشاطئ..

كلمات السائل" الذي يسأل،السائل"الذي يسيل(لاحظ أننا كررنا الكلمات لأنها مفردات مستقلة بمعناها وليس لأنها مفردة واحدة).

والاشتراك الهيوميني قد يكونُ في الجُمَل، فيكونُ تعريفه :"دلالة عدد من الجُمل المتشابهَة في اللفظ المختلفة في الأصْل على مَعان مختلفة" ومِن أمثلته في الجُمَل:

1/ زيارة الأقارب مزعجة" والتي قد يكون أصلها:زيارة الأقارب لي مزعجة لي"

2/ زيارة الأقارب مزعجة. والتي قد يكون أصلها : زيارة الأقارب لي مزعجة لهم"

3/ زيارة الأقارب مزعجة.والتي قد يكون أصلها:"زيارتي للأقارب مزعجة لي"

4/ زيارة الأقارب مزعجة"والتي قد يكون أصلها:"زيارتي للأقارب مزعجة لهم"

1/ أنا لا أريد نصحك" التي قد يكون أصلها:"أنا لا أريد أن أنصحك"

2/أنا لا أريد نصحك" التي قد يكون أصلها:"أنا لا أريد أن تنصحني"

1/أطعمت عشرين رجلا وامرأة التي قد يكون أصلها:أطعمت عشرين رجلا وأطعمت امرأة واحدة.

2/أطعمت عشرين رجلا وامرأة.التي قد يكون أصلها مثلا:أطعمت خمسة عشررجلا وأطعمت خمس نساء"

3/ أطعمت عشرين رجلا وامرأة، التي قد يكون أصلها:"أطعمت عشرين رجلا وأطعمت عشرين امرأة"

1/أخبر صالح عليّا أنه ناجح .التي قد يكون أصلها:أخبر صالح عليًّا أنَّ صالحًا ناجح"

2/أخبر صالح عليًّا أنه ناجح، التي قد يكون أصلها:"أخبر صالح عليًّا أن عليًّا ناجح"

3/الطالب الفائز أخوه ناجح، يمكن اعتبار أن الخبر(أخوه ناجح) فتكون الجملة موزعة بهذا الشكل:

*/ [الطالب الفائز] [أخوه ناجح]

*/ الطالب الفائز أخوه ناجح. يمكن اعتبار [ناجح] هو خبر الطالب الفائز، فتكون الجملة بهذا الشكل:

1/ الطالب الفائز أخوه [ناجح]..."[401]

المبحث الثاني:

الدال والمدلول: تعتبر مسألة الدال والمدلول من أهم القضايا التي تناولها علماء االدلالة واللسان، وحاولوا إيجاد العلاقة بينهما، فقد كانت مقتصرة على اللفظ وحمولته المعنوية، ولكنها اتسعت بعد ذلك لتنتقل إلى الدال مهما كان نوعه لفظا أوشيئا مرئيا في الطبيعة كإشارة، أو مسموعا كصوت، أو منظورا كضوء..ثم اللغة هي مجموعة علاقات تربط الدال بمدلوله وفق نظام معيّن، لأن الدّال لا يحمل معناه في ذاته ما لم يكن هناك نسق نظامي لغوي :" اللغة هي مجموعة من العلاقات الثنائية القائمة بين جملة العلامات المكونة لرصيد اللغة ذاتها، وعندئذ نستسيغ أيضاً ما دأب عليه اللسانيون من تعريف العلامة بأنها تشكُّلٌ لا يستمد قيمته ولا دلالته من ذاته، وإنما يستمدهما من طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين سائر العلامات الأخرى"(402).

وقد أطلق دي سوسير مصطلحا جديدا هو:"الدّليل اللساني" على طرفي العملية الدّلالية(الدال والمدلول).

إن إيجاد العلاقة بين الدّال والمدلول لا يمكن ضبطها إلا إذا أمكننا أن نتعرف على خصائص كل منهما، فالدّال اللغوي مثلا لا يمكنه أن يدلنا على المعنى الذي يريده في العالم الخارجي عن الذّهن، إذا لم يعدنا إلى الشيئ الذي تشير إليه العلامة اللسانية،

---

401 /المصدر نفسه ص:10/9

(402) عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، ص30.

التي من خلالها نمرّإلى فهم المدلول، وهذا حسب النموذج الذي وضعه دي سوسير: وفق ثلاثة شروط:

1 /أن تكون العلامة اللسانية دالة على المعنى

2/ أن تكون مستعملة في مجتمع يفهمه

3/ أن تنتمي إلى نظام من العلامات اللغوية.

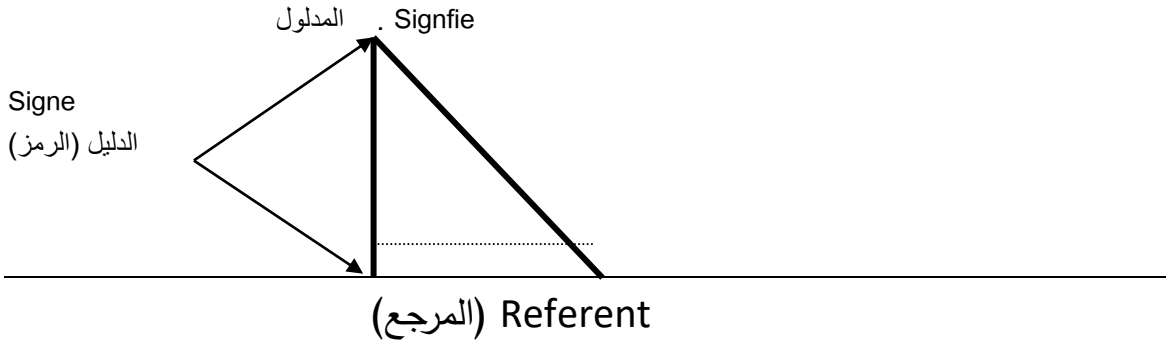

"فإذا مثّلنا على ذلك بالرمز اللغوي"نمر" تأخذ ترسيمتنا الشكل التالي *:*

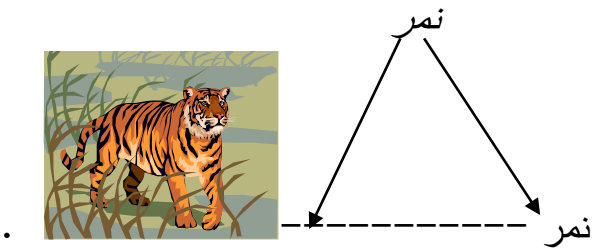

والتنقيط في المثلث يشير أن لا علاقة مباشرة بين الدّال وهوهنا/نمر/والمرجع وهو هنا الحيوان الذي *نحن بصدده.."* [403]

ولتفسير هذا البيان :فقد جعل المرجع هو الشيئ الخارجي الذي يحيلنا عليه الدّليل اللساني. وهو عالم غير لغوي وهو لا يحدّد فقط بالأشياء المادية المحسوسة، فالكثير

[403] /جوزيف شريم،التعيين والتضمين في علم الدلالة"مجلة الفكر العربي المعاصر.مركز الإنماء العربي بيروت.العددان 89/88شباط/آذار 1982

من المراجع لاتوجد إلا في إطار الخطاب اللغوي مثل"الحب""الصدق"تسجّل في الخطاب اللساني، ولكن قيمتها الحقيقية لا تكون مجسّدة إلا داخل المجتمع اللغوي.(404).

وقد تفرعت حديثا المباحث الدّلالية، لتشمل العناصر الثلاثة:الدال والمدلول والمرجع. فقد رأى سالم شاكر في كتابه :[مدخل إلى علم الدّلالة] بأن:"المدلول يتحدّد بواسطة الوحدات المجاورة له، وكل تغيير يصيب وحدة ما من وحدات النظام يمكن أن ينعكس على مجموع أو جزء من هذا النظام، فقيمة وحدة ما، هي ذات طبيعة علائقية، وهذا لا ينفي على كل حال الوجود الإيجابي للمدلول كوحدة معجمية.." (405)

ويعتبر هذا التقسيم تيسيرا لفهم منهجي لعلم الدّلالة، ويوضِّح موريس أبو ناضر العلاقة التي يقيمها المدلول الأشياء وعلاقته ببقية المدلولات داخل السياق اللغوي يقول:" يعرف علم المعاني أو علم الدلالة بأنه العلم الذي يعنى بدراسة الدلالات الألسنية، وعلى الأخص الجانب المعنوي من هذه الدلالات، أي المدلول، والمدلول يدرس على ضوء هذا العلم من عدة جوانب:

أ–الجانب الأول: يتمثل في العلاقات التي يقيمها المدلول مع الأشياء التي يومئ إليها أو يعبر عنها (المفاهيم – العواطف– معطيات العالم الخارجي).

---

(404) linguistique francaises, intiation a la problematique structurale tomel j. L. chiss. J. filliolet, d p. 118-119 maigueneau

405 / سالم شاكر مدخل إلى علم الدلالة. ترجمة محمد يحياتين ، ص21

ب–الجانب الثاني: يتمثل في العلاقات التي يقيمها المدلول مع غيره من المدلولات.

ج–الجانب الثالث: يتمثل في العلاقات التي تنشأ بين السمات الأساسية التي تتكون منها المدلولات(406).

فالدّال الواحد قد يكون له أكثر من مدلول داخل السياق اللغوي الواحد، ويمكنه أن يأخذ معنى آخر يكون أساسيا أو ثانويا، تصريحيا أو إيمائيا، كما يرى ذلك موريس جيروأن الدّال يحمله المعنى التصريحي المباشر والمعنى الإيمائي، فهي قابلة لأن تحدث تداعيات أثناء الاستعمال ،لأنها تستدعي قيما اجتماعية وثقافية أو حتى قيما انفعالية، تحدّد شخصية قائلها وبعضا من ملامح التكوين النفسي فيه.(407)

وقد صنّف الدكتور موريس أبو ناضر المدلولات معتمدا على عدّة طرق منها:

1-الطريقة الشكلية: وهي تعني تصنيف المدلولات وفقاً للشكل الذي يجمعها في بنية واحدة بتفرعها عن أصل واحد يبرز القرابة بينها مثل: علم– يعلم– تعليم– معلم..

2–الطريقة السياقية: وتفيد أن المدلولات تصنف باعتبار المعنى الذي ترد من خلاله في السياقات المختلفة.

3–الطريقة الموضعية: وهي تعني أن المدلول يتحدد من خلال الموضع والموقف الذي يكون فيهما المتكلم.

4–الحقول الدلالية: وهي تكشف عن القرابة المعنوية بين المدلولات .

5–التحليل المؤلفاتي: وهو يفيد أن المدلول يعيّن انطلاقاً من مؤلفات الكلمة الأساسية أو ما يطلق عليه باللكسيم "مثل لكسيم" امرأة يحوي المؤلفات التالية:

---

(406) انظر مقال: مدخل إلى علم الدلالة الألسني د. موريس أبو ناضر، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 18-19، السنة 1982، ص34.

(407) بيار جيرو،(Pierre Géraud.63-62-61 ص) انظر علم الدلالة، ترجمة د. منذر عياشي

أنثى +بالغ +بشر(408).

ولما كانت الموجودات في العَالم الخارجي تمتَاز بالتصنيف المتعَدّد والمتدَاخل حتَّى داخل الحَقل المفاهيمي الواحِد الذي تشترك فيه عدة موجُودات في التماثل والتقارب، فقد أجّلت الحسم في الجدل الدّائر بين علماء الدّلالة على دراسة المرجع:" أن التحديد المرجعي يقع في الخطأ اعتبار علاقة: دال– مدلول علاقة تسمية (...) في حين يتعيَّن علينا أولا عند إقدامنا على وصْف المَدلول، استنباط الصِّفات المشتركة التي تلازم (المراجع) التي قد ينطبق عليهَا (دليل) ما فكوننَا قَد شَاهدنا كرسِيّاً واحداً، لا يخبرنا بالخصائص (الفيزيائية والوظيفية) اللصيقة بمجموعة لا متناهيَة من الأشياء التي تُكوِّن جنسَ الكرسيَّ"(409) وإلى الفكرة ذاتها يشير كولردج بقوله: "ولا يتضمَّن" معنى "اللفظة في رأيي مجردَ الموضوع الذي يقابلها بل يشمل أيضاً جميع الارتباطات التي تبعثها اللفظة في أذهاننا"(410).

إنّ الخلية الحيويَّة المشرفة مباشرة على التوالد الدّاخلي في اللغة هي الاعتباطية في الاقتران العرضي بين الدّال والمدلول، فمن خلاله يتمُّ استحداث تراكيبَ وصيغَ جديدة في اللغَة وابتكار مدلولات لهَا :".. كل ذلك يُعزَى إلى سِمة العَرَضيَّة في حُصُول الألفاظ دوالَّ على المَعَاني ولهذا يتسنَّى الجَزم بطواعيَة الألفاظ على عبور المجالات الدّلالية واحدًا بعد آخر وبطواعيَة المدلولات على ارتدَاء الألفَاظ بعضُها مكان بعض ،كما تسنّى البتّ بحكم علاقة الإنسَان باللغة وموقعَه الفاعل منها، في أمر استحداث المركّبات الدّلاليَّة أصلا بابتكار المَدلول الذي لم يكن ،ثم صنَاعَة دالّ له، فيلتحمَان ومن التحامِهما يتكوَّنُ مثلثٌ دلالي جديد.." "(411). وتعتبر الجزر اللغوية

(408) / موريس أبو ناضر . مدخل إلى علم الدلالة الأنسي.: مجلة الفكر العربي المعاصر،العدد 19/18، السنة 1982، ص34-35.
(409) سالم شاكر مدخل إلى علم الدلالة /ترجمة محمد جباني، ، م.س. ص23.
(410) محمد مضطفى بدوي . كولردج .(koulrdj.S.T)سليلة نوابغ الفكر الغربي.دار المعارف ط.1. 1998/ .ص97
(411)عبد السلام المسدي اللسانيات وأسسها المعرفية، م.س.ص95.

وما اكتسبته من ثروة لغويَّة الدّليل على ذلك.

إن معيارَ الاعتباطيَّة تتحدّد على أساسِه العمليَّة التواصلية و الإبلاغية،لأن النظام التواصلي لا يبلغ مداه وغايته ما لم تتحقّق العلاقةُ الاعتباطيَّة بكثافة في لغة الخطاب:" إن مقبولية العلاقة بين الدال والمدلول في كل نظام تواصلي على أساس الاقتران المنطقي، تتناسب تناسباً عكسياً مع طاقة ذلك النظام المعتمد في الإبلاغ(...)

فكلما ثقلت كثافة التعسُّف الاقتراني في أي نظام إخبَاري، نزع نسقه الدلالي إلى طاقته القصوى. فالشحنَة الاعتباطيَّة فِي كل واقعَة تواصليَّة هي المَوْلدُ الدَّائم لسِعة القدرة الإبلاغية التي تلتئم فيها"(412).

<u>أقسام الدلالة</u>

لقد أثار علم الدّلالة الدارسين من خلال بحثهم في علاقة الدال بالمدلول إلى تقسيم الدّلالة وأنواع المعنى، ورأوا أن المعنى لا يمكنه أن يكون في كل الكلمات التي ترد مفردة أو في السياق، يمكن أن نستخرج منها المعنى دون العودة إلى القاموس ، وميّزوا بين معانٍ كثيرة أهمها:

1/ المعنى الأساسي أو التصوري: وهو المعنى الذي تحمله الوحدة المعجمية حينما تَرِدُ مفردة

2/المعنى الإضافي أو الثانوي: وهو معنى زائد على المعنَى الأسَاسي يُدرَك مِن خلال سياقِ الجُمْلة .

3/المعنى الأسلوبي: وهو الذي يحدد قيم تعبيرية تخص الثقافة أو الاجتماع.

4/المعنى النفسي: وهو الذي يعكس الدلالات النفسية للفرد المتكلم.

5/المعنى الإيحائي: وهو ذلك النوع من المعنى الذي يتصل بالكلمات ذات القدرة على الإيحاء نظراً لشفافيتها(413).وهذا التقسيم مردّه أن القيمة الدلالية للوحدة المعجمية ليست

(412) م.س.ص74

(413) د.أحمد مختار عمر: علم الدلالة، م.س. ص 36-37-38-39.

دلالة ثابتة، لكنها تخضع لكل استعمالات هذه الصيغة في السياقات المختلفة، والدّلالة إما أن تكون عرفية، وإما أن تكون طبيعية أو تكون عقلية، وكان التصنيف بناءً على أداء السياق للمعنى :" فالكلام إما أن يساق ليدل على تمام معناه، وإما أن يساق ليدل على بعض معناه، وإما أن يساق ليدل على معنى آخر خارج عن معناه إلا أنه لازم له عقلا أو عرفا"(414) .والدّلالة الوضعية أوالعامة هي مجموع الدلالات الثلاث (المطابقة التضمن ودلالة الالتزام). فالوضعية هي اللفظية، ويمكن أن نبينها بالمخطط التالي:

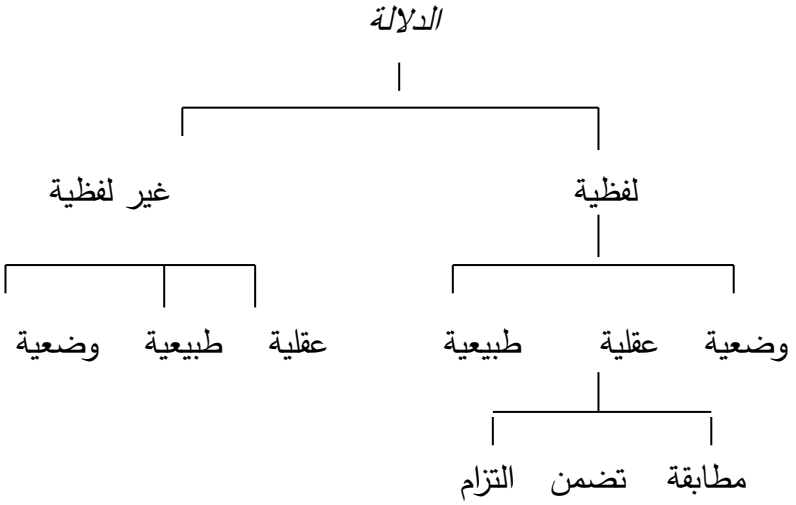

وعلى هذا فالدلالة اللفظية لها أركان ثلاثة هي :

اللفظ وهو نوع من الكيفيات المسموعة، والمعنى الذي جُعِلَ اللفظ بإزائه، ثم إضافة عارضة بينهما هي الوضع.:" اللفظ، وهو نوع من الكيفيات المسموعة، والمعنى الذي جعل اللفظ بإزائه، وإضافة عارضة بينهما هي الوضع، أي جعل اللفظ بإزاء المعنى، على أن المخترع قال: إذا أطلق هذا اللفظ فافهموا هذا المعنى"(415)

والدلالة الوضعية ،هي الدلالة العرفية أو الاصطلاحية، حيث يتواضع الناس في اصطلاحهم على دلالة شيء ما، وبعد ذلك فالدلالة الوضعية يقتضي لإدراكها العلم

(414) عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة.دار القلم.دمشق ط.4 . 1993 / ص27

(415)التحتاطي / شرح مطالع الأنوار: ص28. نقلة عادل الفاخوري في كتابه علم الدلالة عند العرب، م.س.ص16.

المسبق بطبيعة الارتباط بين الدال ومدلوله، ففي الدلالة العرفية يقول المسدي: "لا يتسنى للعقل البشري من تلقاء مكوناته الفطرية ولا الثقافية أن يهتدي إلى إدراك فعل الدلالة إلا إذا ألم سلفاً بمفاتيح الربط بين ما هو دال وما هو مدلول، وهذا الإلمام ليس بفعل الطبيعة ولا هو من مقومات العقل الخالص ولكنه من المواضعات التي يصطنعها المجتمع"(416).

أما الدلالة العقلية وتسمى كذلك الدلالة المنطقية، فهي التي يكون فيها العقل أمر إدراك طبيعة العلاقة التي تربط الدال بمدلوله، ويمثل لتعريفها عادة بدلالة الدخان على النارإذ يتم استحضار الدلالة الغائبة بحقيقة حاضرة والذي يربط بين الأمرين هوالعقل وعلى هذا سميت الدلالة المستحضرة بالدلالة العقلية، يحددعبد السلام المسدي هذه الدلالة وطرق إدراكها بقوله: "وفيها (أي الدلالة العقلية) يتحول الفكرمن الحقائق الحاضرة إلى حقيقة غائبة عن طريق المسالك العقلية بمختلف أنواعها"(417)

وأما الدلالة الطبيعية فيقول عادل الفاخوري معرفا لها:" هي الدلالة، يجد العقل بين الدال والمدلول علاقة طبيعية ينتقل لأجلها منه إليه، كدلالة الحمرة على الخجل والصفرة على الوجل"(418)

وعلم الدلالة على الرغم من ظهوره المتأخر فهو يمثّل قمة الدراسات اللغوية، لأنه يتناول كلّ ماتعلق بالرمز سواء تعلق بالأمر الألسني المساعد على التواصل كالإيماءات وغيرها..:**"والعلامة اللغوية أوالرمز الألسني على هذا الأساس تكون قائمة على ركيزتين أساسيتين هما الدّال والمدلول،تربطهما علاقة اصطلاحية،هي بمثابةالسبب بالمسبب"وهي تصدرعن توافق بين مستعملي العلامة"الذين يقرّون بوجود علاقة بين الدّال** والمدلول.." (*419*)

---

(416)عبد السلام المسدي اللسانيات وأسسها المعرفية،م.س. ص52

(417) المرجع السابق، ص47

(418) عادل الفاخوري علم الدلالة،م.س: ص42

419 /صفية مطهري . الدلالة الإيحائيةفي الصيغة الإفرادية.منشورات اتحاد الكتاب العرب. 2003 دمشق. .م.س.ص:27

الباب الرابع: دلالات المكان ودلالات الزمان في التوابع والزوابع.

الفصل الأول:

1/ دلالات المكان في الرسالة.....167

الفصل الثاني:

2/دلالات الزمان في الرسالة..:.....191

الفصل الثالث:

أيقونة المكان وأيقونة الزمان عند ابن شهيد:

أ/ أيقونة المكان:.....203

ب/**أيقونة الزمن**:.....208

الفصل الرابع :

خصائص المكان وخصائص الزمان في التوابع والزوابع:.

أ/ خصائص الزمان:.....230

ب/خصائص المكان:. 241

دلالات المكان ودلالات الزمان في التوابع والزوابع

1/ دلالات المكان في الرسالة:

أولا :إحصاءُ مفردات المكان كما وردت في الرسالة :

وحتى نقف على المكان في الرسالة يجدر بنا أن نرصده ،ونذكره كما يلي:

1/" وقد أخذ بأطراف السماء.."ص:87

2/ " فكلما رأى ثغرا سدّه بسهاها ،أو لمح خرقا رمّه بزباناها.."87([420])

3/"..وأخذت في رثائه في الحائر.."ص:88 / ([421])

4/ "فإذا أنا بفارس على باب المجلس.."ص:89

5/"..أَجارِع من داري هوى لهواها.."ص:90 / ([422])

6/"..ويقطع الدّوّ فالدّوّ :الفلاة

7/ "..حتى التمحتُ أرْضًا لا كأرْضِنَا.."ص:91

8/" حللتَ أرض الجن أبا عامر...ص:91

9/ "...وَادٍ من الأودية،تتكسر أشجاره،وتترنم أطياره.."ص:91

10/" شجته مغانٍ من سليمى وأدؤر.."ص:92 ([423])

11/" ومن قبة لا يدرك الطَّرْفُ رأسَهَا.." ص:92

12/ تكلفتُه والليلُ قد جاش بحرُهُ .." ص: 92

13/ " فجزعنا واديَ عتبة" ص:93

---

420 / الزبانى:واحد الزبانيين ،وهما كوكبان نيران..

421 / الحائر :البستان..

422 / أَجَارع:جمع أجرع: وهو الكثيِّب له جانب الرمل..وجانب حجارة..

423 / الأدؤر :جمع دار

14/ "انتهينا إلى غيضة :شجرُها شجَرَان"..ص:93

15/"..فرأينا عينًا معينةً تسيل"ص:93

16/ " لسعدى بحِزَّان الشُّرَيْفِ طلول.."ص:94([424])

17/ " نشاوى على الزَّهْرَاءِ ، صرعى كأنهم..."ص:95 ([425])

18/".منازلهم تبكي إليك عفاءَها.." ص:97

19/"..بدارتها الأولى نحيي فَنَاءها.."ص:97

20/"هززتك في نصري ضحى،فكأنني..هززت، وقد جئت الجبال ،حراءها..ص:97

21/"..حتى انتهيت إلى شجرةٍ غيناءَ، يتفجر من أصلها عين كمقلة حوراء.."ص:98

22/ " ومالذي أسكنك قعر هذه العين يا عتاب؟ص:98

23/ " يودّ الفتى منهلاً خاليا...وسعدُ المنِيَّةِ في كلّ وادٍ..ص:99

24/" وردت يفاعا وَبِيلَ المُرَادِ" ص: 100.. [[426]]

25/" هوى قمرَا قيس بن عيلان آنفا *** وأوحش من كلبٍ مكانُ زعيم..ص:100

26/ " فضعت بدار منهم وحريم..ص:101

27/ " فثقفتها حولا كريتا ومربَعا..ص:101 .[[427]]

28/ "ودير حنة بذاك الجبل.."ص:102 [[428]]

29/ ".. قدامه ناورد.."..ص:102 .[[429]]

30/" همّة في السماء تسحب ذيلا.."ص:103

31/"إلى أصل جبل حناء...من منازل أبي نواس.."ص:104

---

424 / .. الشريف:قال صاحب القاموس إنه أعلى جبل ببلاد العرب(!!) وفي الأصل كما يرى المصحح بطرس البستاني:الشديف نقلا عن ديوان طرفة بن العبد..

425 / ويعني بالزهراء المدينة العامرة قرب قرطبة.

426 / اليفاع : التل..وهو الموضع الذي يطلب فيه الكلأ (اللسان مادة ي.ف.ع.)

427 / الحول الكريت:السنة التامة..المربع:موضع يقيمون فيه في الربيع..وهنا بمعنى مدة الإقامة.." ثم غاص في العين"

428 / دير بظاهر الكوفة كان يزوره أبو نواس،وذكره في خمرياته..وهنا بوادي الجن مكان يأوي إليه تابع شاعر الخمريات..

429 / ناورد :كلمة فارسية،تعني مكان لعب الخيل والعروض البهلوانية

32/.. فسرنا نجتاب أدياراو كنائسَ و حاناتٍ..ص:105/104
33/"أوهل صرنا بذات الأكيراح ؟"ض:105([430])

34/" ولربّ خان قد أدرتُ بديره..."ص:106

35/" هبّ من مرقده منكسرا"..ص:108

36/" وإذا بتّ به ،في روضة ..."ص:108

37/..فتراني الدهر أجرى بالكدى..ص:108..[[431]]

38/"وإذا الأسد حمَت أغيالها..."ص:109.. [[432]]

39/ثم قال:"أنشدني جحدريتك من السجن..فأنشدته..ص:109..[[433]]

40/"..مقيم بدار الظالمين طريد"ص:110

41/...فحلّت بواد كثير السباع..ص:111

42 /..وأمال عنان الأدهم إلى طريق..ص:111

43/ "وحلقت الخضراء في غرّ شهبها...كلجة بحر كللت باليعالل"ص:113..[[434]]

44/على شط واد للمجرة سائل.."ص:113

45/ "وفهم لو البرجيس جئت بحدّه..إذًا لتلقاني بنحس المقاتل"ص:114..[[435]]

430/الأكِيراح:تصغيرأكراح،ومفردها:كِرح،وهي لفظة سريانية معناها:الكوخ الصغير ،وهو مأوى الراهب ،وقد وردت اللفظة في شعر أبي نواس..ويذكره ابن شهيد نصا في الرسالة :

يادير حنة بذات الأكيراح *** من يصحُ عنك فإني لست بالصاحي؟

431 / الكدى :الأرض الصلبة الغليظة..

432 / الأغيال:العرين..

433 / الجحدرية قصيدة قالها في جحدر وهو رجل من بني جشم بن بكر كان من مخيفي السبيل بأرض اليمن فقبض عليه الحجاج وسجنه،ثم خيّره بين أن يضرب عنقه أو يرميَه إلى الأسد ..فاختار الرجل أن يعطيَه سيفا ويرميَه إلى الأسد..ففعل الحجاج، ورماه إلى أسد جائع..لكن جحدر قضى على الأسد،وأُعجِب به الحجاج وعفا عنه، وجعله من أصحابه..

434 / اليعالل : السحاب الأبيض..

46/ ومنها أيضا: هاتيك دارهم فقف بمعانها"ص:114 ..[436]

47/ "على مفرق البدر.."ص:114

48/جمعت لك الخطباء بمرج دهمان.."ص:115

49 /..فأفرجوا حتى صرنا مركز هالة مجلسهم.."ص:115

50/وسرنا إلى مكان خال..كوصف المهلبي:

خان تطيب لباغي النسك خلوته...وفيه ستر على الفتّاك إن فتكوا.."ص:121

51/..ووصل خورنقها بسديرها..ص:122.. [437]

52/..وألقت به في سرقسطة العصا..ص:123

53/سكان خيبر..ص:124

54/ "..ليس من شعر يفسر،ولا أرض تكسّر.."ص:125

55/ "..انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البَيَاتِ.." ص:128

56/نكتة بغدادية أتى لك بها يا فتى المغرب..ص:128

57/انصباب الكوكب من سمائه ، العين حانوته.."ص:128

58/"ضرب زبدة الحقب الأرض برجله،فانفرجت له عن مثل بَرهوت.ص 129[438]

59/ "..وحطّ بجرعاءَ الأبارق ما حطّا.."ص:129 ..[439]

---

435 / البرجيس:كوكب المشتري..المقاتل:يقصد به كوكب المريخ لأنه يرمز إلى الحدة والقتال..بينما المشتري يرمز إلى السعد..

436 / معانها :منزلها

437 / الخورنق..والسدير : قصران بالحيرة للنعمان..السدير :أرض في اليمن ،ونهر بناحية الحيرة(كما ورد في المنجد)

438 / برهوت:بير وقيل هي واد بحضرموت..

439 / الجرعاء:الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل،أو الكثيب جانب منه رمل وآخر حجارة..الأبارق:أرض فيها رمال وحجارة وطين..

60/"فألقت على غير التلاع به مِرطا"ص:129 .. [440]

61/"ومازال يروي التّرب حتى كسا الربى...درانك، والغيطان من نسجه بسطا"ص:129..[441]

62/" تذكّر روضا من شويٍّ وباقر..."ص:130.. [442]

63/"..وحضرت أنا وزهير مجلسا من مجالس الجن.."ص:132

64/"..وكان بالحضرة فتى حسنُ البزّة"..ص:134

65/ "..فاهتزّ المجلس لقوله.."ص:134

66/ "..فقلت: جد أرضنا ، أعزّك الله، بسحابك.."ص:135

67/ "..لمّا تسامى النجم في أفقه...ولاحت الجوزاء والمرزم " ص:136 ..[443]

68/ومن قبة لا يدرك الطرفُ رأسَها...ص:137

69/"..إذا زاخمت منها المخارم صوبت..."ص:137..[444]

70/ " اللهَ في أرض سُقِيتَ هواءها.."ص:141..

71/ " لو حاولت سَوْقَ الثريّا ساقها.."ص:141

72/ "الملحفين رداء الشمس مجدهم...والمنعلين الثريّا أخمص القدم.."ص:143

73/ " وما فتئت تلك الدياتر حبائبا...لنا ، قبل أن نلقى بهن حبيبا.." ص:145

---

440 / التلاع :الأماكن المرتفعة،وهي كذلك مسايل المياه من الجبال والمرتفعات

441/الدرانك:الزهرالذي ينبت عن مطر/الغيطان:ج الغوط وهو المطمئن والمتسع من الأرض..الغوطة:مكان كثير الماء والشجر..

442/ الشوي : شاة.. الباقر: ج.للبقر

443 / المرزم: نجم..

444 / المخارم : رؤوس الجبال ،ويقصد هنا أعالي الخيمة..

74/ : ومشيت يوما أنا وزهيربأرض الجنّ.."ص:147

75/ "..إذ أشرفنا على قرارة غنّاء،تفترّ على بركة ماء.."ص:147

76/ "..وكانت في البركة بقربنا إوزّة..."ص:149

77/ "فاتخذتها السادة بأرضنا.."ص:150

78 / " وأنا الذي استرجعتها إلى الوطن المألوف.."ص:150

هذه هي الأماكن كما رصدتُ جُلّها ،وهي أماكن كالتي نعرف من خلال التسمية أما شكلها فقد أوحى به صاحب الرسالة في البداية بأنها لا تخضع لما نعرف نحن البشر..لأن الأرض ليست كالأرض، والجو ليس كالجو..ولمعرف الدلالة التي توحي بها الأماكن المستعملة رأينا أن نصنفها في مجموعات بحسب الحيّز الذي تعنيه كل مجموعة ،قبل أن نأتي إلى المكان الأليف والمكان الموحش والكلام عن الدلالة في كل منهما

ولـ**تصنيف المكان :** حسب الحقول الدلالية. نَجِدُ :

1/**الأرض.والجبال**:

- " التمحتُ أرضا لا كأرضنا.."
- أرض الجن
- لسُعدى بحِزَّان الشُّرَيْفِ..
- ... بالكدى..
- جئت الجبال ،حراءها..
- .. بذاك الجبل.."
- جد أرضنا
- زاحمت المخارم..
- ضرب زبدة الحقب الأرض

- فألقت على غير التلاع به مِرطا
- وحطّ بجرعاءَ الأبارق ما حطّا
- إلى أصل جبل حناء..
- ... ولا أرض تكسّر

2/ أماكن الماء:

- واد من الأودية
- فجزعنا وادي عتبة
- عينا معينة
- عين كمقلة حوراء
- ...هذه العين يا عتاب
- ... انتخب من الفرات
- وسعد المنية في كل واد
- فحلّت بواد كثير السباع
- تفترّ على بركة ماء.."
- وكانت في البركة بقربنا إوزّة
- عن مثل برهوت..

3/الدور والمَجَالس:

- منازلهم تبكي إليك عفاءها.."
- بدارتها الأولى نحيي فناءها
- مغان من سليمى وأدؤر
- فضعت بدار منهم وحريم
- ومالذي أسكنك قعر.....
- فثقفتها حولا كريتا ومربَعا

- من منازل أبي نواس
- ودير حنة .."
- مقيمٌ بدار الظالمين طريدُ
- خان تطيب لباغي النسك خلوته
- فسرنا نجتاب أديارا و كنائس و حانات
- بذات الأكيراح ؟"
- ولربّ خان قد أدرت بديره..
- حتى صرنا مركز هالة مجلسهم
- وحضرت أنا وزهير مجلسا من مجالس الجن
- وكان بالحضرة فتى حسنُ البزّة
- فاهتزّ المجلس لقوله

4/القصور،والأوطان:

- نشاوى على الزهراء، صرعى كأنهم..."
- ووصل خورنقها بسديرها..
- سكان خيبر ..
- وألقت به في سرقسطة ..
- نكتة بغدادية أتى لك بها ..
- يا فتى المغرب...
- استرجعتها إلى الوطن...

5/ السَّمَاء والكواكب:

- أخذ بأطراف السماء

- سدّه بسهاها ،أو لمح خرقا رمّه بزباناها
- هوى قمراَ قيس بن عيلان آنفا
- همّة في السماء تسحب ذيلا.."
- البرجيس جئت بحدّه..إذًا لتلقاني بنحس المقاتل
- على مفرق البدر
- انصباب الكوكب من سمائه ،
- تسامى النجم في أفقه...ولاحت الجوزاء والمرزم
- لو حاولت سَوْقَ الثريّا ساقها
- الملحفين رداء الشمس مجدهم...والمنعلين الثريّا أخمص القدم

6/ الرياض والبساتين:

- وأخذت في رثائه في الحائر.."
- انتهينا إلى غيضة :شجرها شجران
- وردْت َيفاعًا وبيل المراد
- وإذا بتّ به ،في روضة
- الخطباء بمرج دهمان
- حتى كسا الرُّبى...درانك، والغيطان من نسجه بسطا
- تذكّر روضًا مِنْ شويٍّ وبَاقر

هذه الأماكن مصنّفة حسب الحيز الذي توجد فيه، وهي ذات دلالات متعدّدة جعلتها في :

1/الدلالة البيئية:

وأقصد بها ما تعلّق بها الشاعر في بيئته ومسقط رأسه قرطبة، فالتزم بذكرهاوتعلّق بترديدها في شعره ونثره. ولا يكون ذلك إلا لأنه :" ظلَّ في قرطبة ولم يغادرها كما فعل العديد من سكانها، وشهد مأساتها كاملة مما ترك أكبر الأثر في نفسه وفي أدبه. فبكاها بكاءً حارّا.."([445]).ومن الأماكن الدّالة عليها دلالات إيحائية ما نجده في قوله:"وكنت يوما بحمام لي مع أصحابنا فاتى رسول الحاجب أبي عامر [أي محمد بن المظفّر] يرغب إخلاءه لبنيان عرض في حمَّامه منعه من دخوله، وكنت لم أصحبه، فخرجنا له عنه، ورغبوا أن أكتب له في ذلك فقلت(من المنسرح)

شكرتُ للدّهرِ حسنَ ما صنعَا ***طـائرُ مجدٍ بجنّتـي وقعَا

نفرتُ لمّا أيقـــنتُ جيئـتَـه ***و طارتِ النفسُ عندها قِطعَا

يا حسنَ حمّامنا وقدْ غرُبَتْ ***شمسُ الضّحَى فيه وقدْ مَتعَا

أيقـنَ أنَّ الهـــــلالَ زاكنُـه *** فَضَاءَ للحَاضِرينَ و اتّسَعَا

فانـْعِمْ أبا عَامِر بنعمَتـِهِ ***وأعْجبُ لأمرين فيه قدْ جُمِعَا

نيرانُه من زِنَـادكم قدحَت ***ومَاؤه من بَنَانكم نبَعا([446])

هذا المَكان [الحمام] حوَّله إلى مَصدر متْعة وفرَح، وزادَ أن أتّخذَه مطيّة لمدح الأمير، ولم يكن بينهما سابق عهد، فكانت النار تشعل من زناد الأمير.

وكانت المياه تنبع من بنانه..

---

[445] / ابن شهيد. .ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله.تح/ محي الدين ديب.المكتبة العصرية.صيدا بيروت(د.ط) 2002م.ص:7

[446] / ابن شهيد . ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله.تح/محي الدين ديب..م.س.ص:92

ومن وصفه للطبيعة قوله [من الطويل]:

خَليليَّ مَا انفكَّ الأسَى مُنذُ بينَهم *** حَبيبِـي حتَّى حـلَّ بالقلبِ فاخْتلطَا
أريدُ دُنُوًّا من خَليلي و قدْ نَأى *** و أهـْوى اقترابًا مِنْ مُزار و قدْ شَطا
و إنّ هبوطَ الوَادِيينِ إلَى النُّـقا *** بحَيث التَقى الجَمْعَان واستقبَل السّقْطا
لمسرَحِ سربٍ مَا تقرّى نِعاجُه *** بريــرًا ولا تقْـــــرُوا جآذرُه خمْطا
ومرتجزٍ ألقى بذي الأثلِ كلكلاً *** وحَـطّ بجرعَـــــاءَ الأبارقِ ما حَطّا
سعَى في قيادِ الريحِ يُسمحُ للصِّبا*** فـألقتْ عَلى غَيـْـــر التّلاع بهِ مُرطَا
ومَا زالَ يَروي التربَ حتّى كسَا الرُّبَى*** دَرَانِك، والغيطانَ مِن نَسْــجِه بسْطا
و عنَّتْ لهُ ريحٌ تُساقطُ قَطــرَه *** كمَا نثَرتْ حَسْناءُ مِنْ جِيدِها سَمْطا([447])

هنا البيئة القرطبية بكل جمالها الذي أخذته من عناصر الطبيعة، وصله الشاعر بالتقرب من حبيبه الذي ابتعد، وما الحبيب إلا ذاك المزار الذي كان يجمعهما، وما الملتقى إلا ذينك الواديين وقد أشربت التربة مياهه فكسا الأرض جمالا وزينة..

وعن قرطبة السَّاحرة بجمالها .

يقول [من الكامل] :

والدّارُ قد ضربَ الكمالُ روَاقَه ** فيها، وبَاعُ النقصِ فيهَا يقصُر
ياطيبَهم بقصُورهَا و خدُورِها ** وبُــدورُها بقصــورِها تتخدّرُ

والقصرُ قصرُ بَني أميَّة وافرٌ ** مِـنْ كــلّ أمرٍ والخِلافةُ أوفَرُ

والزَّاهريَّة بالمَرَاكبِ تُزْهِــرُ ** والعَامِرِيَّة بالكوَاكِبِ تُعْمَرُ([448])

وَتَتَجَلى عَنَاصر البَيْئة القرطبيَّة هنا من الدار والقصُور ولا يرقَى إليهَا النَّقصُ، فتتزيّنُ بمَا عليها مِن مِراكب ،وما في السماء من نجوم..

ومن البيئة نجد مجالس اللهو والأنس ،وممّا ذكر في وصف مجلس قوله

---

[447] / م.س.ص:89/
تقرّى:تطعم/البرير:الاول من شجر الاراك/الجؤدر:ولد البقرة الوحشية/الخمط:كل شجر لا شوك له./المرط:كساء ناعم تلقيه المرأة على رأسها./الدّرانك:الزّهر..
[448] / م.س.ص:77/76

:[مخلع البسيط]

وفتيـــــةٍ كالنجـــومِ حُسْنًا ** كلّـهُمُ شـَاعـــرٌ و نَبيـلُ

في مَجْلسٍ شابَهُ التَّصـَابي** وطاردَتْ في وصْفِه العقُولُ

كأنـــــــمَا بَابُه أسِـــــيرٌ **قد عـَرَضتْ دونَـــه نُصولُ

يُرادُ منْـــهُ المَقالَ قسْـــرا ** وهْـوَ عَلـى ذَاكَ لا يَقُـولُ

كأنّ أخْفَافـَـــــنَا عَليْـه ** مَـراكِـبُ مـــَا لـَها دَليـلُ

ضَـلّت فلمْ تَدرِ أينَ تجْـري ** فَهْـي عَلـَـــى شطّـِه تقيلُ

وكان له في النثر ذكرٌ للبيْئة ومحَاسنِها، وما احتوته قرطبة وتعلّقه بها. من ذلك ما كتبه إلى الأمير المؤتمن:".وأهدي إليه الشّكر غضّا، وأنشرُ عليه المدح نضّا، ولكني ممنوع، وعن إرادتي مقموع، يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير، شيء غلب صبرَ الأتقياء، واستولى على عَزم الأنبيَاء، وهو العشقُ، باطل يلعبُ بالحقّ، ليبينَ ضعفَ البشر، وتلوح قدرةُ مصرّف القدَر، والذي أشكو منه أغربَ الغرائب، وأعجبُ العجائب، بثٌّ شاغل، وبرحٌ قاتل، وصبر بغيضٌ، ودمعٌ يفيضُ، لعجوز ما يلي بخراءَ سهكة درداءَ، تدعى قرطبة."(449) .

449 / م.س.ص:163.غضّا:طريّا/ نضّا:خالصا/ بث:الحزن الشديد/يغيض:يذهب ويغيب/بخراء:ريحها نتنة/سهكة:رائحتها كريهة/درداء :سقطت أسنانها.

لعل أهمّ موقع مكاني يتردّدُ في الرسَالة هو مكانٌ افتراضيٌّ، يحاولُ من خلاله ابن شهيد أن يوهمَنا بأنَّه يختلفُ عن المكان الذي نعرف:".حتى التمحتُ أرضًا لا كأرضنا.."(450). وكان هذا المكان يختلف باختلافِ الشخص المُزار،وهذه الأمكنة:

تتجلّى أكثر وتظهرُ من خلال هذا المخطط البيانيّ:،

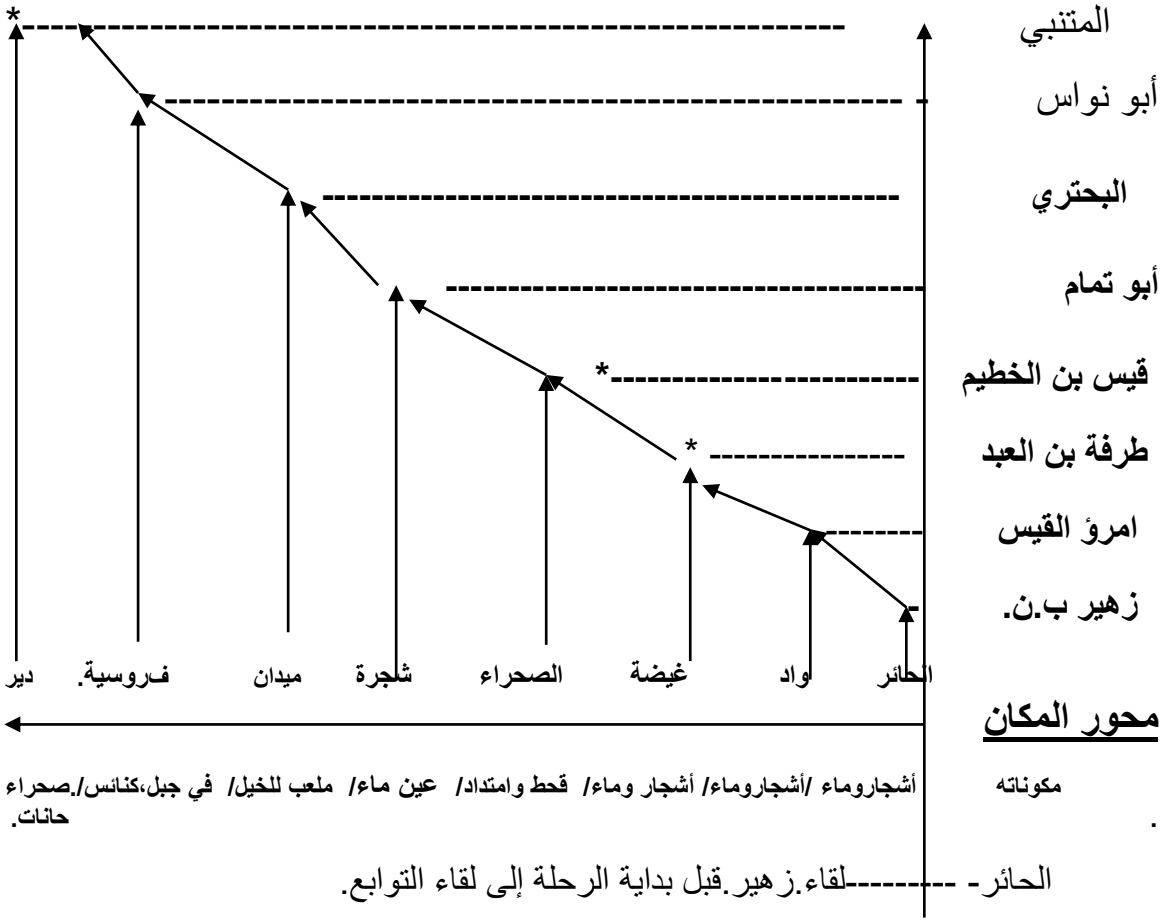

الحائر- ---------لقاء.زهير.قبل بداية الرحلة إلى لقاء التوابع.

محور الشعراء

لنتابع المكان مرتبطا بصاحبه:

زهير بن نمير مكانه : الحائر(البستان)..

450/ ابن شهيد.التوابع والزوابع.تح/البستاني.م.س.ص:91

امرؤ القيس: بواد به أشجارومـاء(..واد من الأودية ذي دوح تتكسر أشجاره..)[451]

طرفة بن العبد: غيضة (فجزعنا إلى غيضة شجرها شجران...)[452]

قيس بن الخطيم:صحراء بيداء قنص وصيد(وهو هنا لا يذكر المكان صراحة.)

أبو تمام: شجرة خضراء بها عين ماء(حتى انتهينا إلى شجرة عيناء يتفجرمن أصلها عين....)[453]

البحتري:ميدان للخيل والفروسية (بقصرعظيم قدّامه ناورد، يتطايرفيه الفرسان.)[454]

أبو نواس: في أعلى جَبل دير حَنّة (وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل حنّة..)[455]

المتنبي: الصحراء ومكان القنص(ما تتبعك لهذه الآثار؟قال:هذه آثار حارثة بن المغلس صاحب أبي الطيب، وهو صاحب قنص.."[456]

إنّ ابن شهيد يذكر المكان موحيا به على ما كان عليه صاحبه في حياته التي عرفه الناس بها، فامرؤ ألقيس هوالملك الضليل، ولا يعيش الملوك إلا في البساتين والضياع والشجرالأخضرالوارف، والماء المتدفّق، فاسمع إليه يقول:"...فأمال العنان إلى واد ذي دوح تتكسّر أشجاره وتترنم أطياره، فصاح : يا عتيبة بن نوفل

بسقط اللوى فحومل، ويوم دارة جلجل إلا ما عرّضت علينا وجهك..."[457]. وفي مثل هذا المكان يستحق أن يعيش الأمراء أبناء الملوك.

---

[451] /م.س.ص:91
[452] /م.س.ص:93
[453] /م.س.ص:98
[454] /م.س.ص:102
[455] /م.س.ص:104
[456] /م.س.ص:111
[457] /م.س.ص:92.91

وحين ينتقل في بادية الجاهلية يبحث عن شبيهه الشاعر الفتى صاحب خولة، إن مكانه عابق بالحياة يقول:"..فجزعنا وادي عتيبة، وركضنا حتى انتهينا إلى غيضة شجرها شجران: سام يفوح بهارا، وشحر يعبق هنديا وغارا.فرأينا عينا معينة تسيلُ، ويدورماؤها فلكيا ولا يحولُ.."(458). فدلالة هذه الأمكنة هو نبضها بالحياة، فالشجر أخضر،والماء أودية أو عيون..وطرفة فتى مليء بالحياة أيضا مقبل عليها. وبين طرفة وابن شهيد ملتقى المكان فالحائر هو منطلق الرسالة، وبداية الرحلة ولقاء تابعه زهير بن النمير..وكان لقاؤه بطرفة في بستان به شجر وماء، فلم يترك للمصادفة المجال.

وفي استمرار الرحلة يلتقي شاعر يثرب الفارس الذي يخترق الصحراء ليثأر لنفسه ولو على مئات الأميال لا يهمُّه حرّ صيف ولا اعتراض الأسود..إنه قيس بن الخطيم، يصفه ابن شهيد مختصرا أمره بإحداث ما اعتراه من خوف منه لمّا لحق بهم، وعاتبهم بغلظة على عدم زيارته..يقول ابن شهيد:"..ويشتدّ في أثرنا فارس كأنه الأسد، على فرس كأنها العقاب، وهو في عدوه ذلك ينشد:

طعنتُ ابن عبد القيسِ طعنةَ ثائر***لهَا نفذٌ، لولاَ الشعَاعُ، أضَاءَها

فاستربت منه، فقال لي زهير:لا عليك هذا أبو الخطارصاحب قيس بن الخطيم، فاستبى لبّي من إنشاده البيت، وازددت خوفا لجرأته، وأنّنا لم نعرّج عليه..."(459)

وقد أراد ابن شهيد ذلك التقديم لصاحبه ووصفه بالأسد وفرسه بالعقاب، لما للحيوانين من ارتباط وثيق بالقوة من جهة، وللصحراء وقسوتها وشدّتها من ناحية أخرى، أن يربط بين الطرفين، وأنه لا ينال الإجازة إلا ممّن يخبر القوة في العيش، والطلاقة في اللسان والبلاغة في البيان، ألم يقل عنه حينما سمعه ينشد بيته :فاستبى لُبّي من إنشاده البيتَ، وازددت خوفا لجرأته..."(460)؟.

458 /م.س.ص:93
459 /م.س.ص:96
460 /م.نفسه.ص:96

إنّ هذا الخوف وأسر العقل ناتج عن شجاعة هذا الرجل الذي يطلب إجازته. إنه المكان الذي يدلّ على صاحبه، إنّه العنفوان في أسمى تجلياته.

وعندما ينتقل إلى عصرآخرعرف الناس فيه الحضارة والمدنية، يختلف المكان عن سابقه ويناسب صاحبه أيضا ، إنَّهُ في العصر العباسي وبداياته، ولكنه دخل من بلاد مجاورة ومكان كان للبحتري فيه أجملَ الذّكرياتِ وأفضل القصائد ،إنه ببلاد فارس وهي إحالة إلى السينية التي شهد لها ابن المعتز بقوله :"لو لم يكن له إلا سينيته كان أشعرَ العَرب.."وهذا الربط في ميدان به ملاعب الخيل أمام قصر عظيم ، وسمَّى المكان بالناورد وهي تسمية فارسية. فهل ننسى رحلة البحتري إلى مدائن الفرس، وإيوان كسرى؟..إنه أمام أبي الطبع وهو تابع البحتري وأوّل ما يبتدئ به شعره بائيته التي مطلعها :

مَا عَلى الرَّكبِ مِن وُقُوفِ ركابٍ**في مَغانِي الصِّبا ورَسْم التّصَابِي (461)

ويربطها بقصيدته التي مطلعها:

هذه دارُ زينبَ والرَّبَاب(462)

وما بينَ الشاعرين هذا التلاقي المتعدّد نكتفي بذكر واحد منه ،يقول البحتري في السينية التي يشير إليها ابن شهيد بالمكان:

أتسَلى عَنِ الخُطوبِ وآسَى***لمَحَلّ مِنْ آل سَاسَان دَرْسِي

فالمكان ينسيه الخطوب والمآسي، لذلك يرتبط به لأنه يعطي العبرة على عدم الدّوام والبقاء على حال واحد من الرفاه والعزّ..فقد أخذ ابن شهيد هذا في قوله :

همّة في السَّمَاءِ تسْحَب ذَيلا*** من ذيولِ العُلى، وجدّ كَابٍ

ولوَ أنّ الدّنيَا كريمَة نجْر*** لمْ تكنْ طعمَةً لفرسِ الكِلاَب(463).

461 / البحتري الديوان . تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة [د.ت].ص:83

462 / ابن شهيد.ديوان ابن شهيد ورسائله..تح/محي الدين ديب.م.س.ص:56

463 / .م.نفسه.ص:57.

إنّ ابنَ شهيد يرى حظُّه العَاثر في الدّنيَا حين استقلّ بهَا آخرونَ لا يستحقونَها وهُمْ من الأراذلِ، فتحلقَ حولهَا فراخُ الذّبَاب .

وعلى ما في قصيدة البحتري من قيمة فنيّة ومتانة أسلوبية، لكنه تضاءل أمامه عندما أنهى ابن شهيد بائيته فقد انصرف دون أن يسلّم :"..حتى أكملتها ،فكأنّما غشي وجه أبي الطّبع قطعة من اللّيل، وكرّراجعًا إلى ناورده دون أن يسلّم.."[464].ورأى أنّ العودة إلى مكانٍ يحتمي به أولى له من مقارعة هذا الشاعر الذي هلّ عليه ولم يعدْ راغبا في بقائه أكثر.

وينتقل إلى مكان ببلاد العراق وببغداد حين كلامه عن طائي آخر،إنه مع تابع أبي تمام شاعر كثير الحياء شديد المُكْنَةِ والقوَّة في بناء نصُوصِه، وهذا ما يوحي به حديثُه معه، وعنه يقول:"ثم انصرفنا، وركضنا حتى انتهينا إلى شجرة غيناء يتفجّرمن أصلها عين كمقلة حوراء. فصاح زهير:يا عتّاب بن حبناء، حلّ بك زهير وصاحبه، فبعمروِ والقمر الطالع، وبالرّفعة المفكوكة الطابع، إلاَّ ما أريتنا وجهك ! فانفلق ماءُ العين عن وجه فتى كفلقة القمر، ثمّ اشتقّ الهواء صاعدا إلينا من قعرها حتى استوى معنا. فقال: حيّاك الله يا زهير، وحيَّا صاحبَك !فقلت :وما الذي أسكنك قعر هذه العين يا عتّاب؟ قال:حيائي من التحسّن باسم الشعر وأنا لا أحسنه، فصحت: ويلي منه، كلام محدَثٍ وربِّ الكعبة ! وأنشدني فلم أنشده إجلالا له..."[465]

إن أبا تمام من الذين يعتبرُهم الدّارسُون للعصرالعبَّاسي الأول من الشعَراء المجدّدين في القصيدة العربية ،ومن الذين انتقلوا بالقصيدة من وحدة البيت إلى وحدة الموضوع ،وهذا ما يشير إليه ابن شهيد ويقصده بقوله "كلام محدَثٍ وربِّ الكعْبة". يقول الآمدي في الموازنة:"(شعره لايشبه أشعارالأُوَّل ولاعلى طريقتهم لما فيه من الاستعارات

---

[464] / ابن شهيد.التوابع والزوابع..تح/البستاني.م.س.ص:104

[465] /**م.س.ص:98**

البَعيدة والمَعَاني المُولَّدة..."[466].إنّه ربط للمكان بالحياء، وللقصيدة المحدثة بالماء، فبينهما التّجدُّد والاستمرار.وهي التفاتة من أبن شهيد الناقد، لا من ابن شهيد الشاعر.

وأما المكان الذي وجد فيه تابع أبي نواس يحمل الدّلالة على شخصية وسلوك الشاعر العباسي، بل زاد أن ذكر حالته التي وجده عليها وكان كافيا الإشارة إلى حانةٍ بدير..فأين يمكن أن يجد صاحبه؟..ولقد أسقط عليه حاله، فهما يشتركان في الفتوة ومعاقرة الخمرة..وحبّ اللهو والمجون، والمجاهرة بهما..:"فضرب زهير الأدهمَ بالسوط، فسار بنا في قننه، وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنّة، فشقّ سمعي قرع النواقيس، فصحتُ: من منازل أبي نواس، وربِّ الكعبَةِ العلياءِ !وسرنا نجتابُ أديارا وكنائسَ وحانات حتى انتهينا إلى ديرعظيم تعبق روائحه، وتصوك نوافحهُ، فوقف زهير ببابه وصاح:"سلام على أهل ديرحنّة !فقلت لزهير:"أوَهل صرنا بذات الأكيراح؟ قال:نعم. وأقبلت نحونا الرّهابين، مشدّدة بالزنانير،قد قبضتْ على العكاكيز، بيض الحواجب واللحى، إذا نظروا إلى المرء استحيا، مكثرين للتسبيح، عليهم هدي المسيح، فقالوا:"أهلا بك يا زهير من زائر، وبصاحبك أبي عامر ! ما بغيتك؟ قال: حسين الدّنان. قالوا: إنه لفي شُرب الخُمرَة، مُنذ أيَّام عشرَة ومَا نرَاكمَا منتفعين به...."[467]

إنَّ حُسين الدّنان هو تابع أبي نواس، إنه في دير حنّة، كأنه يَهرب إلى الأعلى، باحثا، بنشوة الخمرومعاقرتها منذ عشر خلون، عن العلو والسُّموّ الروحي، ويشير ابن شهيد إلى ذلك بالرهابين الذين وصفهم بالوقار وبالاستحياء من النظر إليهم وبكثرة تسبيحهم، وبأنّ عليهم هديُ المسيح..إنه المكان وما يوحي به أبو عامر، ولعلّ مبالغته في رسم الهالة من الوقار على الرهبان هو فراره من حياة اللهو والمجون المليئة عبثا التي كان يحياها..

---

[466] /أبو القاسم الآمدي:الموازنة .تح/ السيد أحمد صقر.دار المعارف .القاهرة ط.1992/4.ص:5.4

[467] /ابن شهيد .التوابع والزوابع.م.س.ص:105.104

إنّ صورته مع تابع أبي نواس هي صورة ذالك الشاب المقبل على الحياة إقبال من لا يرجو زوال نعيمها وامتداد لهوه ولعبه وارتقائه بنشوة الخمرة وابتعاده عن الأسافل:" وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنّة" فالجبل مرتبط بالقوة والصلابة والثبات، والأصل فيه العلو والارتفاع..فكيف به يبني من مخياله حانة بهذا المكان ليكون أليفا لصاحبه، مناسبا لما يريده أن يراه عليه؟ فقط لأنه صورته في ما يريده أن يكون عليه هو..إنّ ابن شهيد يريد إسقاط ما عليه تابع النواسي في دار الآخرة على ما يريده هو أن يكون عليه حين الانتقال إلى تلك الدّار..

ولعل هذا المخطط يبين صورة أبي نواس ومجلسه :

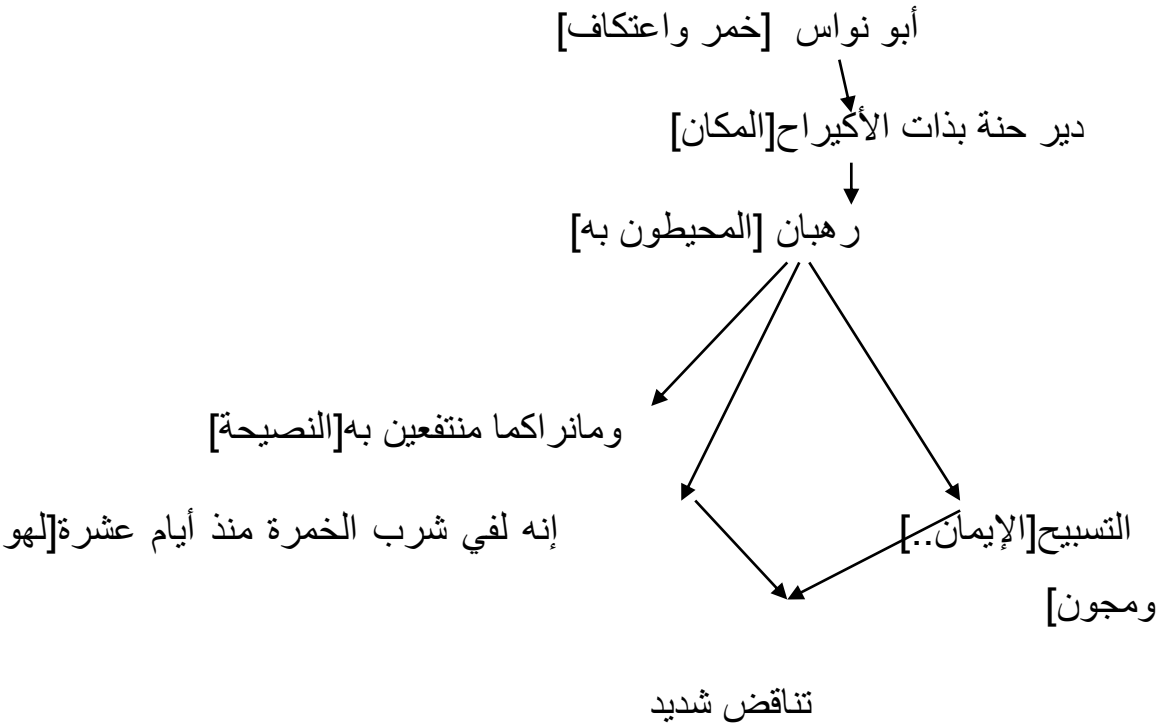

تناقض شديد

فأبو نواس منذ عشرلم يفق من شرب الخمرة، ويحيط به رهبان عليهم علامات الوقار والمهابة، وهم يسبحون ويقدّمون النصيحة للزوار،مانراكم منتفعين به. فيقرُن ابنُ شهيد التسبيحَ عند الرهبان بمعاقرة الخمرة عند أبي نواس، ولا أشدّ من هذا التناقض الذي يحتويه المكان..وهو ساخط.

ومن أبي نواس ينتقل المكان من الحانة ولهو صاحبها، إلى من كان يأنفها، ويزدري مرتادها، إلى أبي الطيب وتابعه حارثة بن المغلّس، والمكان يبدو في البداية مفعما بالفروسية وعن الرجل بالأنفة والشهامة، القنص، القناة، الفرس، النظرة من مقلة شوساء..وكان أول ما أنشده قصيدته اللامية في عتاب الزمن، ودلالة ذلك أنّ المتنبي برمٌ من الزمن، ومتبرم من أهله الذين رفعهم، وهو أولى بأن يرفع أعلى الدّرجات وأرقى المراتب منهم..قال ابن شهيد:

أبرقٌ بدا أم لمْعُ أبيضَ قاصِل***ورجْعٌ شدا، أم رَجْع أشقرَ صَاهل؟(468)

إنّه يوحي له بلاميته التي مطلعُها:

لك يا مَنازلُ في القلوبِ مَنَازلٌ...

فقد كان توصيف المكان عند المتنبي غير ذاك عند أبي نواس، لاختلاف شخصية كل منهما عن الآخر، وهذه مقارنة بينهما تبيّن هذا التناقض، فالمكان وإن كان واحدا في الإحاطة به، وفهمه بينهما، بل في مجتمع كل منهما، لكنّ التعامل معه اختلف بينهما اختلافا غير خافٍ على ذي لبّ ، لقد وضع المتنبي في وضع غير الذي لأبي نواس، وأحاطه بمكان غير ذاك الذي لأبي نواس. ويصف كل واحد منهما..بما يراه ابن شهيد مناسبا لصاحبه حين الزيارة. لنتتبّعَ هذه المقارنة :

المتنبي

1- اشدد له حيازيمك ←———— (التوجه إلى تابع المتنبي)
2- عطّر له نيسيمك ←———— (العطر والرائحة الطيبة)
3- جعل يركض بنا ←———— (الحركة والحيوية)
4- صاحب قنص ←———— (الشجاعة والفروسية)
5- على رأسه عمامة حمراء ←———— (التوقّد والتوهّج)

468 / ابن شهيد..ديوان ابن شهيد ورسائله. تح محي الدين ديب...م س.ص:111

أبو نواس

1- ضرب زهير الأدهم بالسوط ←——— (التوجه إلى تابع أبي نواس)

2- شقّ سمعي قرع النواقيس ←——— (الرهبان والتّعبّد..)

3- سرنا نجتاب أديارا وكنائس ←——— (السير بدل الركض)

4- إنّه لفي شرب الخمرة منذ عشر ←——— (المجون واللهو)

5– شيخ طويل الوجه والسَّبلة(469) ←——— (الإهمال والحالة المزرية..)

وبملاحظة مكاني الرجلين تظهر شخصية كل منهما، فالمتنبي أعلى همّة وأشدّ اعتدادا بالنفس التي يرى:

وَإذا كانَتِ النُّفوسُ كبَارًا***تَعِبَتْ في مُرادِهَا الأجسَامُ (470)

لقد كانت اول قصيدة يقدّمها ابن شهيد في هذا اللقاء مفعمة بعناصر المكان، وأي مكان، إنّه العلياء بكلّ عناصرها ،وهذه القصيدة هي : (471)[الطويل]

أبــرقٌ بدا أم لمْــعُ أبيضَ قاصل *** ورَجعُ شدا أم رجْعُ أشقرَ صَاهل

ألا إنَّها حــَـربٌ جنيتُ بلحْظة *** إلى عـُــربٍ يومَ الكَثيبِ عقائِل

هَوى تَغلبي غـَـالبَ القلبَ فانطوَى ***علَــى كمَد مِن لوعَة القلبِ دَاخل

رَدِّي تَعْلمِي بالخَيْل ما قرَّبَ النَّـوَى ***جيـَـــادِك بالثرْثارِ يَا ابنَةَ وَائِل

جزينَا بيَـــــــومِ المُرْجِ آخَرَ مثلهُ *** وغُصْنا سقينا نابَ أسمرَ عاسِل

تردَّدَ فيهَا البرقُ حتَّـــــــى حسبتُه *** يشيرُ إلى نجْــم الرُّبَى بالأنامِلِ

ربَّى نسجتْ أيدي الغَمـَـــام للبْسِها ***غلائلَ صفــرًا فوق بيضٍ غلائِل

سهرتُ بها أرعَى النُّجومَ وأنْجُمـًــا *** طوالِـــــعَ للرَّاعينَ غيرَ أوَافل

469 /السَّبَلَة "ما على الشارب من شعر مهمَل.

470 /المتنبي.شرح ديوان المتنبي عبد الرحمن البرقوقي .مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة..ط2. 1938. ص: 1225

471 / الديوان ص:112.111

وقد فَغَرتْ فاهًا بهـــــا كلَّ زهْرة *** إلى كـُـــلِّ ضَرْع للغمَامَة حَافل
ومرتْ جيوشُ المزنِ رهوًا كأنـــَّـها ***عساكرُ زنـــْج مذهباتُ المناصِل
وحلقتِ الخضراءُ في غـــــرِّ شهبِها *** كلجَّـــةِ بحـــْــــــر كللتْ باليَعَالل
تخَال بهَا زهـــرَ الكـــواكبِ نرجَسا *** على شـَـطِّ وادٍ للمَـــجَرة سَائل
وتلمحُ من جـــَـــوزائِها في غروبِها *** تسَاقـط عَرش وَاهن الدَّعم مَائل
وتحسبُ صَقـْــــــــرًا واقعًا دبُرانِها *** بِعشِّ الثريَّا فوقَ حُمْر الحَوَاصِل
وبدرُ الدُّجَى فيها غَدِيرًا وحـــَــــولهُ *** نجـُـومٌ كطلعَات الحمَام النَّوَاهل
كأن الدُّجـــَـــى همِّي ودمْعِي نجُومُه *** تحَدَّرُ إشفَاقا لـــــــدَهر الأراذِلِ
هوتْ أنجمُ العَليـــــــــَـــاءِ إلا أقلّها *** وغبـْـنٌ بمَا يُحْظى بِهِ كلُّ عَاقِل
وأصْبَحتُ في خلفِ إذا مَا لمَحتـُهم *** تبيَّنْتُ أن الجهْـلَ إحْدَى الفضَائل
ومـــــَـا طابَ في هَذي البَريَّة آخر *** إذا هـُـو لم ينجِـــذْ بطيبِ الأوائلِ
أرى حمـُـــرًا فوقَ الصَّواهل جَمَّة *** فأبْكِـــي بعينِي ذلَّ تلك الصَّواهِل
وربَّتَ كُتـَّاب إذا قيـــــلَ زوَّروا *** بكـــتْ من تأنِّيهم صدورُالرسائـل
وناقلُ فقـــــهٍ لم يرَ اللهَ قلبـُــــــه *** يظنُّ بـــأنَّ الدِّينَ حفـــظُ المسَائل
وحامـــِــلُ رمحٍ راح فوقَ مضَائه *** بـــــه كاعبًا في الحَيِّ ذاتُ مغازِلِ
حبَوا بالمُنى دُونِي وغُودِرتُ دونَهم *** أرودُ الأمـَاني في ريَاض الأبَاطل
ومَا هِي إلا هِمـــَّةٌ أشجَعيَّـــــــــةٌ *** ونفسٌ أبتْ لي منْ طـلابِ الرذائِل
وفهمٍ لو البـــَـرجيـــسُ جئتُ بجدِّه *** إذًا لتلقَّـــاني بنَحس المقاتـِــل
وكيفَ ارتِضَائي دارةَ الجَهل منْـزلاً *** إذا كانتِ الجـوزاءُ بعضُ منَازلي
وصَبري على محـْضِ الأذَى من أسَافل *** ومجـْدي حسَامي والسِّيادةُ ذابلي
ولما طمَا بحـْـــــرَ البيانِ بفكرَتي ***وأغْرقَ قرنَ الشَّمس بَعْضَ جَداولي

ولاستخراج عناصر المكان في النص نجد ما يدلّ على الرفعة والعلياء كما سبق ذكره .

وفق هذا الجدول :

المكان	الدلالة
أبرق بدا....	البرق مكانه السحاب ،ودلالته النور والعطاء
الثرثار	واد كبير في العراق،ودلالته الخير والعطاء
جُزينا بيوم المرج آخَرَ مثله	مرج راهط كموقع في الشّام للفخر عند الشاعر والاعتزاز بماضي أجداده
تردّد فيها البرق...نجم الربى	النور والضياء. وعلو المكانة ورفعتها
ربى نسجت أيدي الغمام...	الغمام كالسحاب دليل الخير والنفع والعلو
سهرت بها أرعى النجوم وأنجما	الاهتمام بالمراتب العالية والرتب السامية
إلى كل ضرع للغمامة حافل	العطاء والنفع.....
وحلّقت الخضراء..كلجّةبحركلّلت باليعالل	الرفعة.. العمق والقوة والتجدّد..والنفع
تحال بها زهر الكواكب نرجساعلى شطّ واد	الرفعة والعلو ..والنماء..
وتلمح من جوزائها في غروبها	الرفعة ودلالة المنطقة [الغرب]..
وتحسب صقرا واقعا دَبَرَانِهَابعش الثريا	دلالة العلو والرفعة في الأنجم والكواكب
وبدر الدّجى/غديراوحوله نجوم..	الجمال والعلو والنماء والضياء
الدّجى همّي/دمعي نجومه	العلو والرفعة
هوت أنجم العلياء	الإفراط في دلالة العلو [النجوم والعلياء...]
وفهم لو البرجيس جئت بجدّه	العلو والرفعة
وكيف ارتضائي دارة الجهل منزلا.إذا كانت الجوزاء بعضَ منازلي	الارتفاع والابتعاد عن منازل الجهل ،لأنّ مكانه العلو والرفعة
ولمّا طما بحر البيان بفكرتي	الفكر والبيان كالبحر في العمق والقوة

لقد تناسب ذكرالمكان مع شخصية المزار،ومن قال عن نفسه:

ومُرْهَفٍ سِرْتُ بين الجَحْفليْنِ بِـهِ *** حتى ضَرَبْتُ وَمَوْجُ المَوْتِ يلتطِمُ

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعـرفنـي *** والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

صَحِبْتُ في الفَلَواتِ الوَحْـشَ مُنفـرداً *** حتـى تعَجَّـبَ مِنِّي القـورُ والأَكَـمُ.([472])

إنّه ابن الفلات التي تعرفه،ولا يخشى الأسود الضارية ،ولاالجيوش المتلاطمة الموج..وتزداد مكانته حين تراه الجبال والوهاد مصاحبا للوحوش حيث كانت..هذه هي همّة من يرفع ابن شهيد مكانته بنيل جائزة التمكن والتفوّق في الشعر حين يقول له:"اذهب فقد أجزتك"..

ومادام أنّه نال الإجازة من تابعه ،فقد وضع نفسه منذ البداية في القمّة، وهو لا يريد من معاصريه وأهل قرطبة أن يجازوه، فيكفي أن قال له تابعه . بعد أن سأله:" وما الذي حداك إلى التّصوُّرلي؟ فقال:"هوى فيك، ورغبة في اصطفائك."([473]).وكأنه يلمّحُ أنَّ الانبياءَ لا يتبعُهم أقوامَهم ،وأن زامرَ الحيّ لم يكن ليطربَ أهل الحيّ..

هكَذا تنوّع المَكان بينَ شاعِر وشاعِر، وبينَ الخطباء وأمكنَة الشعَراء أيضًا..

472: المتنبي.شرح ديوان المتنبي عبد الرحمن البرقوقي .دار الكتاب العربي .بيروت1986..ط2.ج/4.ص:86.85

[473] / ابن شهيد.التوابع والزوابع.تح/البستاني.م.س.ص:89

دلالات الزمان في الرسالة..:

يتنوع الزمن، ويكثر استعماله، لكنه لم يشر أنه يختلف عن الذي نعرف، فلم تكن هذه الرحلة تتجاوزالزمن الفلكي الذي يحتوينا، ولا التوقيت الذي نألف، لكنه لم يذكر تاريخا. ولا فترة تناسب الزمن المرويَّ فيه الأحداثُ. وقد فعل ذلك في المكان عندما أخبر أنّ الأرض ليست كالأرض.

وسنحاول رصد الأزمنة التي ذكرها ابن شهيد في الرسالة فقط شعرا ونثرا.مبتعدين عن المفهوم الصرفي لزمن الفعل.بل سنذكر بعض ذلك في دلالة الزمن في بابه..بحول الله:

1/ كنت أيام كتاب الهجاء، أحن إلى الأدباء.." ص:88

2/ " فجزعت وأخذت في رثائه يوما بالحائر.." ص:88

3/ " تذاكرت يوما مع زهير بن نمير.."ص:91

4/..ويوم دارة جلجل.." ص:92

5شجته مغان من سليمى وأدؤر.." ص:92/

6/" تكلفتها والليل قد جاش بحره.."ص:92

7/" فبخولة، وما قطعت معها من ليلة.."ص:93

8/"ودانت بنات الأعوجيّات بالضحى.."ص:94

9/"..وأقسم أنّك إن لم تفعل ليكوننّ يوم شرٍّ.."ص:96

10/"..ولا كضلال كان أهدى لصبوتي**لياليَّ يهديني الغرام خباءها ص:97

11/هززتك في نصري ضحى فكأنّني هززت...حراءها".ص:97

12/" نقضت عرى عزم الزمان.." ص:97

13/"إني امرؤ لعب الزمان بهمتي.."ص:99..وفيها تكررت لفظة الزمان ثلاث مرات..

14/ " أفي كل عام مصرع لعظيم" ص:100

15/"وجشّمني خوف ابن عفّان ردّها**فثقّفتها حولا كريتا ومربعا([474])ص:101

16/وما أنت إلا محسن على إساءة زمانك.."ص:101

16/" هو بدير حنّة منذ أشهر.."ص:102

17/وارتكضنا حتى مضى الليل يسعى..وأتى الصّبح قاطع الأسباب ص:103

18/ " فكأن النجوم في الليل جيش.."ص:103..وفيها تكررت لفظة "ليل"ثلاث مرات..

19/ " وكأن الصباح قانص طير.." ص:103

20/فكأنما غشي وجه أبي الطبع قطعة من الليل.." ص:104

21/"..فطار إليها من بني دهرها، فراخ الذّئاب.."ص:104

22/" إنه لفي شرب الخمرة، منذ عشرة أيام.." ص:105

23/"صائد في كل يوم أسدا.." ص:108

24/قال لي يلعب :خذ لي طائرا**فتراني الدّهر أجري بالكدى ص"108

25/" وإذا استنجزت يوما وعده... قال لي يمطل:ذكرني غدا..ص:108

26/" قام في الليل بجيد أتلع.." ص:108

27/" عممت صبحا بليل أسودا"ص"108

28/" وتلمح من جوزاتها في غروبها" ص:113

[474] /حولا كريتا:سنة كاملة/المربع:الموضع يقيمون فيه أيام الربيع،وهنا يريد مدة الإقامة فيه..

29/"كأنّ الدجى همّي، ودمعي نجومه***تحدّر إشفاقا لدهر الأراذل ص"113

30/ " إذا امتدّ به طلق العمر" ص:114

31/" ودهيت بغباوة أهل الزمان" ص:116

32/ " الزمان دفء لا قرّ "ص:118

33/" ..وكأنه جزء لا يتجزّأ من ليل.."ص:125

34/"..يكمن نهاره، ويسري ليله"ص:126

35/"وبتنا نراعي الليل ، لم نطو برده.."ص:130

36/"..ولم يجرشيب الصبح في شيبه وخطا.."ص:130

37/"...طياليس للدجى وهو أطلس"ص:130

38/"..وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى.." ص:133

40/"..فهلا عرفتني شأنه منذ حين؟"ص:134

41/"..وبتّ به ليلتي ناعما... إلى أن تبسّم ليل الغلس.."ص:136

42/" تكلفتها والليل قد جاش بحره.."ص:137

43/" ولم أنس بالناووس أيامنا الألى...بها أيننا محبوبها وحبابها"ص:138

44/" وإنما أنا نفّاخ عندك منذ اليوم.."ص:138

45/" ولرب ليل للهموم تهدّلت ...أستاره فمحا الصوى بستوره.."ص:140

46/"لا تبكينّ من الليالي إنَّها...حرمتك نغبة شارب من مشرب.."ص:141

47/ورحيل عيشك كل رحلة ساعة...وفناء طيبك في الزمان الأطيب.."ص:141

48/"وإذا بكيت فبكِّ عمرك ،إنه...زجل الجناح يمرّ مرّ الكوكب.."ص:141

49/ "له في بياض اليوم يقظة فاجر. وتحت سواد الليل هجعة كافر.." ص142
50/"شكوت إليك صروف الزمان...فلم تعدُ أن كنت عون الزمان..ص:144

51/ " ..ومشينا يوما أنا وزهير بأرض الجن.."ص: 147

52/ "..كلفت بإلفي منذ عشرين حجة.."ص: 148

53/ "..ما أبقت الأيام منك..؟"ص:149

54/"..وإن حالوا على العهد، ونسوا أيام الودّ.."ص:149

هذه هي الأزمنة كما رصدتها، وقد وجدته يكرر المفردة أكثر من مرة في الصفحة الواحدة، وقد يكون في السطر كذلك كما هومثبت في أكثر من مكان..

ب/ولتصنيق الأزمنة حسب الحيز نجد:

1/**الأيام والليالي:**

- " كنت أيام كتاب الهجاء، أحن إلى الأدباء.."
- فجزعت وأخذت في رثائه يوما بالحائر.."
- "تذاكرت يوما مع زهير بن نمير.."
- " تكلفتها والليل قد جاش بحره.."
- "فكأن النجوم في الليل جيش .."
- "فكأنما غشي وجه أبي الطبع قطعة من الليل.."
- "إنه لفي شرب الخمر منذ عشرة أيام.."
- "صائد في كل يوم أسدا.."
- "وإذا استنجزت يوما وعده... قال لي يمطل:ذكِّرني غدا..
- "قام في الليل بجيد أتلع.."
- " عممت صبحا، بليل، أسودا"
- "..وكأنه جزء لا يتجزّأ من ليل.."

- "..يكمن نهاره، ويسري ليله"
-"وبتنا نراعي الليل، لم نطوِ بَرْدَهُ.."
-"..وبتّ به ليلتي ناعما... إلى أن تبسّم ليل الغلس.."
-" تكلفتها والليل قد جاش بحره.."
-" ولم أنس بالناووس أيامنا الألى...بها أيننا محبوبها وحبابها"
-" وإنما أنا نفّاخ عندك منذ اليوم.."

-" ولربَّ ليلٍ للهموم تهدّلت...أستارُه فَمَحَا الصّوى بستوره.."

-"لا تبكينّ من الليالي إنها...حرمتك نغبة شارب من مشرب.."

-"له في بياض اليوم يقظة فاجر... وتحت سواد الليل هجعة كافر

-" ..ومشينا يوما أنا وزهير بأرض الجن.."

-"..ما أبقت الأيام منك..؟"

-"..وإن حالوا على العهد، ونسوا أيّامَ الودّ.."

2/أجزاء اليوم وفتراته.

- " هززتك في نصري ضحًى.."
- " وكأن الصباح قانص طير.."
- " عممت صبحا بليل أسودا"
- " وتلمح من جوزاتها في غروبها"
- "..ولم يجر شيب الصبح في شيبه وخطا.."
- "..وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى.."
- "ورحيل عيشك كل رحلة ساعة...

3/السنة والأشهر:

-" أفي كل عام مصرع لعظيم"

-" هو بدير حنّة منذ أشهر.."

- "..كلفت بإلفي منذ عشرين حجة.."

4/الزمان،وما في معناه:

- " نقضت عرى عزم الزمان.."
- "إني امرؤ لعب الزمان بهمتي.."
- " إذا امتدّ به طلق العمر"
- " ودهيت بغباوة أهل الزمان"
- " الزمان دفء لا قرّ "
- فهلا عرفتني شأنه منذ حين؟"
- وفناء طيبك في الزمان الأطيب.."
- "شكوت إليك صروف الزمان...فلم تعدُ أن كنت عون الزمان..
- "..وإن حالوا على العهد، ونسوا أيَّام الودّ.."

وكما نرى أن استعمال عناصر الزمن اختلفت نسبتها، فكان اليوم والليل وما اشتق من كل منهما الأكثر استعمالا..وقلّ ذلك في السنة والأشهر..وارتفع الاستعمال عنهما في ما اشتق من الفترات وأجزاء اليوم..ولكل ذلك دلائل يمكن أن نوجزها في التالي:

أ/ الليالي والأيام ودلالة استعمالهما:

بَدَأَ نصه بذكرالفعل مقرونا بالزمان، ليلتقي به على مسافة غير بعيدة بالمكان، لنلاحظ قوله :"كنت أيَّام كتَّاب الهجاء.."وفي ذات الصفحة يقول:"..فجزعت وأخذت في رثائه يوما بالحائر.."[475].فقد ربط الزمان وهو الموحي بالضياء بالمكان[الحائر] وهو الموحي عنده بالمحبوب الذي انفرد ليذكره..وهذا الضياء على ما فيه من انبعاث وإشراق للروح، إنّه مرتبط هنا بالبستان الذي يثير الذكرى ويعيد المحبوب إليه ثانية، وقد غيَّبه الموت..وهكذا يستمر في ذكر اليوم كزمن يتفاعل به حين يربطه بالمكان المناسب، وقد يكون هذا المكان هو مجلس للخطباء أو ناد للنقاد أو ملتقى للشعراء..

وفي جزئه الآخر [الليل] نجدُ الحَالةَ التي توحي بالحزن والأسى، كقوله:" تكلفتها والليل قد جاش بحره.."وكذلك:" فكأنَّما غشيَ وجهَ أبي الطبع قطعة من الليل" وقوله:"عمّمت صبحا ،بليل، أسودا.." فالسَّواد وصف للصُّبح وقد أخذه من الليل..

غير أنّ هذا الليل قد يكون سعيدا لولا ..:

" وبتّ به ليْلتِي نَاعمًا*** إلى أنْ تبَسَّمَ ليلُ الغَلس.."..

فقد قضى ليلهُ كلَّه فرحًا مبتسمًا حتَّى حلّت أوائلُ خيوط الفَجر لتعْلن زوالَ الظلام الذي أخفَاه عَن العُيُون، وبدايَة الضِّياء الذي لا يسترُ أحدا تحته..كما يمكن أن يكون اليوم رديف الليل وسواده، فلا ينال منه شيئا، ويسقط ذلك في قوله:

---

[475] / ابن شهيد.رسالة التوابع والزوابع تح/البستاني.م.س.ص:88

وإذا استنجزتُ يومًا وعدَه*** قالَ لي يَمْطل:ذكِّرني غَدَا..

إنه خُلفُ الوعْد ، والتسويف..فكان الإرجاء إلى الغد هو البديل..

وكان للشّعر النصيب الأوفر من مفردة [الزمن]..وكأنه شعور غير مُعلن بهَذا الذي يَمْضي دونَ استئذان أو انتظار ،لكنه يعوّض ذلك بمفردَة المَكان أكثرَ في نثر ،وَقد طغَت في لقَاءِ تابع أبي نواس عن غيرهَا، وكأنَّ الأمرَ يَتَعلق بإلفٍ يُريدُه، ومثيل يفرحُ بلقائه، لنلاحظ هذه المفردَات الدّالة على الزَّمَن في هَذه الرحْلة إلى تابع أبي نواس:" هو بدير حنّة منذ أشهر.." وحينَ يصلان إلى الدّير يسْمعَان من الرهبان قولهم :"إنّه لفي شرب الخَمْرة مُنذ عشرة أيام.."، فكأنّ أبا نواس معتكفٌ بالدّير لشرب الخمرة فقط، وهي دلالة على أن ابن شهيد يريد أن يقدّم أفضل ما لديه في الخمر:"أقرع أُذْنَ نشوته بإحدى خمرياتك."[476]، وحين يذكرها يفيق التابع من سكرته، ويغسل وجهه ويقدّم اعتذاره، وهي تكفي للشهادة على منزلتها في نفسه، واعترافه بمكانته ودرجته العالية في قول الشعر:"فقال :أأشجعي؟ قلت :أنا ذاك، فاستدعى ماءً فشرب منه، وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليَّ من حاله.."[477]، ويستمرُّ جلوسه معه ليطلب منه :"أنشدني قطعة من مجونك، فقد بعُدَ العهد بمثلك.."[478] وقد ذكرها للتابع حين الطّلب، لينال الإجازةَ ، وكان له ذلك.

---

476 /ابن شهيد التوابع والزوابع.تح/البستاني.م س.ص:105

477 /م.س.ص106

478 / م.س.ص:110

أين ذاك الشاعر من صَاحب الهمَّة العاليَّة أبي الطيب المتنبي حينَ يجدُه في حَالة قنص وحَركة وعنفوَان؟ فبَينهمَا البَون الشَّاسع والفرق الوَاسع ، فابن شهيد يُريد أن يشيرَ إلى قول المتنبي في مَدح سَيف الدَّولة حينَ عزم الرَّحيل إلى انطاكية [من الخفيف]:

أين أزمعتَ أيّهذا الهمـَامُ؟ *** نَحنُ نَبْتُ الرُّبَى، وأنتَ الغَمَامُ

نَحنُ مَن ضَايَقَ الزمَـانَ له فِيـــكَ وخانتْـــــــــهُ قربَك الأيّامُ

كلّ يَوم لكَ احتمَالٌ جـَديدٌ***ومَسيـــــــــرٌ للمجـْد فيهِ مُقامُ(479)

فالزمن هنا زمَنُ الهمَّة العاليَة، والغمَام النافع، والأيَّام التي ترفع صاحبَها للمجد عاليا.

قال في المديح (من الطويل):

طرَقتْكَ بالدَّهنَا وصَحْبُك نُوَّمُ***والليْلُ أدْهمُ بالثّريَّا مُلجّمُ(480)

<u>دلالة الزمن في الفعل</u> :

لقد تنوّعَ الفعل صَرفيًّا بينَ ماضٍ انتهَى وحَاضر يَعيشُه الشَّاعرُ وجمَاعتُه ،ومضَارع لا يَدري أمره خاصَّة بعد نكبَة قرطبَة وتحوُّل مآلها السياسي من العامريّين إلى غيرهم مِن بَني حَمود .

النّص انتسبَ بداية إلى زمَن مضى:"كنت أيَّام كُتّاب الهجَاء.."ودخول (كان) يدلّل على ذلك ولو لحقَه فعلٌ مضَارع..فيقلب زمنه إلى الماضي، ولحق الفعلَ اسمُ دلّ على الزمن أيضا، وموقعه نحويا خبر للناسخ كان، فالزمن مضى كفعل، ونصبه كاسم تابع

---

479 / المتنبي. شرح الديوان . عبد الرحمن البرقوقي.مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة .القاهرة ط.2. 1938 ص:1225

480/ ابن شهيد.الديوان.تح/ محي الدّين ديب.م.س.ص:119.

معمول بغيره، والحالة على ذلك تحمل التعاسة والحزن، فقد أخبر بعدها أنه كان يريد أن يذكر من فارقه، ويتغزّل به، لكنه توقّف عن قول الشعر لعارض ماديٍّ عرضَ له، لكنه الحزن والأسى.."ثمّ لحقني بعدُ ملل في أثناء ذلك الميل.."[481]

ويوقفُ الزمنَ نتيجةَ المَلل بتوقف حياة "من كان يهواه"بقوله:"فاتفقَ أن ماتَ من كنتُ أهواهُ مدّةَ ذلكَ المَلل"[482] ،الميلُ اكتسحَه مَلل، انتهَى ذاك المَلل بموت من كان يهواه.

والزمن الدّاخلي طغَى على المَادي(الفيزيائي) طغيانا جعلنَا نشعرُ به ونقاسمُه الحزنَ، ولكنَّ الفترةَ التي استغرقت لمْ تكن معلومَةً إلا من خلال مفردة : "مدّة" التي يمكنها أن تكون شهرا أو سنة أو أكثر من ذلك أوأقل..ثمّ يخبُرنا بمَا لحقَه نتيجَةَ هذا الحَادث الأليم:" فجزعت وأخذتُ في رثائه يوما بالحائر.."[483]..

وهذا الرثاء لم يكن بالمتناول في هذه الفترة الحزينة ،وقد امتطاها الشاعر ليخبرنا أنّ العملية التي سيُبْنَى عليها الحدثُ المكوّن لعناصر الرحلة كلها إنّما مردّه هذا الزمَنُ التَّعِيسُ :"وقد أُبهمت عليّ أبوابه"[484] وربّ ضارّة نافعة كما يقولون.فلو لم يستغلق القول

---

481 / ابن شهيد .التوابع والزوابع.تح، بطرس البستاني .م.س.ص:88

482 /م.س.ص:88

483 / م.س.ص.88

484 /م س:ص،88

على ابن شهيد ماكان لزهير أن يأتيَه ولا أن يأخذه في هذه الرحلة الماتعة..لنسمعه يقول بعد ذلك:"إلى أن انتهيت من إلى الاعتذار من الملل الذي كان ،فقلت:

وكنت مللتُكَ لا عَنْ قِلى***ولا عَنْ فسَادٍ جَرَى فِي ضَمِيرِي

فارتجّ عليَّ القول وأُفحمتُ، فإذا أنا بفارس ببَاب المجلس على فرس أدهَم كما بقل وجهه، وقد اتّكأ على رمْحه، وصاح بي:"أعجزا يا فتى الإنس؟"قلت:"لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان، قال لي:"قل بعده:

كمثلِ ملالِ الفتَى للنَّعِيمِ***إذا دَامَ فِيه ،و حَالُ السُّرورِ..."([485]).

فقد تنوّع الزمن في مفردات عديدة بين زمن مضى وآخريأتي بدلالة الأمر والظرف:"قل بعده" وهذا الـ:بعد" يكون في اللاحق من الزمن، وحالة استمرار الزمن استعملها في مفردة:"دام " وهو زمن يربط الماضي بالمستقبل مرورا بالآن. وكان هذا الدّوام مقرونا بشرط [إذا]،التي ركّبت معها جملة اعتراضيَّة عمّقت المعنى أكثرَ وجعلته يخدُم السيَاق، ويشي بحَالة نفسيَّة مضطربَة بينَ قول استغلقَ ،وحَلّ من فَتى لا علمَ له بأمره..فلو اكتفَى بالقول:"كمثل مَلال الفَتى للنَّعيم وحَال السُّرور، لكانَ المَعنى أنَّ المَللَ للنَّعيم والسُّرور ،حالةٌ طارئَة ،لا تدُومُ أو تَعُمّ ،لكن :"إذا دَامَ فيه" عمَّقتِ المَعنَى ويُمكنُ أنْ تؤخّر عَن تركيبها ،فَلا يَختلُّ غَير الرَّوي الذي تبنَى عليه القصيدة ويطلبُه الشاعرً طلبا حَثيثا:

[485] /م.س.. ص:89

"كمثْل ملالِ الفتَى للنَّعيم ***وحالُ السّـــرورِ إذا دامَ فيه.."

ثمّ ينطلقُ الشاعرُ الى زمنٍ يحملهُ إليه صاحبُه وتابعُه زهير، مخترقا الجاهليين، والعبَّاسيين، والأمويين، في زيارات تُلبسُ المكانَ بالزمن..لينهي هذا اللقاء بقوله إلى صديقه أبا بكر:"وكنت، أبا بكر، **مَتَى** ارتجَّ عليَّ، أو انقطعَ بي مَسلك، أو خانني أسلوبٌ أنشدُ الأبياتَ فيمثلُ صَاحبي، فأسيرُ إلى ما أرغبُ، وأدرك بقريحتي إلى ما أطلبُ، وتأكّدتْ صُحبتُنا .."[486]. الزمن من خلال مفردة:"متى" أو الفعل تصفُ حالة وتقرّ بالقرين ،واستعمل المستقبل لها أكثر من المَاضي الذي كانَ في الفقرة الأولى، ومن ذلك هذه الأفعال:" أنشد /يمثل /أسير/ أرغب/أدرك / أطلب..وهذا يدلّ على انتقاله من الماضي[الحائر]إلى المسقبل[أرض الجنّ] للشعراء..و[مرج دهمان]للخطباء بعد ذلك..وعلى هذا يستقيم السّردُ الحكائي، وبنَاءُ القصّة .

وتبدأ الرحلة إلى الشعراء بفعل يرجع الى المَاضي مرتَبط بظرف زمَان ،وقد وضعه على وزن "تفاعل" لتبيان الحديث الذي يتبادله مع تابعه زهير:"تذاكرت يومًا مع زهير بن نمير أخبَار الخطبَاء والشعَراء.."[487].ولعلنا نذكر أنّ الزمن لا يعرف له حدّ عندما يتعلق بالجنّ، فقد انصرفَ التابعُ وعَاد بسرعَة، عَبّر عنهَا بقوله:"كلمح بالبَصر" وتحيلنا هذه العبَارة الى مَا كانَ من قصَّة سيدنا سليمان والجنّ في أيهم يُحضرُ له بلقيسَ ملكة سَبأ. قال تعالى مخبرا عن هذا الأمر:" قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُك..(النمل40)..فقد ربط تابعه بذاك الذي له قدرات خارقة ويملك عِلمًا من الكتَاب..

---

[486] / م.س.ص:90
[487] / م.س.ص:91

أيقونة المكان وأيقونة الزمان عند ابن شهيد:

أ/ أيقونة المكان:

إنّ المكان يتّخذ له بُعدا يتجَاوز حيّزهُ الجغرافي المتعارفِ عليه، فهو يمنحُ المرجعيَّة في كتابات ابن شهيد في العَودَة إليهَا والتفاعل الإيجَابي معَها، والتعَامل مَعه، إنّه بهذه الكيفية يمنَحُنا القدرةَ على مُحَاولة تأصيل الفكرة التي يستهدفها.(488) ،فحينَ أبحثُ في أدواتِ الاستعمالِ لهذا المَكان أجدُ التنوّعَ فيه بشَكل كبيرٍ فهو :

الجبل

الحمَّام

المدينة بكل عناصرها

المجالس و النوادي

الأنهار والعيون والبحار

المروج والأشجار

القصور والحانات..

إنّ المكانَ في كلّ هذا يتمحورُ حول المفهومِ الفكري الذِي تَحَرّكَ فيه ابنُ شُهيد في كتابة رسَالتِهِ ، إنّه كالزمَان اتخذهُما أداةَ تحليلٍ وركيزةَ دفاعٍ وعمودَ بنَاء مكانته، فنالَ في الأخير الإجازات كماأراد، لقد أحسن التعامل مع الظواهرالإنسانية المختلفة بين زيارة

488 /إنها البحث عن مكانته الحقيقية كما يراها هو بين أدباء الأندلس كلهم وليس قرطبة فقط ، فالمكان هنا أوسع من المدينة..

شاعر في مكان ما، اختلف بين الجزيرة العربية والعراق وحدود بلاد الفرس..وبين نوادٍ لأهل النثرمجتمعين وأخرى لنقاد الجن والحيوان...ومسحَ فترة زمنية امتدت من امرئ القيس إلى القرن الرابع الهجري..

لقد كانت الرحلةُ بداية أشبه بمخطّط ارتجالي لم يُعِدَّ له عدّته..فانزوى في ركن من أركان الحائر، واستغلق عليه قول الشعر، إنه زمن القول فكيف يعجز؟..وجاء الفرج بمجيء التابع ،ليتحوّل إلى رحلة أرادها بكل أبعادها الفكرية، ويولّد من حركتها شهادة جمعت فحول الشعروأرباب البيان، فلم يكن في النص ما يوحي بالعجز أو الضَّعف في الأداء ، وأراد أن يسوّيَ في ذلك بين ابن شهيد الشاعر، وابن شهيد الناثر..وإن رأى كل طرف تفوّقه في جانب عن الآخر..فأجازهُ امرؤ القيس والمتنبي مثلا في التفوّق الشعري..ورأى الجاحِظ وعبدُ الحميد أنّه متفوّقٌ في النثر..وهو يرى الأمرين عنده سيان..فأينَ هي مكانته كما دلّ المكان؟

1/**<u>عند الشعراء والكتاب</u>** :

إنَّ اختيارَه الصحراءَ العربيةَ في الجزيرة بكلِّ تضاريسها المخيفة دلالة على ركوب الصِّعاب للحصول على الإجازة، فلا توقفه حواجز ولا تعرقله نواشز، فامرؤ القيس في مكان به أشجار ومياه ومعطر بالروائح ، إنه مكانٌ يليقُ بالأمراء، وهو بالفعل أميرٌ لملك كندة، وأميرٌ بينَ شعراء عصره ،ويليق به المكان وما يحيط به من اخضرار وجنان..

وحين ننتقل إلى مكان آخرنجد شاعرا جاهليا يضرب في الأعماق باحثا عن الأعناق، يريد الثأر، ويقطع لذلك الأميال إنه قيس آخرهو ابن الخطيم..

وفي مكان غير بعيد عن هذا يذهب بنا إلى شاعر شاب، ومغدور ذهب عن الأنظار وغاب..ويجده في مكان هو أليق برجل وقع ضحية سذاجته، وانتهى به الأمر إلى حتفه، إنَّه طرفة بن العبد..

وفي دخوله المدينة، وتحوّلُ البادية حينا والصحراء أخرى إلى مساكن وحانات وقصور وعيون جاريات ، ومضارب سباق، نجد المكان يأخذ لون الترف والمجون واللهو، كما هو شأن حين زيارة أبي نواس، ويأخذ حركة ونشاطا آخر يوحي بالبحث عن الرفعة والسيادة كما هو الشأن عند المتنبي..

ومن عناصر المكان نجد الجبل ،وقد جعل قاعدته بداية الرحلة إلى الأعلى في الرقي والعلو، وحين يصل القمّة يجد صاحبه لم يصحُ منذ عشر كما أخبره أهل الدّير.. إنه حسن الدّنان صاحب أبي نواس..ولا يُزيل غِشاوةَ السُّكْر وضبابيَة الوَعي إلا قصيدة أنشدهُ إياها..فهذا الجَبل هو منزل من مَنازل أبي نَواس والمَنزل هنا ليسَ مكانا للإقامَة،بل هو ما ينزل فيه الفتى للهو والمجون:"إلى أصل جبل حناء من منازل أبي نواس"(489). وهذه الأيقونة دليل على الصَّلابة والمتانة والوقوف القويّ في وجه العاتيات،

[489] /ابن شهيد .التوابع والزوابع تح.البستاني ...م.س.ص:104

والردّ بقوة عن كل الموجات.. فليس الجبل مكانا آمنا دائما، وليس بالمقابل مكانا مخيفا دائما إنه تنوع بين ذينيك:"..الجبل مكان للضياع والفقد..الجبل ارتفاع وحاجز ونهاية، لقد عمدت القصّة الخرافية والقصة الشعبية إلى استعمال الجبل لواحد من هذه المعاني، بعد إحاطته بهالة من الضبابية وعدم التحديد تبثّ فيه الروائح والأصوات، من همهمة وهمس وهدير،وكلّ لغط غامض وغريب، وهي في سعيها ذاك، تراعي ـ ابتداءً ـ عاملا نفسيًّا مركوزا في المتلقي الذي تمتليء نفسه فَرقًا ممّا يسمع ، وممّا يرتسم على وجه "الحاكي" من تعابير تهوّل الوصفَ وتنفخ فيه الأصواتَ، وتبثّ فيه الحركاتِ.."(490)

كما نجد عنصرا آخر لأيقونة المكان، إنه المروج في شساعتها واخضرارها ، يدلُّ على جَمال الطبيعَة الأندلسيَّة ورسوخها في ذاكرتِه ولو انتقلَ إلى الصَّحراء، لقد جَمعَ له تابعُه خطباءَ الجنّ في مَرج دهمَان، فالمكان أخضر والإجازة ستكون بلون الفرح والربيع فالمكان منبسط ودلالة ذلك أنه سيبسُط أفكاره، ويقدّمُها لأرباب البيَان ويرى ما يرون فيها..

وكان القصرُ مكانا أيضا، ويكون لقصرَي النعمَان بالحِيرة ذائعَيْ الصِّيت: السَّدير والخورنق، الذكر العطر و الصَّريح، وكان في معرض حديثه عن وصف الحلواء وما أحدثته في نفس أحَد الفقهاء، الذي وصَفه بـ"غريم بطن" حيث لم يستطع مقاومة ما يرى،

3/حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي.م.س.ص:63

وما كان يملك ما به تُشترى، حتى تصدّق عليه ابن شهيد..ويصف إقبال الرجل عليها إقبال من يشتهي مالا يقدرعلى مقاومته، فكأنّ القرم والشّره أخذا منه كلّ مأخذ، فأطنب ابن شهيد في الوصف، واشتدَّ على صاحبه في القصف، فلم يترك له قائمةً تقوم، ولا دائمَةً له في أصلهِ تدوم..

ويربط هذا بالمكان حفظا لما تركهُ من كرامة هذا الفقيه الشره:"وسرْنا إلى مَكان خال طيّب.."(491) و ينتقلُ بعد ذلك إلى مكان أوسعَ وأرحبَ إنه الخورنق والسّدير الموحيان بالسُّلطة والجَاه، ولمّا يَذكر البحتري يَذكر مَعه القَصر حينَ رحلته إلى بلاد فارس حَيث الفرسانُ واللعبُ والسَّاحات، وما كانَ فيه من حَياة عَامرة ومَاض زاخر وحَركة تملأ الأرجاءَ كلّها، وهذا مَا أراهُ دلالةً على أن ابن شهيد يسقِط ماضيَ القصْر الكسراوي بماضيه ،و حَاضرَه بحَاضرِه ،ألم يكن صَاحبَ حُضوة و مَكانَة و مَنزلةٍ في قصُور العامريين؟ وانتقل به الحال إلى الإبعاد والسِّجن بعد الفتنة التي حلّت بقرطبة(492).

وحين يتكلّم زكي مبارك عن تفوّق ابن شهيد عن المشارقة ومثاله في ذلك بديع الزمان الهمذاني، يقدّم المكان في هذه الفقرة من الرسالة في قوله:"..انظريا سيدي كأنه عصيرصباح، أو ذوب قمرليّاح، ينصبّ من إنائه، انصباب الكوكب الدّريّ من سمائه، العين كانونه والقمر عفرينه، *كأنه خيط من غزلِ فلَقَ، أو مخصرة ضُربِت من ورق،*

491/ينظر التوابع والزوابع للتأكد من الصفحة...

492/ ينظر زمن كتابة الرسالة في: النثر الفني في القرن الرابع الهجري. للدكتور زكي مبارك..ص:318 وما بعدها

يرفع عنك فتروى، وتصدع به قلبك فتحيا. عندئذ ضرب شيطان بديع الزمان الأرض برجله فانفجرت له عن عين تدهدى إليها فاجتمعت عليه فغاب وهو خجل خزيان..."

(493) إنه مفعم بالحياة، ودلالة ذلك الماء المتواجد سائلا في كل جنباتها :

1/الماء كأنه كوكب دريٌّ نزل من أعلى (انصباب الماء على الإناء)

2/الماء : مكانه القمر والعين الجارية

3/الحاجة الشّديدة إليه : يروي العطشى، ويُذهِبُ الظّمأَ

4/ تحيا به القلوب الميْتة..

لقد كانت أيقونة الماء متواجدة في الأرض في أشكال مختلفة مثل العيون والبحار والأنهاروالبركة والسحب والمطر والغدير..بل إنّه استعمل اللون الأزرق الذي يوحي بالماء وبالبحر وهو لذلك:"يتماشى مع انفعال الشوق.."(494)

ب/ أيقونة الزمان:

إنّ الزمن الطبيعي في الرسالة هو القرن الخامس الهجري..ولكنني لا أهتمّ باليوم و الشهر الذي وجدت فيه الرسالة لأنه كان وقد يبقى صراعا بين المشارقة والمغاربة في تحديد من الأول توابع ابن شهيد أم غفران للمعري..[495] فالرسالة هي رحلة في [الزمن]

---

493 /ابن شهيد /التوابع والزوابع..م.س.ص :128

494/هربرت ريد (**Herbert Read**).تعريف الفن.تر/ابراهيم إمام . مركز الشارقة للإبداع الفكري[د.ت]ص:23

495 /للتفصيل في هذا ينظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذه الرسالة ..والإحالات التي فيه

تبدأ الحوادث عندما يستغلق الأمرُ على ابن شهيد في قول الشعر، ويسترجعُ ما كان من أمره في الماضي وهو يختلفُ إلى بعض المُعلمين:" كنت أيَّام كتابِ الهجَاء، أحنُّ إلى الأدبَاء، وأصبو إلى تأليف الكلام؛ فاتبعت الدواوين، وجلست إلى الأساتيذ.."[496]. ويتوقّف السّرد، ويذكر أمره وماتعلّق بالتلقي والتكوين من كتاب الهجاء والأساتيذ ومجالسة الأدباء، حتى :"نبضَ لي عرق الفَهم ودرَّ لي شريانُ العِلم..."[497].

وتبْدأ حَركةُ الزمَن حينَ يزورُه التابعُ ويطلبُ منه زيارَة التوابع في وادي الجن..ولكنَّه زمن غير محدّد كالأرض تماما، لقد جعله مبهمًا وعامًّا :" تذاكرت يوما مع"زهير بن نمير" أخبار الخطباء والشعراء"[498] و"وطارعني كلمح بالبصر.وقد أُذِنَ له.."[499] فاستعمال تقنية الحذف[500]في سرد الأحداث اختصرت الزمن وجعلته يمرّسريعا، ويهيئ المتلقي لسماع الحكاية بمرافقة التوابع في أرض ليست كالأرض وأشخاص ليسوا كمن نعرف. فعالم الغرابة يمسح البداية كما المتن والنهاية ،لم يذكر لنا كم استغرق غياب تابعه حين الاستئذان..ونحن بدورنا لم نسأل ولم نبحث عن ذلك الزمن..واكتفينا منه بتقبّل[كلمح بالبصر]..لعلّها كانت إشارة إلى" قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ.."(النمل40)فهما من الجنّ، ولا يأتي ذلك إلا جنيٌّ. إنّ

---

[496] /التوابع والزوابع ابن شهيد تح/بطرس البستاني...م.س.ص:.88

[497] /م.س.ص.88

[498] /م.س.ص:91

[499] /م.س.ص:91

[500] /حذف ما كان بعد الانصراف وزمن المكوث ليعود بعد أن أذنَ له شيخه.

مفردات الزمن هنا تحتاج اختراقا ليزول هذا الغموض عنها، ومنها:" وما أنت إلا محسن على إساءة أهل زمانك.." فالإحسان والإساءة من أعمال البشر التي ارتبطت بالزمن الذي يعيشه ابن شهيد لأنه جعل الزّمن مضافا إلى[أهل]..إنّها دنيوية بحتة:" "تقترن هذه الصيغة الزمنية بإشارات تؤكد انغراسها في الإطار الدنيوي"(501).ومن ذلك ما نجده من لفظة اليوم والشهر في أكثر من موضع مثل قوله:" قالوا: إنه لفي شرب الخمرة منذ أيام عشرة"(502). وقوله:" قال هو بدير حنة منذ أشهر.."(503)

إنّ الزمن هنا بناه ابن شهيد سرديا بطريقتي الاسترجاع تارة ،وهو الغالب من خلال عودته في زمن الشخصيات التي زارها وهي قد عاشت زمنا ماضيا عن زمنه ،واختلفت مُدَدُ حياتِها وأمْكنَةُ حَرَكتِها وعَيشُها..إنَّه :"حَدثٌ سَابقٌ عَن الحَدَث الذي يُحكَى"(504) وزمَن آخرهوَ زمَن الاستشراف أوالاستبَاق..وهوحَكْيُ أحداث لم تكن من المَاضي إنّه:"حكي شيء قبل وقوعه"(505) وسارت وفق خط بياني ممتد أوجده السارد في ذهنه لا يهمُّنا واقعه أوخياله، بقدرما يهمُّنا تواليه وتراتبيته:" الأصلُ في المتواليات الحكائيَّة أنهَا تأتي وفقَ تسلسل زمَني متصَاعد، يسير بالقصَّة سَيرا حَثيثا نَحو نهايتها المرسومَة في

501/ عبد العزيز شبيل: "البنية القصصية في رسالة التّوابع والزّوابع لابن شهيد الأندلسي"، حوليات الجامعة التونسية، سوسة، تونس، 1988م. ع29.ص:149

502 / ابن شهيد الأندلسي: رسالة التّوابع والزّوابع، (تحقيق: بطرس البستاني)، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان، 1387هـ - 1967م.ص.105

503 / المصدر السابق.102

504 / سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي"الزمن-السّرد- التبئير"، المركز الثقافي العربي، [د.ط]، بيروت: لبنان، الدار البيضاء: المغرب، [د.ت].ص:77

505 /م.س.ص:77

ذهن الكاتب، على أنَّ استجَابة الروايَة لهذا التتابع الطبيعي في عَرض الأحداث حَالة افتراضية أكثر مِمَّا هي واقعية، لأنَّ تلك المتواليات قد تبتعدُ كثيرا، أو قليلا عن المَجرى الخُطي للسَّرد، فهي تعودُ للوراء لتسترجعَ أحداثا تكونُ قد حصلت في الماضي، أو على العكس من ذلك تقفز إلى الأمام لتستشرف ما هو آتٍ أم متوقع من الأحداث، وفي كلتا الحالتين نكون إزاء نوع من الذهاب والإياب على محور السَّرد انطلاقا من النقطة التي وصلتها القصة"(506).فهمَا معًا يعتبران:" عصبَة المفارقة السَّردية، ذلك أن السَّرد الاستذكاري حَركة تتجه إلى الخلف، والسَّرد الاستشرافي حركة تتجه نحو المستقبل، وكِلاَ الحركتين المتعاكستين تتخطى الزمن الحاضر، فالحركتان تخلخلان النظام الزمني للرواية، وتكسران الرتابة، والتسلسل الخطي"(507).

وابن شهيد كسّر الرتابة التي نعرفها للنظام الزمني ،فقد أوجد في الاسترجاع حالة الاستشراف ذاتها ،تمثّل هذا حين رجوعه إلى الشعراء أو الخطباء أو النقاد وهم من ماضيه تماما، فقد استحضرهم لينال منهم الإجازات ، لقد كانت نفسه تستشرف المستقبل، ليعود إلى بلاده قرطبة في عالمها الواقعي وينافس أقرانه من الذين يجعلون

---

506 / حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي "الفضاء–الزمن–الشخصية"، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء: المغرب، بيروت: لبنان، 1990م. ص:119

507 /صالح مفقوده:نصوص وأسئلة "دراسات في الأدب الجزائري"دارهومه، ط1،الجزائر ،2002م. ص 16، 17

من أخطائه "طرمذة" بين تلاميذهم، وقصد بذلك الافليلي..إنّه يحدث الخلخلة في زمن ويتجاوز الرّتابة من خلال هذا الفعل.

إننا أمام تقنية مركّبة في السّرد الحكائي ،فقد بدأ بحديثه الموجّه إلى صديقه أبي بكر وعتابه، ثم استذكاره حبيبته وما أثاره ذلك في نفسه ليرثي في البستان حاله. وهنا كل شيئ يسير طبيعيا ،حتى استغلق عليه أمرالشّعر ليجد مدخلا لشخص آخرسيكون له الشأن الأكبر في سرد المحتوى وبلوغ الهدف الذي ينشده ،إنه تابعه زهيربن نمير، وهومن الجنّ. ليبدأ خط السيرمعتمدا على الذاكرة، وزيارات لأزمنة بعيدة قد تصل الخمسة قرون كاملة..لقد كان زهير بن نمير مفتاح الحكاية والمزاوجة بين زمني الحاضر والماضي. وهذه المزاوجة لا تقوم على محاكاة الزمن الطبيعي. فالقصة تبدأ بإقرارابن شهيد أنّه سيتكلم خارج المعقول، ليأتي بالعجب العجاب:"فأما وقدقلتها،"أبا بكر"،فأصخ أسمعك العجب العجاب.."[508]..ونحن ننتظر منه الذّهاب بنا إلى المستقبل من خلال[أسمعك] لكنه ينتكس زمنيا ليعود إلى الماضي، ويسرد حكاية من كان يهواه:"وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتد به كلفي، ثم لحقني بعد ملل في أثناء ذلك الميل. فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل.."[509] ويعود الزمن بابن شهيد إلى الحاضر ليجد أن الكلام قد استغلق عليه ،ويكون مخرجه من هذه النقطة الزمكانية، رحلةٌ إلى العالم الآخر،ولقاء من يرغب في زيارتهم من الشعراء والخطباء...

إنَّه الانتقالُ من الحَاضر إلى المَاضي، بَحثاعن المستَقبل، في حَركة تجعَل الزمنَ يأخذُ مفهومًا يوحي بالصِّراع الذي أوجَده ابن شهيد لنفسه يُقبل عليه: يكون هادئا لدخوله

---

[508] / ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص 88.

[509] / .م.س.ص:88

واديًا لا يعلمُ عنه شيئا بمقابلة هادئة مع امرئ القيس ومثله الشاعر الشاب طرفة بن العَبد لكنها ما تلبث أن تتحوَّل إلى حَركة سَريعة تبيِّنُها فروسية الشَّاعر الفارس الثائر قيس بن الخطيم :"ويشتدّ في أثرنا فارس كأنَّه الأسَد، على فرس كأنَّها العقاب.."[510] .

إنّ هذا النموَّ المتزايدَ لحركة الزّمَن المرتبطة بالأشخاص مِن حَيث عنفوانهم أو هدوئهم ،تبيّن أنّ الزّمنَ النفسي كانَ متواجدا أيضًا في ابن شهيد يبْني به شخصيَته البَاحثة عن الرفعة قبلَ أن يبني به نصَّه المُدَافعَ به عن هذه المكانَة الرفيعَة.

ولعلّ الزمَن الأكثرَ تداولا في الرسَالة هوَ الحَاضر، فَهوَ يَكمُن بَينَ المَاضي الذي استرجَعَه، والمُسْتقبل الذي استشْرفه، ويمْكنُ أن نبيّنَه مِن خِلال هَذا الرَّسم[511]..

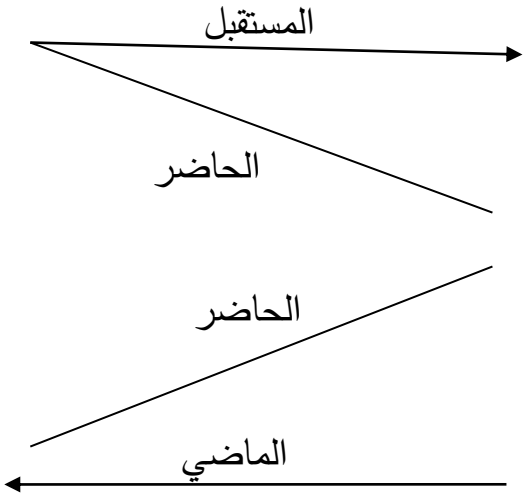

إنّ الزمَن السَّردي في المَاضي تذكار ولهْفَة إلى مِن كانَ يهواه..وفي المستقبل الحُصول عَلى المكانَة اللائقة به والتي يأمَل أن يَنالها من كبَار شعَراء وأدبَاء المشرق، أمَّا ما بين الزمنين، فهو الحاضرُ في حضرة شعراءٍ من مراتبَ وأمصار مختلفة.. يقطعُ

[510] / ابن شهيد.التوابع والزوابع.م.س.ص:96

[511] / يُنظر: سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية "دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [د.ط]، القاهرة، مصر، 1984م.ص 31.

أمكنةً للوصول إليهم في لمْح من البَصر..وحَاضر يأخذُ إجازات كبَار كتَّاب النثر في العَصرين: الأموي والعباسي..

وهذا الجدول يبيّن ذلك أكثر و يفسّر الرسْمَ السَّابق :

الزمن	الحدث.
الماضي	الردّ على أبي بكر الذي اتهمه أنه يأخذ الكلام عن غيره
الحاضر	دخول تابعه زهير بن نميروتعرّفه عليه..
الحاضر	رحلته مع زهير ولقائه التوابع وحصوله على الإجازات.
المستقبل	التطلّع إلى المكانة بعد الإجازات

إنّ الحاضر كان مركّبا من خلال حالتي [الآن] و[الآتي] لكنهما لا يمثلان المستقبل ،بقدر ما يدفعانه إليه ويكون فاعلا بالقوة ، ومن ذلك ما يراه المتنبي :" إن امتدّ به طَلْقُ العُمْر، فلا بُدّ أن يَنفُثَ بِدُرَرِ، وما أُرَاهُ إلاَّ سَيُحتَضَرُ، بينَ قَريحَة كالجَمْرِ، وهِمَّةٍ تَضَع أخمُصَه عَلى مَفْرِقِ البدر.."(512).

إنّها مقولة تجعل من ابن شهيد شاعرا وناثرا لا يشق له غبار..إنّه المستقبل الذي رحل من أجله ،والماضي الذي عاد إليه والحاضر الذي يتمثّله في كبار مَن أراد مِن أهل الشِّعرِ والنَّثْرِ. وهو ما تمثّل أيضافي تعليق أبي تمام حين نصحه قائلا:" "إن كنتَ ولا بدّ قائلا، فإذا دعتكَ نفسك إلى القول فلا تكدَّ قريحتك، فإذا أكملت فجِمَامُ ثلاثةٍ لا أقلَّ. ونقّحْ بعد ذلك.."([513])

والزمن يستغرق في حركته بين ثنائيتي:الماضي الحاضر/الحاضرالمستقبل في مفهوم [المدة]وهي مرتبطة :" بإيقاع السرد، بما هو لغة تعرض في عدد ما محدود من السُّطور أحداثا، قد يتناسب حجم تلك الأحداث مع طول عرضها، أولا يتناسب، مما يؤدي في النهاية إلى الشعور بإيقاع السرد يتراوح بين البطء، والسرعة.."(514) .

---

512 / ابن شهيد.التوابع والزوابع.م.س.ص:114

513 / المصدر نفسه، ص 101.

514 / أيمن بكر. مجلة دراسات أدبية :" السرد في مقامات الهمذاني ".الهيئة المصرية العامة للكتاب.1997 [د.ط] ص:54

وأجد خاصية السرد بعناصره الأربعة المتمثلة في:

1/**<u>تقنية الحذف</u>** : بحيث يتجاوز ابن شهيد جملة من العناصر لا يريد أن يذكرها في سياق سرده للأحداث، وكأنه يريد بهذه التقنية أن يسرع بالحدث للوصول إلى ما يريد أن يصل إليه ومثال ذلك حذف المدة الزمنية التي استغرقها تابعه زهير بن نمير حين طلب من أن يذهب ليستأذن شيخه في الرحلة إلى من يريد إجازاتهم :" قلت: هل حيلة في لقاء من اتفق منهم؟ قال:حتى استأذن شيخنا. وطار عني ثم طار كلمح بالبصر،وقد أُذنَ له.فقال :حُلَّ على متن الجواد. فصرنا عليه وسار بنا كالطائر يجتاب الجوَّ فالجوّ، ويقطع الدّوَّ فالدّوّ..."([515]) فهذه الفترة لا يمكنها أن تكون في مدّة قصيرة زمنية في الواقع لكن ابن شهيد أراد أن يجعل من الزمن فترات مضمرة بيضاء يمكننا أن نتصوّرها بعيدا عن الإملاءات السردية. وفي مثل هذا الحذف للزمن ما نجده في البداية لكنه يعود إليه بشيئ من التوضيح وإن كان غير كاف، حين أخبر صاحبه أبا بكر أنه تعلم من جلوسه إلى الأساتيذ، ونبض له عرق فهم، ودرّ له شريان العلم.. ففترة التعلم والجلوس إلى المعلمين لم تحدّد زمنيا، ولا نعلم كم استغرقت حتى حصل له ما حصل،ونال من العلم ما نال. وقد تكون السرعة في سرد الحدث ما نجدالإشارة إلى المفاخرة بعبقريته في التحصيل واكتفائه بالتلميح :"..وقليل الالتماح من النظر يزيدني،ويسيرالمطالعة من

[515] / ابن شهيد.التوابع والزوابع .م.س.ص:91

الكتب يفيدني.."[516] وكان من شواهد هذا الحذف ما وجدناه في عدة مواضع من الرسالة يمكن أن أجملها في هذه المقاطع:

1/ " كان لي في أثناء صبوتي هوى اشتدّ به كلفي،ثم لحقني بَعْدُ ملل...."[517] فلم يذكر الفترة التي كان بها كلفا..ولا المدّة التي استغرقتها الحالة..وكان الملل بعد ذلك باستعماله حرف العطف [ثم] الذي يَدُلُّ على التراخي ،وأكّد الفترة الموالية ب[بعدُ]..

2/"..وتحادثنا حينا..."[518]إن مفردة [حينا] عامة ومبهمة، فالحين عنده ليس الذي عند تابعه، وعبّر عنه بالحالة النفسية التي كان عليها بعد أن استغلق عليه الكلام، وظهر له التابع ليفتح المغاليق، ويجيزه ..

3/"..وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها، لكنّي ذاكر بعضها.."[519] والسؤال:أين البعض الآخر؟..ولماذا الاختصار والاقتصار على هذه؟..وهذا اعتراف منه أنه يحذف ولا يذكر كل القصص التي حدثت،ويحذف ممّا يذكر أيضا

4/ثم ركزها وجعل ينشد:سما لك شوق بعدما كان أقصرا..حتى أكملها"[520]..فحتى هذه الغائية لها فترة زمنية حدث فيها الإنشاد اكتفى ابن شهيد بالشطر الأول فقط..وهذه التقنية في التلميح إلى النص الشعري يستعملها كثيرا، فيكتفي بالشطر أو البيت ثم يقول:" حتى أنتهيتُ أوفلما انتهيتُ أو حتى أكملَها .." وعندما يحذف من النص الشعري ويعود إليه يقول:"ومنها"[521]

---

[516] / ابن شهيد.التوابع والزوابع.م.س.ص:88
[517] /ابن شهيد التوابع والزوابع.م.س.ص:88
[518] / م.س.ص:89
[519] / م.س.ص:90
[520] / م.س.ص"92
[521] /م.س.ص:104/97

5/ "..واستنشدني فلم أنشده إجلالا له، ثم أنشدته.."[522] لقد حذف سبب التراجع في عدم الإنشاد أولا إجلالا واحتراما لمقام أبي تمام، وقد يكون التابع أنشده، فكل ذلك لم يذكره بل جاء بحرف العطف [ثم] الذي أفاد أن زمنا قد حدث بين الرفض والاستجابة بعد ذلك..

6/فأنشدته من رثائي في ابن ذكوان.." [523] ولم يذكر بيتا واحدا من هذه المرثية بل ذكرها وحذفها..للعلم بها.

7/"..فقد كُفيتَ العناء إليهم على انفرادهم. قلت:لمَ ذاك؟ قال:للفرق بين كلامين اختلف فيه فتيان الجنّ..وانتهينا إلى مرج..."[524] لقد حذف ما اختلف فيه الفتيان من الكلام ليحتكموا إلى مجلس جمعوا فيه كبار الكتاب والخطباء..

8/ "فقلت لقد عجلت ـ أبا هبيرة ، وقد كان زهير علمني كنيته، ..[525] فقد أقرّ ابن شهيد أن حديثا دار بينه وبين تابعه زهير بن نميرلم يذكره لنا في سياق القصة، وأشار إليه بأنّ زهير أخبره بكنيته، والأكيد أن الكنية لم تكن وحدها في سياق الحديث عن عبد الحميد أو من بالمجلس.

---

[522] / م.س.ص:98
[523] / م.س.ص:109
[524] / م.س.ص:115
[525] / م.س.ص:117

9/ "..ومن رسَالتي في الحَلوَاء حَيث أقول..."[526] و[من] هذه للتبعيض، ما يعني أن الحذفَ قد طال الرسالة ولم يذكرها كلّها.

10/ "..فقلت :يازبدة الحقب، اقترح لي.قال:صفْ جارية.."فوصفتها. قال:أحسنتَ ما شئت أن تحسن.."[527] فوصف الجارية محذوف ،بل مشار إليه أنه وصفها.

11/"..وبدا منه ساعتئذ بَوادٍ في خطابه، رحمه لها من حضر، وأشفق عليه من أجلها من نظر.."([528])إنّ الذين أشفقوا على أنف الناقة لم يذكر منهم غير صاحب إسحاق بن حمام الذي طلب منه الإشفاق والصّبرعلى أنف الناقة، ولم يذكرغيرهم، بل حذف ما كان منهم.

12/"..هذا فرعون بن الجون. فقلت:أعوذ بالله العظيم، مِن النارومن الشيطان الرّجيم ! فتبسّم زهير وقال لي: هو تابعة رجل كبير منكم، ففهمتها عنه."[529].إنّه لم يذكرالرجل، ووصفه بالكبير، وليس بالعالم أو العظيم، والكبرقد يكون للسنّ، والرجل هنا ما أخاله إلا الإفليلي..

---

526 /م.س.ص:119
527 /م.س.ص:128
528 / م.س.ص:131
529 /م.س.ص:146

ثانيا/ **تقنية الإجمال** :

يتصرّف ابن شهيد في زمن النص حين يسرد أحداثه في الرسالة، ولتسريع الحدث زمنيا نجد ذلك حين يخلص إلى فترة فيجمعها تامة كالأسبوع أوالشهرأو السنة ،فهذه التقنية يمكن:" أن يقطع السارد مسافات شاسعة بأسطر قليلة تلخص فحوى هذه السنوات، فيتحقق الملخص"(530). فنحن نصطدم بابن شهيد يلخص سنوات التعلم، والتفوق في الشعروالنقد بكلمات اختزلت زمنا لا نعلم كم استغرق في الواقع :"كنت أيَّام كتّاب الهجاء، أحنّ إلى الأدباء، وأصبو إلى تآليف الكلام، فاتّبعت الدّواوين،وجلستُ إلى الأساتيذ، فنبض لي عرق الفهم، ودرّ لي شريان العلم، بموادّ روحانية،وقليل الالتماح من النظريزيدني، ويسير المطالعة من الكتب يفيدني..."(531)

3/ **تقنيَّة الحوار:**

وهي تقنية ثالثة تتعلق بالسَّرد حين يتوقف الزمن ليُحدثَنا عن نفسيَّة كلِّ متكلم، كأنه يواجه به المتلقي ليقول له:"هاكم أفكارفلان على لسانه.."وليعلنَ عن نفسه أيضًا من خلال المواجهة، إنَّها:"عبارة عن تركيز، وتفصيل للأحداث بكل دقائقها.."(532) إنّه يكسر الرتابة التي يضعنا فيها السَّارد، ويفرضها على المتلقي حين يقول ما يشاء، إنها تقنية

530 / نضال الشمالي: الرواية والتاريخ "بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية"، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، ط1، إربد، عمان، 2006م. ص 175.

531 / ابن شهيد التوابع والزوابع م.س.ص:88

532 / عبد العالي بوطيب: مستويات دراسة النص الروائي "مقاربة نظرية"، مطبعة الأمنية، ط1، دمشق: سوريا، الرباط: المغرب، 1999م. ص168.

تقوم بعملية:"كسر رتابة المُنظِّم للأحداث، فتتقلص سطوتُه، وتقترب الشخوصُ من القراء دونَ وصاية سرديَّة يمارسها الراوي على المروي له "(533). وقد سطا هذا الأمر على السّرد في الرّسالة، ووجدت فيه نوعين:

الحوار الخارجي والحوار الدّاخلي .وسأكتفي بالقليل من النماذج منه للدّلالة :

أ/ **الحوارالخارجي** وشكله :قال/قلت 1/ فقد كان أول لقائه بتابعه زهير بن نمير يقول ابن شهيد:"..فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه، قد اتكأ على رمح، وصاح بي: أعجزا يافتى الإنس؟

قلت:- لا وأبيك، وهذا شأن الإنسان ! قال لي :قل بعده:

كمثلِ ملالِ الفتَى للنعيمِ***إذا دامَ فيه، وحالُ السّرورِ

فأثبت إجازته، وقلت له:

- بأبي أنت !من أنت؟ قال:

- أنا زهير بن نميرمن أشجع الجنّ. فقلت:

- وما الذي حداك إلى التّصوّر لي؟ فقال:

- هوى فيك، ورغبة في اصطفائك. قلت:

- أهلا بك أيُّها الوجه الوضّاح، صادفتَ قلبا إليك مقلوبا، وهوى نحوك مجنوبا..."(534)

/) نضال الشمالي: المرجع السابق، ص 177. 533

لقد استغرق الزمن في اللقاء فترة لا ندري كم مدّتها، لكنه أطال في الحوار وتوقّف زمن السّرد بينَه وبينَ تابعه، لينقل إلينا توطيدَ العلاقة بينهما منذ الانطباع الأوّل للمتلقي من خلال عبارات كالاصطفاء وهوى، الوجه الوضّاح، قلبا مقلوبا، وهوى مجنوبا...

وهذا الحوار هو الأكثر في الرسالة بحكم التلازم للطرفين طوال زمن الرحلة، فكان زهير يسأل :"فبمن تريد ان نبدأ؟ أومن تريد بعدُ؟ أو إلى من تتوق نفسك..؟..ويجيبه ابن شهيد بذكر الشخص الذي يريد..

2/ وفي زيارته لأبي تمام نجد الحوار التالي :

"..فصاح زهير: يا "عتّاب بن حبناء"، حل بك زهير وصاحبه، فبعمرو والقمر الطالع، وبالرقعة المفكوكة الطابع، إلا ما أريتنا وجهك !

فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفلقة القمر، ثم اشتق الهواء صاعدا إلينا من قعرها حتى استوى معنا. فقال: حياك الله يا "زهير"، وحيا صاحبك ! فقلت: وما الذي أسكنك قعر هذه العين يا عتّاب؟ قال:

- حيائي من التحسن باسم الشعر، وأنا لا أحسنه"([535])

3/ تنقّله إلى دير حنّة حيث تابعُ أبي نواس حسينُ الدِّنان، يجري هذا الحوار في البداية بين زهير والرهبان:"فوقف زهير ببابه[الدّير] وصاح:

---

[534] /ابن شهيد .التوابع والزوابع.م.س.ص:89

[535] / م.س.ص:98

– سلام على أهل دير حنّة !فقلت لزهير:

– أوَهل صرنا بذات الأكيراح؟ قال:

– نعم، وأقبلتْ نحونا الرّهابين، مشدّدةً بالزّنانير، قد قبضت على العكاكيز، بيض الحواجب واللّحى، إذا نظروا إلى المرء استحيا، مكثرين للتّسبيح، عليهم هديُ المسيح، فقالوا:

– أهلا بك يا زهير من زائر وبصاحبك أبي عامر !ما بغيتك ؟

قال :– حسين الدِّنَان،

قالوا :– إنّه لفي شرب الخمرة، منذ أيّام عشرة، وما نراكما منتفعَين به .

فقال: – وعلى ذلك..."[536].

لقد تَوقَّفَ الزمَن نَتيجَة الحَركة الثقيلة للرهبَان، ولِمَا اكتسَى حَالهم مِن عبَارات الرهبَة والإجلال التي وسمهم بها، ويستمرّ هذا البطء في الزمن حينَ يلتقي بأبي نواس، وهذا مقصده، نستمع إليهما يتحاوران:

فقال لي زهير:

– " اقرع أُذُنَ نشوته بإحدى خمرياتك، فإنّه ربَّما تنبّهَ لبعض ذلك.

فصحت أُنشدُ من كلمة لي طويلة...فصاح من حبائل نشوته:

---

536 / ابن شهيد التوابع والزوابع.م.س.ص:105

- أَأشجعيٌّ؟

- قلت: أنا ذاك !

فاستدعى ماءً قراحا، فشرب منه وغسَل وجههُ، فأفاق واعتذرَ إليَّ من حاله. فأدركتني مهابتُه، وأخذت في إجلاله لمكانه من العلم والشعر.

فقال لي: أنشد أوَ حتى أنشدك؟ فقلت :

- إنّ ذاك لأشدّ لتأنيسي، على أنّه ما بعدك لمحسن إحسانٌ."([537])..

لقد توقّف زمن السرد، وأفصح ابن شهيد عن عبقريته في مخاطبة من يشاكله أدبا، ومن يعجب بشعره، وهي أطول زيارة استغرقت في الرحلة ، غير أنّ زمنها لا يفصح عنه أحد لولا أنه قال "إنه لفي شرب منذ عشر"..أما حين اللقاء فلم يذكر المدّة ولكنّنا نجده الزمن النفسي الذي يعيشه الطرفان، الابتعاد عن الإنس، والاستغراق في اللهو والشرب.

4/كما أنه يُجري الحوارَ بين أطراف عدة في مجلس واحد، وفيه يفصح عن المتكلم، لكنه لا يذكر الزمن المستغرق في هذا الحوار، ومثال ذلك ما حصل في مجلس الخطباء، حين تدخّل أكثر من طرف في الحديث مع ابن شهيد كالجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان والإفليلي، نسمعه يحاورهم:"صمت أهل المجلس، فقال:

- "إنّك لخطيب، وحائك للكلام مجيد، لولا أنّك مغرىً بالسّجع، فكلامك نظم لا نثر

---

[537] / م.س ص:106/105

فقلت في نفسي:

- قرعَك الله بقارعته ، وجاءك بمماثلته،
- ثم قلت له: ليس هذا أعزّك الله، منّي جهلا بأمر السّجع ،وما في المماثلة والمقابلة من فضل ،ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ،ودهيت بغباوة أهل الزمان...
- فقال: أهذا على تلك المناظر، وكبر تلك المحابر، وكمال تلك الطيالس؟ قلت :
- نعم، إنّها لحاء الشجر، وليس ثَمَّ ثمر ولا عبقٌ.
- قال لي:
- صدقتَ إني أراك قد ماثلتَ معي.
- قلت: كما سمعت، فقال:
- كيف كلامهم بينهم؟
- فقلت :ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنّما هي لكنة أعجمية يؤدّون بها المعاني تأديةَ المجوس والنّبط. فصاح:
- إنّا لله، ذهبت العرب وكلامها !ارمهم يا هذا بسجع الكهّان...

فقال الشيخ الذي إلى جانبه، وقد علمت أنه صاحب عبد الحميد...: لا يغرنّك منه أبا عيينة، ما تكلّف لك من المماثلة، إنّ السّجع لطبعه، وإنّ ما أسمعك كلفه،

ولو امتدّ به طلق الكلام وجرت أفراسه في ميدان البيان، لصلّى كودنه وكلّ برثُنه. ما أراه إلا من اللكن الذين ذكر، وإلا ما للفصاحة لا تهدر،ولا للأعرابية لا تومض؟

فقلت في نفسي: طبع عبد الحميد ومساقه، وربّ الكعبة !

فقلت له : لقد عجلت أبا هبيرة، . وقد كان زهير عرّفني كنيته . إنّ قوسك لنبع، وإنّ ماء سهمك لسمّ، أحماررميتَ أم إنسانا وقعقعة طلبتَ أم بيانا؟...

فتبسّم وقال: أهكذا يا أطيلس...؟

- فقلت: الذّئب أطلسُ، وإنّ التيسَ ما علمتَ !

فصاح أبو عيينة لا تعرض له، وبالحرَّا أن تخلص منه،

- فقلت : الحمد لله خالق الأنام في بطون الانعام،
- فقال : إنها كافية لو كان حجر...."([538])

ويستمرّ الحوار على هذا النحو دون الإشارة إلى زمن ما، أو فترة استغرقها ..فبقدر توقيف وإبطاء للحَدث في القصَّة إلا أنّه تجَاهل لزمَن هَذا الحَدث من حَيث الفترة التي جرى فيها، أو المدة التي استغرقها.

5/ وفي حيوان الجن نجدُ هذا الحوار الذي جرى بينه وبين بغلة أبي عيسى:"

[538] /م.س.ص:118.117

وقالت لي البغلة: أما تعرفني "أبا عامر"؟

- قلت: لو كانت ثمة علامة ! .

فأماطت لثامها، فإذا هي " بغلة أبي عيسى"، والخال على خدها، فتباكينا طويلا، وأخذنا في ذكر أيامنا.

- فقالت: ما أبقت الأيام منك؟

قلت: ما ترين. ؟

- قالت: شب عمرو عن الطوق ! فما فعل الأحبة بعدي، أهم على العهد؟

- قلت: شب الغلمان، وشاخ الفتيان، وتنكرت الخلان؛ ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة.

فتنفَّسَتِ الصُّعَداء، و قالت:

- سقاهم الله سُبُلَ العهد، وإن حالوا عن العهد، ونسوا أيام الود. بحرمة الأدب، إلا ما أقرأتهم مني السلام؛

- قلت: كما تأمرين، وأكثر"[539]..

في هذا المشهد الحواري نجد الإشارة إلى زمن مضى، وعهد كان، وأيام خوالٍ، والسؤال عنها من باب الوفاء والإخلاص للعهود ..

[539] /م.س.ص:149

ب/ الحوارالداخلي أو(المونولوج):

وكان ذلك في الرسالة وعلامته قوله:"فقلت في نفسي"(540)، وقد وجدته في موضع واحد فقط وهو في لقاء توابع الخطباء وتكرّر مرة واحدة، وقوله:"فقلت لنفسي"(541) ووجدته في لقاء صاحب الافليلي ولم يتكرّر بعدها أويذكر قبلها. وهذه التقنيةُ لا تحتاجً إلى مستقبِل للخطاب، فهو معبّرٌ عن حالة فرديَّة تكشفُ الدّاخل وتعبّر عنه، وهذا الحوار هو عرضُ الكاتب لحالته النفسيَّة التي يعرفُها أكثر من غيرها، يعرضها أمام المتلقي كما هي، فالكاتبُ يقوم بدورَي المنتج والمستقبل:"لا يشترطُ مشاركة خارجية في الحوار، ولا تعاقب في الإرسال والتلقي، بل يلقى من طرف واحد وإليه، فهو نشاط أحادي لمرسل في حضور مستمع حقيقي، أو وهمي"(542).

إنّه يجعلنا وجها لوجه مع الشخصية، بل وكأننا عنصرٌ من المشهد الحكائي العَام، إنّه يَجعَل" السَّارد وجها لوجه مع الشخصيَّات، فيصبحُ القارئ وكأنّه يشاهد المشهد أمامه، ومن هنا يعتبر المشهد الحواري تشخِيصيًّا، ومن بين وظائفه أنه يلقي المزيد من الأضواء على طبائع الشخصيات المتحاورة، ويكشف عن دوافعها"(543) يقول ابن شهيد:" فقال:

---

540 /.م.س.ص:116/117

541 /م.س.ص:124

542 / محمد سعيد حسين مرعي:"الحوارفي الشعر العربي القديم: شعر امرؤ القيس أنموذجا"،جامعة تكريت ألإنسانية 2007 م.ع 3/2

543 / إسماعيل زردومي: فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، (أطروحة دكتوراه دولة) قسم الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 1426هـ-2005م. (مخطوط)، ص 376.

"فقلت في نفسي: قَرَعَكَ، بالله، بقارعته، وجاءك بمماثلته. ثم قلت له: ليس هذا، أعزّك الله، منّي جهلا بأمر السَّجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل".

وتتكرّر هذه الصيغة بعد ذلك في قوله: "فقلت في نفسي: طَبْعُ "عبد الحميد" ومَسَاقُه، وربّ الكعبة !". فنحن هنا أمام ابن شهيد يسجن الزمن في نفسه ويحاورها داخليا، ولا يعلن عن الفترة التي دامت . إنّه هروب من الزمن الخارجي إلى داخل ذاته. وفي عبارة:فقلت لنفسي" يكون الأمر مختلفا عن قلت في نفسي" لأنّ الخطاب موجّه إلى النفس يطلب منها الاستعداد والتهيّؤ للمبارزة حين يتعلّق الأمر بمسح سنوات الاحتقار وعدم اهتمام أهل عصره ومصره به يقول: "فقلت لنفسي: العصا من العصيّة ! إن لم تعْربي عن ذاتك، وتظهري بعضَ أدواتك، وأنتِ بينَ فرسان الكلام، لم يطر لك بعدَها طائر، وكنتِ غرضا لكل حجرعَاثر.(544)

إنّ الفرارَ إلى مثل هَذا الحوار ليسَ إخفاءً لفترة الزمَن المستغرق، بل إخفاءً لحادثته مَعَ أهل زمَانه من الفقهاء واللغويين الذينَ نصَبوا أنفسَهم أوصيَاء على الشعر والأدب يميزون جيدَه من رديئه، ويعلن عن ذاته بذاته ،إنّه :" الإحسَاس بالجرح في كبريائه بسَبَب الإحبَاطات التي وَقَفَت عَائقا في طريقه، لتحقيق المَجد الذي يحلم به، وهو الوصول إلى أن يَكونَ كاتبا من كُتَّاب الدولة، ووزيرا من وزرائها، وأعد نفسه في أن

544 / م.س.ص"124

يكون كذلك (...) وما يزيد من معاناته أنه يرى من هم أقل منه وصلوا لمساعدة المؤدبين، واللغويين، والفقهاء الذي وقفوا في طريقه حين اتهموه بالتحرر، وفساد الأخلاق، والمروق، فألّف رسالته هذه للانتقام منهم". ([545])

[545] / محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، دار الكتب العلمية، ط1، بنغازي، ليبيا، 2001م. ص 259.

خصائص المكان وخصائص الزمان في التوابع والزوابع

لقد تشكلت الرحلة عند ابن شهيد من عناصرَ عدّة ،فهي الحلمُ الذي يأمله ويريدُ أن يجسّدَه في الواقع، وهي الحقيقةُ المرّةُ التي يرى أنّ عصرَه يعيشُها بينَ أقلام اللغويينَ وكلامِ الفقهَاء، وهي التحدّي الذي يرفعُه في وجوهِ كلِّ خصومه..وما كان التنقّل من الحائر لحظةَ الوعْي وإدرَاك الحقيقة، إلا ذاكَ الذّهابُ إلى حيثُ التعبيرُ عن القدراتِ التي يتجاوز بها متحدِّيه، ويرتفعُ بها حيثُ يرى مرتبته في أعلَى سلّم الإبداع شعرا ونثرا..

وهذه الرحلة الخياليَّة، لم يغبْ ابن شهيد لحظة واحِدة عن واقعِه، وكأنّه يربط المكَان حيث يكتبُ رحلته، والمكانُ حَيثُ يحَاور التَّابع..فالزَّمَن له مُمَيزاته التِي تشكّل السّرد في خُطّه الحَركي بينَ ثالوث الفعل:الماضي /الحاضر/المستقبل..

وكذلك المكان بينَ الواقع حَيث هو، والمُتخيّل حَيثُ [أرضا لا كأرضنا](546).وكان لكل منهمَا خصَائصُه ومميزاتُه.

أ/ خصائص الزمن في التوابع والزوابع:

1/ المراوحة بين الزمن الطبيعي وزمن النص المتخيَّل:

لقد مزج ابن شهيد بين زمنين، فما يحياه هو ما كان معبّرا عنه في أكثر من موضع، كالذي وجدناه قبل اتصال تابعه به، وظهوره له ومنه :" كنت أيام كُتّاب الهجاء، أحنُّ إلى الأدباء، وأصبو إلى تأليف الكلام...." وفي موضع آخر نجد :"..فاتّفق أن مات من كنتُ أهواه مدة ذلك الملل، فجزعت وأخذت في رثائه يوما بالحائر.."(547) وبين زمن متخيّل ينتقل إليه ويربطه بالواقعي ربطا لا نشعر بانتقاله منه إلا حين يستغرق الحوار

546 /التوابع والزوابع.م.س.ص:91
547 / م.س.ص: 88

بينه وبين تابعه، ومنه:" فارتجّ عليّ القول وأُفحِمتُ، فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه، وقدِ اتّكأ على رمحه، و صاح بي: أعجزا يا فتى الإنس؟ فقلت:لا وأبيك، للكلام أحيان وهذا شأن الإنسانقال لي قل بعده:

كمثل ملال الفتى للنعيم***إذا دام فيه، وحال السّرور ([548])

وكذلك في قوله:" قلت له:"بأبي أنت !من أنت؟ قال :أنا زهير بن نمير من أشجع الجنّ.فقلت :وما الذي حداك إلى التّصوّرَ لي؟ فقال: هوى فيك، ورغبة في اصطفائك.قلت: أهلا بك أيها الوجه الوضّاح، صادفت قلبا إليك مقلوبا، وهوى نحوك مجنوبا، وتحادثنا حينا، ثم قال: متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات:

وإلى زهير الحبِّ يا عـزُّ إنّهُ *** إذا ذكـرتْهُ الذّاكراتُ أتَاها

إذا جَرتِ الأفواهُ يومًا بذكرِهَا *** يخيَّلُ لـــي أنِّي أقبِّل فاهَا

فأغْشى ديَارَ الذاكرينَ، وإنْ نَأت*** أجَارعُ مِنْ دَاري هَوَى لهوَاها.

وأوثب الأدهم جدار الحائط ثمّ غاب عنّي، وكنت أبا بكر، متى ارتجَّ عليّ، أو انقطع بي مسلك، أو خانني أسلوب أنشد الابيات فيمثل لي صاحبي فأسير إلى ما أرغب، وأدركُ بقريحتي ما أطلب...."([549])

[548] / م.س.ص:89
[549] / م.س.ص:90/89

فهذا الحوار وسرد حادثة اللقاء بتابعه تمزج الواقع من حيث تواجده في البستان، ودخول التابع ومحاورته، ثم انصرافه عندما أوثبَ من جدار البستان وغيابه..فهل الأبيات التي ذكرها زهير هي للتابع فعلا أم لابن شهيد؟..إنّه ابن شهيد الشاعر معترفا بتابعه الذي يفتح عليه مغاليق الشعر حين تبهمُ عليه أبوابه.

2/ **<u>الترتيبُ الزمَني من خلال الاسترجَاع والاستبَاق:</u>**

وهذه الخاصيَّة تخدم سردَ الأحداثِ لطبيعة التخيّل الحَاصل في النص ككل لأنه رحلة إلى عالم الجنّ. وهو عالم غير مألوف لبني الإنس، فقد استرجع الزمن، ورحل إليه في مدد استغرقتها كل زيارة لتابع من التوابع، ثم الاستباق الزمني من خلال ما يأمل ويتطلّع إليه من الإجازات حين اللقاء، أو من أثر الإجازة حين يعود إلى بيئته القرطبية ولقائه بالفقهاء واللغويين، والشعراء من بني جلدته. فمن الاسترجاع الزمني نجد قوله مثلا:"..فقال :حُلَّ على متن الجواد فصرنا عليه، وسار بنا كالطائر يجتاب الجوّ فالجو، ويقطع الدّوَّ فالدّو،حتى التمحت أرضا لا كأرضنا،وشارفت جوّا لا كجوّنا، متفرّع الشجر، عطر الزّهر، فقال لي:حللتَ أرض الجنّ أبا عامر، فبمن تريد أن نبدأ؟ قال: الخطباء أولى بالتقديم، لكنّي إلى الشعراء أشوَق. قال فمن تريد منهم؟ قلت :صاحبَ امرئ القيس. فأمال العنان إلى وادٍ من الأودية ذي دوح تتكسّر أشجاره، وتترنّم أطياره، فصاح : يا عتيبة بن نوفل، بسقط اللوى فحومل ،ويوم دارة جلجل، إلا ما عرّضت علينا

وجهك..."([550])..فقد استرجع زمنا يبعد عنه بمئات السنين ..إنها رحلة إلى الماضي البعيد تزيد سنواته عن الأربع مائة سنة ..

وأمثلة أخرى عن الاسترجاع في مجلس الخطباء فهو يعود بنا إلى العصر الأموي حين يلتقي الجاحظ وعبد الحميد، والعصر العباسي حين يلتقي بديع الزمان مثلا ومنه :" فقال لي زهير: من تريد بعده؟ فقلت: مل بي إلى الخطباء، فقد قضيت وطرا من الشعراء. فركضنا حينا طاعنين في مطلع الشمس، ولقينا فارسا أسرَّ إلى زهير، وانجزع عنا، فقال لي زهير: جمعت لك خطباء الجن بمرج دهمان، وبيننا وبينهم فرسخان، فقد كفيتَ العَناءَ إليهم على انفرادهم .قلت :لم ذاك؟ قال: للفرق بين كلامين اختلف فيه فتيان الجن.

وانتهينا إلى المرج فإذا بناد عظيم، قد جمع كل زعيم، فصاح زهير: السَّلام على فرسان الكلام. فردوا وأشاروا بالنزول. فأفرجوا حتى صرنا مركز هالة مجلسهم، والكل منهم ناظر إلى شيخ أصلع، جاحظ العَين اليُمنى، على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة. فقلت سرا لزهير: من ذلك؟ قال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ، وكنيته أبو عيينة. قلت: بأبي هو! ليس رغبتي سواه، وغير صاحب عبد الحميد. فقال لي: إنه ذلك الشيخ الذي إلى جَنبه. وعَرفه صَغوي إليه وقولي فيه. فاستدنَاني وأخَذَ في الكلام مَعي، فَصَمَت أهل

[550] / التوابع والزوابع .م.س.ص:92/91

المَجلس، فقال: إنكَ لخطيب، وحَائك للكلام مُجيد، لولا أنك مغزى بالسَّجع، فكلامُك نظم لانثر.فقلتُ في نفسي: قرعَك، بالله، بقارعته، وجاءك بممَاثلته. ثم قلت له: ليس هذا، أعزك الله، مني جهْلا بأمر السَّجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمتُ فرسانَ الكلام، ودُهيت بغباوة أهل الزمان، وبالحرا أن أحركهم بالازدواج. ولو فرشت للكلام فيهم طولقا، وتحركت لهم حركة مشولم، لكان أرفع لي عندهم، وأولج في نفوسهم..." .

ثم يضيف في ذات المَجلس حينَ يذكر رسَالته في الحلواء:" ومن رسالتي في الحلواء حيثُ أقول: خرجت في لمَّة من الأصحَاب، وثبة من الأتراب، فيهم فقيه ذو لَقَم، ولم أُعرَّف به، وغريم بطن، ولم أشعر له، رأى الحلواء فاستخفَّه الشره، واضطرب به الولهُ، فدار قسٌّ ثيابه، وأسال من لعَابه، حتى وقفَ بالأكداس وخالط غمَار الناس، ونظرإلى الفالوذج فقال: بأبي هذا اللمص، انظروه كأنه الفص؛ مجاجة الزنابير، أجريت على شوابير، وخالطها لباب الحبَّة، فجاءت أعذب من ريق الأحبة.."([551])..

وفي الاستباق الزمني حين يعودُ من المَاضي إلى الحاضر نجده في محاوراته الكثيرة مع تابعه زهير بن نمير، وهذه المحاورات تتعدَّدُ بينَ بداية اللقاء، وبين الانتهاء من لقاء تابع من توابع الشعراءِ في البداية أو الخطباء بعد ذلك: ..ومن أمثلة ذلك :" وكان

[551] / التوابع والزوابع .م.س.ص:119/118

بالحضرةِ فتىً حسَنُ البزَّة، فاحتدَّ لقول شمردل، فقال: الأمرُ على ما ذكرت يا شمردل، ولكن ما تسأل الطيرُ إذا شبعت أيُّ القبيلين الغالب؟ وأما الطيرُ الآخر فلا أدري لأي معنًى عافت الطيرُ الجماجم دونَ عظام السُّوق والأذرُع والفقارات والعصاعص؟ ولكنَّ الذي خلّص هذا المعنى كلّه، وزاد فيه، وأحس التركيب، ودلَّ بلفظةٍ واحدةٍ على ما دلَّ عليه شعرُ النابغة وبيتُ المتنبي، من أن القتلى التي أكلتها الطيرُ أعداءُ الممدوح، فاتكُ بنُ الصَّقعب في قوله:

وتدري سِباعُ الطيرِ أنَّ كُماته*** إذا لقيت صيد الكُماة سبـَاع

لهُنَّ لُعابٌ في الهَواء وهزَّةٌ *** إذا جَدَّ بَيْـنَ الدّارعَين قــرَاع

تطيرُ جِيَاعاً فَوقهُ وَ تردُّهـا *** ظُباهُ إلى الأوكَاروَهي شِبَاعُ

تَمَلَّكَ بالإحْسَانِ رِبقـةَ رِيقِهَا *** فهُنَّ رَقيـقٌ يُشتَرَى و يُبـاعُ

فاهتزَّ المجلسُ لقوله، وعلموا صدقه.

فقلت لزهير: من فاتك بن الصَّقعب؟ قال: يعني نفسه .قلت له : فهلاَّ عرَّفتني شأنه منذ حين؟ إنّي لأرى نزعاتٍ كريمَةً؟ وقمتُ فجلستُ إليه جِلسَة المعظِّم له. فاستدار نحوي، مُكرماً لمَكاني، فقلت: جُدْ أرضنا، أعزَّك الله، بسَحابك، وأمطرنا بعيونِ آدابك.قال: سل عما شئت.

قلتُ: أيُّ معنى سبقك إلى الإحسان فيه غيرُك، فوجدته حين رُمته صعباً إلا عليك أنك نفذت فيه؟

قال: معنى قول الكندي:

سَموتُ إليهَا بعدمَا نامَ أهلُها***سموَّ حَبابٍ حَالاً عَلى حَال.."[552]

لقد جعل من الزّمن الذي يحيَاه في منتدى نقاد الجنّ هو مَا سيكون عليه من المكانة الأدبية التي يبحثُ عنها في المستقبل حينَ يَعود إلى قومِه، ويعرفُ الجميع مكانة ابن شهيد الحقيقية، إنه يستبق الزمن قبل حلوله.

3/ **ترتيب الأعصر:**

وهذه الخاصية في الترتيب جعلتِ النصَّ القصصي مبنيًّا بناءً تراتبيا في الزمن، فقد انتقل بداية إلى العصر الجاهلي ورتّب الشعراء الذين التقاهم بحسب الفترات الزمنية التي عاشها كل واحد منهم فامرؤ القيسِ عاش بين [496م/544م][553] وطرفة بن العبد عاش بين [539م/564م] [554] وقيس بن الخطيم عاش بعدهما وأدرك الإسلام ومات قبيل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة بفترة قصيرة. [555].إنّها زيارة امتدت قرنا وربع القرن تقريبا..

---

552 / التوابع والزوابع.م.س.ص:135/134

553 / أنظر: ريتا عوض، بنية القصيدة الجاهلية: الصورة الشعرية لدى امرئ القيس، بيروت: دار الآداب، 1992، ص 153- 165 .

554 / الزّوزَني، شرح المعلقات السبع الطوال، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د. ت، ص97- 99.

555 / ينظر ديوان قيس بن الخطيم.تح/ناصر الدين الأسدي .دار صادر بيروت.1967 .

ثم يأتي الترتيب في العصر الموالي وهو عصر العباسيين وكان لقاؤه بالتوابع كما يلي:

أبو تمام والبحتري: وهما معاصران ينتسبان إلى قبيلة طي العربية. وقد تمّ اللقاء في بداية الدّخول إلى مطلع العصر العباسي، وكانت الفترة ما بين[820م./897م] للبحتري و[788م/845 م] لأبي تمام.

وأمّا أبو نواس فقد عاش ما بين [762م/813م] ثم يُختَم لقاء الشعراء بأبي الطيب المتنبي، وهو الذي عاش بين [915م/965م]..

وكما نرى أنّ الزيارة مسحت فترة زمنية امتدّت قرنين، وكانت بين 762م حتى.965م..

وعليه فزيارة الشعراء امتدت في مجملها فترة من الزمن تجاوزت ثلاثة قرون والربع..أي تسعة وعشرون وثلاث مائة سنة..

وفي زيارته لمجلس الخطباء يقلُّ الزمن، ولا يمتدُّ كالذي رأيناه من قبل، لقد بدأه بالعصر الأموي وهو عصر يبدأ تأريخيا من السنة الأربعين للهجرة، غير أنّ أولَ من نجده من هذا العصر هو عبد الحميد الكاتب، وهو لم يُذكر له تاريخ ميلاد عدا سنة الوفاة 132هـ. وتنتهي الزيارة بسَنة وفاة الإفليلي 441هـ .فإذا قدّرنا أن الرسَالة كتبها في سنة 403 للهجرة كما يرى زكي مبارك في النثر الفني ([556]).

[556] /ينظر الباب الثاني الفصل الثاني من هذه الرسالة..

وإذا قدّرنا أن زمن البداية يكونُ بأقل من زمَن وفاة عبد الحميد فإنّ فترة الزيارة تكون مَسْحًا لقرنين وثمانين سَنة .

وعلى هذا يكون الترتيب مبتدئا بامرئ القيس ومنتهيا بزمن كتابة التوابع والزوابع..وهي مسح لفترة زمنية عامة تُقدّر بخمسة قرون وأربعة وثلاثين سنة أي من مولد امرئ القيس سنة 500م إلى وفاة أبي عامر بن شهيد سنة 1034 م.

6/ **السُّرعة والإبطاء:**

كان الإسراع بتوالي الأحداث وإنهائها مختلفا عن الإبطاء بها وإبقائها مدّة يريدها السارد ابن شهيد، فالزمن امتاز عنده بخاصية السُّرعة حين يجمعه في مُدَدٍ مختلفة كالأسبوع والشهر والسنة، ولكنه يبطئ به حين لا يذكره ويجعل القاريء يعيشه مع التابع الذي يزوره ،كأنه لا يهتمّ به من جهة وللإفصاح عن التابع من جهة أخرى، بحيث يترك القارئ يعرفه عن قرب.. فمدة لقائه بقيس بن الخطيم مثلا كانت عابرة جدا، حتى أنّه غضب من عدم إفراد زيارة خاصة به ،لولا أن أحسن التخلص منه بقوله:" علمناك صاحب قنص وخفنا أن نشغلك.."([557])

ومن مواضع الحوار في الرسالة ،ما يجعل السرد بطيئا والزمن كذلك فلا تكاد تمرّ المدّة إلا بعد أن يذكرَ ما يريد من رأي أو يحتجّ بقصيدة أو يصدرَ حكما نقديا.وكذا للكشف

[557] /التوابع والزوابع.م.س.ص:96

عن شخصية المحاوَر، وموقفه منه بالاحترام والتقدير أو الاستهزاء والتحقير، ومثال ذلك ما يذكره في حديثه بتابع أبي الطيب المتنبي حين ينشده لاميته التي مطلعها:

هَاتيكَ دَارهم فَقِفْ بمَعَانِها***تجدِ الدّموعَ تجدُّ في هَمَلانِها..

قال :"فلمّا انتهيتُ قال لزهير :إن امتدَّ به طلقُ العمر،فلا بدّ أن ينفثَ بدُرَر،وما أراه إلا سيحتضر،بين قريحَة كالجَمر ،وهمَّة تضعُ أخمصَه على مفرق البَدر. فقلتُ: هلاَّ وضعتَه على صَلعة النّسر، فاستَضْحَكَ إليَّ وقال :اذهبْ فقد أجزتُكَ بهذه النُّكتة .فقبّلت على رأسِه وانصَرفنا.."([558]) .لقد أظهرَ احترامَه لمحَاوره ،وتقديره له ،ولكنَّه يكونُ عَلى خِلاف ذلك في الاستهزاء والتَّحقير في مُحَاورته للإوزة مثلا ،أو لأبي القاسم الإفليلي ومن ذلك مثلا:

فصاحا(ويقصد بالاثنين الجاحظ وعبد الحميد):يا أنفَ الناقة بن مَعمَر، مِن سكان خيبر! فقام إليه جِني أشمَط ربْعَة وارم الأنف، يتظالعُ في مشيتِه، كاسِرا لطرفه، وزاويا لأنفه، وهوينشد:

قَومٌ هُمُ الأنْفُ والأذنَابُ غَيرُهم***وَمَنْ يُسَوّي بأنْفِ النَّاقَةِ الذّنَبَا؟

فقالا لي: هذا صَاحبُ أبي القاسِم، ما قولكَ فيهِ يا أنفَ الناقة؟ قال: فتًى لمْ أعرفْ عَلى مَنْ قرأ. فقلتُ لنفسي:العصَا مِن العصَيَّة! إنْ لم تُعرِبي عن ذاتك، وتظهري بعضَ

[558] /التوابع والزوابع..م.س.ص: 114

أدواتِك، وأنتَ بينَ فرسَان الكلام، لم يطرْ لكَ بعدَها طائرٌ،وكنتِ غرضا لكل حجرعابر.

وأخذتُ للكلام أهبته، ولبست للبيَان بزتَه، فقلت: وأنا أيضا لا أعرفُ على من قرأت .

قال: ألمثلي يقال هذا؟

فقلت: فكان ماذا؟

قال: فطارحني كتاب الخليل.

قلت:هو عنديفي زنبيل.

قال: فناظرني على كتاب سَيبويه.

قلت: خريت الهرَّة عندي عليه، وعلى شرح ابن درستويه.

فقال لي: دعْ عنك، أنا أبو البيَان.

قلت: لاه الله! إنماأنتَ كمغنٍّ وسط، لا يحسنُ فيطربُ، ولا يسيءُ فيلهي.

قال: لقد علمنيه المؤدِّبون.

قلت: ليس هو من شأنهم، إنمَا هوَ من تعليم الله تعالى حَيث قال:"الرحْمَنُ علَّم القرآنَ خلقَ الإنسَانَ علَّمَه البيَان" .ليسَ من شعر يفسَّر، ولا أرض تكسَّر. هيهات، حتى يكونَ المسْكُ من أنفاسك، والعنبر من أنفاسك، وحتى يكون مساقك عذبا، وكلامك رطبا ،

ونفسك من نفس ، وقلبيك من قلبك، وحتى تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسنه!.. [559] ..

5/**التكرار**:

إذا كان فلاسفة البشرية منذ القديم يقرُّونَ بجَهل مَاهيَة الزمَن، ولا يعتقدونَ بتكرار الزّمَن أو رجوعَه، لكنَّ المخيالَ عند ابن شهيد جعلت الحَادثة الزمنية قابلة لأنْ تتكرّرَ، من حيثُ القيامُ بإسقاط حالات يعرفُها عن الشُّعَرَاء مثلا، ويصفُها بحَالة التابع فكأنّها تتكرّرُ مرة أخرى، ومثال ذلك مَا يراه في حُسين الدّنان تابع أبي نَواس، فالذي قامَ به أبو نواس في زمَنه من مَجالس الشرب والأنس وإنشَاد الشعر يُعيدها كاملة مَعَ التابع في دير حنّة.. ويُعيدُ مَجالس لهوه وأنسِه مع ندَمَائه في قرطبة مَع تابع ابي نواس في هذه الرحْلة، فيتساجلان الشِّعر، ويتنافسان في الخَمريَّات..

[559] /التوابع والزوابع.م.س.ص:125/124

2/ خصائصُ المكان في التَّوابع والزَّوابع:

يأخذ المكان منحى يريد ابن شهيد أن يوحي به إلينا منذ البداية، فمرة يقول:"أرضا لا كأرضنا" ومرّة يقول :"طاعنين في مطلع الشمس" وفي لقاء الخطباء يجمعهم في "مرج دهمان" إنه يوهمنا أن المكان يخضع للخيال، ولا علاقة له بالواقع الذي نعرف، وهذا ما جعلني أصل إلى جملة من الخصائص :

1/ تنوّع المكان:

لقد تنوّع المكان في الرسالة،وهذا بتنوّع الشخصيات والبيئات التي تتحرك فيها،وخاصّة في لقاء توابع الشعراء ،فمرّة صحراء ،وأخرى جنة فيحاء،وأشجار غنّاء وأخرى أودية وعيون ماء،وبرك و قصور وملاعب جنّة،ودور ،ومجالس أدباء في مروج خضراء..واستقرّ المكان حين زيارة الخطباء ،كان لتخفيف الحركة واختصار المسافات الطويلة بين الكوفة وبغداد وقرطبة..

2/القحط والكثافة في ذكرالمكان:

_يكاد المكان لا يذكر في بعض الفصول، حتّى أنّ الكثافة في مساحة كبيرة لا تتجاوز النسب الضئيلة جدا، وخاصة في فصول الوصف، فكأنه لا يجد حاجة في ذكر المكان، ومثال ذلك يصف البرغوث:" أسودُ زنجي، وأهليٌّ وحشي؛ ليس بوانٍ ولا زُميل، وكأنه جُزء لا يتجزأ من ليل؛ أو شُونيزة، أوثقتها غريزة؛ أو نقطةُ مِداد، أو سويداءُ قلبِ قُراد؛

شُربه عب، ومشيه وثب؛ يكمنُ نهاره، ويسري ليله؛ يدارك بطعنٍ مؤلم، ويستحلُّ دم كل كافرٍ ومُسلم؛ مُساورٌ للأساورة، يجُرُّ ذيله على الجبابر يتكفر بأرفع الثياب، ويهتكُ ستر كل حِجاب، ولا يحفل ببوَّاب؛ مناهل العيش العذبة، ويصلُ إلى الأحراج الرَّطبة، لا يمنعُ منه أمير، ولا ينفعُ فيه غيرةُ غيور،وهو أحقر كل حقير؛ شرُّه مبثوث، وعهده منكوث، وكذلك كلُّ بُرغُوث، كفى نقصاً للإنسان، ودلالةً على قُدرةِ الرَّحمَن.."(560) إنّ هذ الوصفَ لم يكن في حاجة إلى ذكر المكان غير مرّة واحدة في تحديد مكمن البرغوث وهو" الأحراج الرطبة".

لكنه يزدادُ كثافة في أخرى حينَ يكونُ الأمرُ على الخلاف من ذلك، فهاهو ينوّع مفردات المكان ويكثّفها في مِسَاحة ضيّقة هي مَجلس نقَّاد الجنّ نسمَعُه يقول:" فاهتزَّ المجلسُ لقوله، وعلمُوا صدقَه. فقلتُ لزهير: من فاتك بن الصَّقعب؟ قال: يعني نفسَه. قلت له: فهلاَّ عرَّفتني شأنه منذ حين؟إني لأرى نزعاتٍ كريمَة؟ وقمتُ فجلست إليه جِلسة المعظِّم له. فاستدار نحوي، مُكرماً لمَكاني، فقلت: جُد أرضنا، أعزَّك الله، بسحابك ،وأمطرنا بعيونِ آدابك.."(561) فقدأوجد: المجلس/مكاني/أرضنا/والهيئات:جلسة المعظم/استدار نحوي..

560 /ابن شهيد.التوابع والزوابع.م.س.ص:125
561 / ابن شهيد. التوابع والزوابع م.س.ص:134

3/ **المُلاءَمَة بين الواقع والمُتَخيَّل:**

لقد لاءَمَ ابنُ شهيد في تخيُّله لأمكنة التوابع في وادي الجن بالتي كانت للشخصيَات في الحَياة الدّنيا والواقع، فامرؤ القيس يختار له ما يناسبُه كأمير من بني كندة، فهذا المكانُ هو:" فأمالَ العِنانَ إلى وادٍ منَ الأوديةِ ذي دَوْحٍ تتكسَّرُ أشجاره، وتترنَّمُ أطياره، فصاح: يا عُتيبةُ بن نَوفَل، بسِقْطِ اللَّوى فحَوْمَل، ويومِ دارةِ جُلجُل، إلاَّ ماعَرَضتَ علينا وجهَك، وأنْشدتَنا من شعرَك، وسمعتَ من الإنسيّ وعرَّفتنا كيف إجازتك له! فظهر لنا فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنَّها تلتهب، فقال: حيَّاك اللهُ يا زهير، وحيَّا صاحبك!..[562]إنّه مكان يناسب صاحبه من حيث كونه مليء بالشَّجر والاخضرار والأطيار. وخذ المكان إن شئت في لقائه بقيس بن الخطيم:" فركضنا ذاتَ اليمين حيناً، ويشتدُّ في إثْرِنا فارسٌ كأنَّه الأسد، على فرسٍ كأنَّها العُقاب، وهو في عَدْوه ذلك يُنْشِد:

طعنتُ ابنَ عَبد قيسٍ طعنةَ ثائر***لهَا نفذٌ لولا الشُّعاعُ أضَاءَها

فاستَرَبْتُ منه، فقال لي زهير: لا عليك، هذا أبو الخطَّارِ صَاحبُ قيسِ ابن الخطيم. فاسْتَبى لُبِّي من إنشادهِ البيتَ، وازددتُ خوفاً لِجُرأتِه، وأنَّنا لم نعرِّج عليه، فصرفَ زهيرٌ إليه وَجْهَ الأدهم، وقال: حيَّاك اللهُ أبا الخطَّار! فقال: أهكذا يُحادُ عن أبي الخطَّار، ولا يُخْطَرُ عليه؟ قال: علِمناكَ صاحبَ قنْص، وخِفنا أنْ نشغلكَ،

---

[562] /التوابع والزوابع.م.س.ص:91

فقال لي: أنشِدنا يا أشجَعيّ، وأُقسِمُ أنَّك إن لم تُجِدْ ليَكُونَنَّ يومَ شَرّ..(563). لقد أصبح المكان في كل زيارات ابن شهيد لتوابع الشعراء والخطباء مألوفا..وهو يصوّرهم بكل جزئيات وعناصر ذاك المكان.. فكان أنْ رسم المكان الجاهلي رسمًا مناسبا للبَيْئَةِ التي نعرفها عن الشعراء الجاهليين، وتنقّل بنا بين بَيدَاء قاحلة وأوديَة ذات أشجار.. وكذلك فعل مع العبَّاسيين حين تمدَّنَ المجتمعُ، وتنقّل من المكان الموغل في الصحراء والبادية إلى المدينة حيث الحاضرة والعمران.

واسقط ما كان مناسبا للبحتري أيضا حين تنقّل إليه في طريقه إلى أبي نواس، فكان أنْ رأى قصرًا عظيمًا به مَلاعب الخَيل مستَعمِلا لفظة فارسيَّة، وهو دلالة الرحلة إلى المدائن ببلاد فارس يقول ابن شهيد :"وجزنا في ركضنا بقصرعظيم قُدّامه ناورد، يتطاير فيه فرسان، فقلت:"لمن هذا القصر يا زهير؟ قال: لطوق بن مالك، وأبو الطبع صاحب البحتري في ذالك الناورد..."([564])

4/ **<u>وحشة المكان</u>**:

يتوهّم القارئ أنّ زيارة وادي عبقر أو وادي الجن سيكون موحشا بل وموغلا في الوحشية التي ارتسمت في أذهاننا ونقلها إلينا المخيال الشعبي، لكنها على غير ذلك، فقد جعل الأمكنة الموحشة مألوفة عندنا، بل إنه جعلنا نأنس وهو يُسمعنا محاورة تابع من

---

[563] /م.س.ص:96

[564] / م.س.ص:102

التوابع، ومثال ذلك، في لقاء قيس بن الخطيم في الصحراء ومصارعة الأسود والوحوش، أو في لقاء أبي نواس في رأس الجبل بدير حانة، أو في لقاء نقاد الجنّ في مجلس كلّه نفور وخوف مثل:".. وكان بنجوة منّا جنّيٌّ كأنّه هضبه لركانته وتقبّضه، يحدّق فيّ دونهم، يرميني بسهمين نافذين ،وأنا ألوذ بطرفي عنه، واستعيذ بالله منه..."([565])فالسجن والجبل قد يشتركان في السارق وقاطع الطريق حين يكونان كمأوى..ولكنهما تحوّلا إلى فسحة أشدّ من فسحة الصحراء حين يركض قيس بن الخطيم باحثا عن ثأر لا تمنعه المسافات الطويلة بين هَجر ويثرب..ويكون الجبل أوسع حين يرتبط بدير عند أبي نواس ليعيش عالمه البعيد عن الواقع لعشرة أيام أو أكثر..

5/**روحانية المكان**: هكذا أعطى المكانَ تسميتَه، وأخذَها من المَواد التي كانَ يكتفي بها في تعلمِه وأخذْه منَ الكتب بقليل الالتمَاح، فالمكانُ لم يوجدْ عندَه اعتباطا، ولم يرحلْ إليه دون تخطيط محكم، وسابق تفكير، كمَا لم يورد دونَ دلالة يمكن أن تشي بالكثير من الحالات المختلفة: النفسية والاجتماعية والثقافية.

إنّ المَواد الروحانية هي مَا يستمدّه روحيًّا مِن وادي عبقر، وهي العبقيرية التي توحِي بها العبارة، هو لم يقلْها لنا، ولم يخبرْ بها أبا بكر، بل لقدْ أوحت مفردة [روح] بمَا يريده، فالمكان صنعه ثم انتسب إليه، فما الذي يمنعُه أن يرتحلَ إلى عباقرة [مثله]

[565] /التوابع والزوابع.م.س.ص:138

يحاورهم ويرسُمُ مكانَ تواجدهم، ويأخذُ منهم ما يريد؟ لقد سحَبَ المكانَ الافتراضي إلى بيته، وأركبَنا معه خياله، يقول لنا عنه ما نعرفُ وما يريدُ أن نعرفَ عنه هو، إنّه ككل الشعراء :" [يستطيعُون] أن يقولوا لنا الكثير عنه، إنهُم لنْ يتردَّدوا فِي أن يَمنَحُوا حلمَ اليَقظة هَذا كل وَاقِعِيَّتَه "[566] كتب عن ذلك مثلا:"...وأقبلت نحونا الرهابين، مشدّدة بالزنانير، قد قَبَضَتْ على العكاكيز، بيض الحَواجب واللِّحَى إذا نظروا إلى المرءِ استحيا، مكثرين للتسبيح، عليهم هدْيُ المسيح، فقالوا :أهلا بكَ يا زهير مِن زائر، وبصاحبك أبي عَامر ! ما بغيتك؟ قال : حسين الدّنّان، قالوا : إنّه لفي شربِ الخَمرة، منذ أيام عشرة، وما نراكما منتفعين به، فقال: وعلى ذلك. ونزلنا وجاؤوا بنا إلى بَيت قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة، قد افترش أضغاث زهر واتّكأ على زقّ خمر، وبيده طرجهارة، وحواليه صبيَة كأظبٍ تعطو على عراره ،فصاح به زهير: حيَّاكَ اللهُ أبا الإحسَان ! فجاوبَ بجَواب لا يُعقل لغلبَة الخَمر عليه..."[567]

---

[566] غاستون باشلار(Gaston Bachelard/ جماليات المكان.تر :غالب هلسا..المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع بيروت:ص :136

[567] / التوابع والزوابع.م.سص:105

6/البيئة الأندلسية:

على الرغم من الرحلة الخيالية، وانتقاله إلى بيئات جاهلية في الجزيرة العربية، وفي العراق وربَط ذلك بكل تابع يزوره، لكن رائحة المكان الأندلسي لم تغب عنّا ولم يستطع ابن شهيد أن يتنازل عنها ولو حاول وأبدع،فخاصية التميّز الأدبي الأندلسي عن المشارقة، جعلت هذه البيئة تنتقل مع كل قصيدة يتلوها، وكل شاهد يذكره، نثراأو نظما :"..إنّ الأندلس يجب أن يكون لها أدبها الخاص الذي يناسب طبيعتها، ولكي يبرهن أن هذا في حيّز المكان، فقد ألّف ابن شهيد "التوابع والزوابع" فإنّه في رحلته تلك يلقي القصيدة تلو القصيدة، ويقارع بها عمالقة الأدب العربي في المشرق فيغلبهم أحيانا أو يستولي على إعجابهم أحيانا، وقد سعى ابن شهيد سعيَه لخلق أدبِ أصيل يكون أندلسيا في روحه وليس فقط في موطنه .."([568]).

فالمكان ببلاد الأندلس ظاهرة قائمة بذاتها عند كل أدباء البلاد وشعرائها، ولها كيانها المستقلّ لطبيعة البيئة وجمال الطبيعة، وكذا المجتمع وما تأثّر به من أهل البلاد الإسبان، من عادات في الأكل واللبس والمسكن، ومن ذلك ما نجده في كلامه عن الحلواء وشراهة البعض بها، وهي وسيلة يتهكّم ويستهزئ بخصومه من معلمي قرطبة وأدبائها، يقول :"..ومن رسالتي في الحَلواء حيث أقول: خرجتُ في لمّةٍ من

[568] /ابن شهيد الديوان .تح/زكي يعقوب.دار الكاتب العربي .م.س.ص:67

الأصحاب، وثُبَةٍ من الأتراب، فيهم فقيهٌ ذو لَقْم، ولم أعرَّفْ به، وغَريم بطنٍ، ولم أشعرله، رأى الحَلواء فاستخفّه الشره، واضطرب به الولَه، فدار في ثيابه، وأسال من لُعابه، حتى وقف بالأكداس وخالط غَمار الناس، ونظر إلى الفالوذَج فقال: بأبي هذا اللمْص، انظروه كأنه الفصّ؛ مُجاجةُ الزنابير، أُجْرِيَتْ على شوابير، وخالطها لُباب الحبّة، فجاءت أعذبَ من ريق الأحبّة.

ورأى الخبيصَ فقال: بأبي هذا الغالي الرَّخيص، هذا جليدُ سماء الرَّحمة، تمخضت به فأبرزت منه زُبدَ النَّعمَة، يُجرحُ باللّحظ، ويذوبُ من اللّفظ. ثم ابيضَّ، قالوا بمَاء البيض البضّ، قال غضٌّ من غَضّ، ما أطيبَ خلوة الحبيب، لولا حَضرةُ الرَّقيب! ولمَح القُبيطاء، فصَاحَ: بأبي نُقرةُ الفضّة البيضَاء، لا تَرُدُّ عن العَضَّة. أبنارٍ طُبخت أم بِنُور؟ فإني أراها كقطع البدُّور؛ وبلوزٍ عُجنت أم بِجَوز؟ فإني أراها عَين عَجينٍ الموز. وموشَّى إليهَا وقد عدَّل صاحبُها بدرهمَين، وانتهشَها بالنّابين، فصَاح: القارعَة ما القارعة؟! هِيه! ويلٌ للمرءِ من فيه! ورأى الزَّلابِية، فقال: ويلٌ لأمِّها الزانية، أبأحشائي نُسِجَتْ، أم من صِفاقِ قلبي أُلفت؟ فإنّي أجدُ مكانَها من نفسي مَكيناً، وحَبل هواها على كبدِي متيناً، فمَن أينَ وصَلت كفٌ طابخِها إلى باطني، فاقتطعتُها من دواجني؟ والعزيز الغفار، لأطلُبنَّها بالثأر! ومشَى إليهَا، فتلمظ له لسَانُ الميزان، فأجفل يصيحُ: الثُّعبانَ الثُّعبانَ! ورُفع له تَمرُ النَّشا، غير مهضوم الحشا، فقال: مهيم! من أين لكم جنَى نخلة مَريم؟ ما

أنتم إلاّ السُّحَّار، وما جزاؤكم إلاَّ السَّيفُ والنار. وهمَّ أن يأخذَ منها. فأثبتُّ في صَدره العَصَا، فَجَلسَ القُرفُصا، يُذري الدُّمُوع، ويُبدي الخُشُوعَ. وما منّا أحدٌ إلاّ عن الضَّحِك قد تجَلّد. فرقَّتْ لهُ ضُلوعي، وعلمتُ أنَّ اللهَ فيه غيرُ مُضيعي. وقد تَجْمُل الصَّدقةُ على ذوي وَفْر، وفي كل ذي كبدٍ رطبةٍ أجْر. فأمرتُ الغلام بابتِياع أرطالٍ منها تجمعُ أنواعُها التي أنطقتْه وتحتَوي على ضُروبهَا التي أضرعَته، وجَاءَ بها وسِرنا إلى مَكانٍ خَالٍ طيّب، كوَصف المُهلَّبي:

خانٌ تطيبُ لِباغِي النُّسكِ خلوتُهُ.....وفيه سترٌ على الفُتّاكِ إنْ فتكُوا.."[569]

لقد ظهرت البيئة الأندلسية في هذا النص، من خلال المحلات التي تختص ببيع الحلواء، وتنوّع أنواعها، وإعجاب الناس بها، والأكثر من ذلك ما جعل ابن شهيد المناسبة مطيّة للإطاحة بخصومه الذين لا يحسنون تذوّق الأدب فكيف بهم يتذوّقون الحلواء، فلم يتأخّر في إطعام أحدهم وقد اشتدّ حزنه، وانسكبت دموعه، وأظهر إليها جوعه، فتصدّق عليه، وهو موضع تجمل فيه الصدقة ، كما قال وفي كل ذي كبد رطبة أجر.

وقد ذكر ابن شهيد قرطبة كحاضرة، وذكر بعض أدبائها، ولعلّ أشهرهم هو ذاته، ولكنه جاء بمن يريد أن يكشف حقيقته أمام كبار خطباء المشرق وهو الإفليلي الذي جعل له تابعا سمّاه بأنف الناقة. كما ذكر القاضي ابن ذكوان، والأديب أبي إسحاق بن

[569] /التوابع والزوابع .م.س.ص:120/119

حمام، وأوّل القرطبيين كان صديقه الذي كتب إليه الرسالة، وهو أبو بكر بن حزم الأندلسي.

7/ **البيئة المشرقية:**

لقد تشكلت الرحلة عند ابن شهيد من عناصرَ عدّة ،فهي الحلم الذي يأمله ويريد أن يجسّده في الواقع، وهي الحقيقة المرّة التي يرى أنّ عصره يعيشها بين أقلام اللغويين وكلام الفقهاء، وهي التحدّي الذي يرفعه في وجوه كل خصومه..وما كان التنقّل من الحائر لحظة الوعي وإدراك الحقيقة، إلا ذاك الذّهاب إلى حيث التعبير عن القدرات التي يتجاوز بها متحدّيه، ويرتفع بها حيث يرى مرتبته في أعلى سلّم الإبداع شعرا ونثرا..

وهذه الرحلة الخيالية، لم يغب ابن شهيد لحظة واحدة عن واقعه، وكأنّه يربط المكان حيث يكتب رحلته، والمكان حيث يحاور التابع..فالزمن له مميزاته التي تشكّل السّرد في خطّه الحركي بين ثالوث الفعل..الماضي /الحاضر/المستقبل..وكذلك المكان بين الواقع حيث هو، والمتخيّل حيث [أرضا لا كأرضنا](570).وكان لكل منهما خصائصه ومميزاته.

الخاتمة:

570 /التوابع والزوابع.م.س.ص:91

يُعْتبَرُ الأدَبُ الأندلسيُّ المُقابلُ المَوضُوعيُّ لمَا أنتجَهُ المشارقةُ منذُ عَصْر بني العَبَّاس الأولِّ ،منْ حَيثُ الغَزارةُ والمَتانَةُ والتّصَوُّرُ الحَقيقِيّ لمُكوّنَاتِ المُجْتَمَعِ الأندَلسِيّ بِكُلِّ أطيَافِهِ العَربيَّة والبَربَريّة والأورُبيّة تَحْتَ غِطاءٍ واحِدٍ هوَ الإسْلامُ.

كمَا يُعتبَرُ ابنُ شهَيد شَاعِرا ونَاثرا أندلسيًّا مِنَ الدّولة العامريَّة، لمْ ينلْ الشُّهرَةَ التي نَالهَا غيرُه كابن خفاجَة وابنِ زيْدُون أو مِنَ الكتَّاب كالفَرَضِي أو ابن بَسَّام أو مِنَ النقّاد كحَازم القرطاجنّي أو ابن حَزْم، ولعلَّ الفَضْل فِي بَقَاءِ ذكرِهِ بَينَنا إلَى اليَوم مَا احتفَظ لهُ بهِ ابن بسَّام منْ نثرٍ وشِعرٍ في الذّخيرة، ومَا قامَ بهِ المحَقّقون بَعْدَ ذلك .

وتُعتبرُ رسَالةُ "التّوابع والزّوابع" أفضَلَ مَا تَركَ ،وأكثرَ مَا لفتَ الدّارسِينَ والمُحَقّقِينَ إليهَا، فهِيَ رسَالةُ ظرفٍ وفكاهَةٍ وأدَب([571]) ينتقلُ مِن خِلالهَا ابن شهَيد مَع تابعِه زهير بن نُمير في رحْلة خيَاليَّة إلى الزَّمن المَاضِي وفِي أمْكنَة مُختلفَة حَيثُ يلتقِي بسَبعَة شعَراء مِن الجَاهليَّة والإسْلام والأمَوي ثمَّ العبَّاسِي ،ومعَ خُطبَاء مِنَ الأمَوي والعبَّاسي.

وكانَ مِنْ حُسن حَظّ ابن شهيد أنَّهُ عاشَ في أحضَان الدَّولة الأمَويّة، ومِن سُوء حظّه أيْضاً أنَّهُ عَاشَ نكبَتَها وفتنَة قُرطُبَة ،واقتتَال أبنَائِها عَلى كرسِيّ الحُكم .ومَا كانَ لذلكَ منْ تَأثيرٍ عَلى المَسَار العَام للمُجتَمعِ بِكلّ مكوّنَاته أيْضًا، وفِي هَذا المَوقع القرطبِي وجَدتُ أنَّ المَكانَ عِبَارةٌ عَن ظلال للأحْلامِ ،فقَدْ حَاوَلَ أنْ يُغَيّرَ المَفُهوم التقليدِي للمَكانِ وللزّمَانِ وإلباسِهما مَا يَراهُ في فِكرِهِ وفلسَفَتِه الإبدَاعيَّة، حيثُ خَرجَ بهما منَ الواقعيّ إلى الافتِراضِي المُتَخيّل، وهَذا الخُروجُ هُو تلكَ الحَالة الحَالمَة ، وبذلكَ فقدْ أسْقَطَ الجِدار الذي يجْعَلُ للمَكان حَدّا .

[571] /سماها في البداية شجرة الفكاهة..

وقد دوّنَ مثلَ غيرِهِ أحدَاثَ عَصْره في إنتَاجِه، كَيْفَ لا والحَالُ يَتحَوّلُ مِنَ النِّعْمَة والرخَاء، إلَى النقمَة والشدَّة والابْتِلاء ؟

وخلصْتُ في الدّراسَة إلى جُمْلة من النقاط أجمَلتُها في مَا يلي:

- 1/ تعتبرُ رسالة "التّوابع والزّوابع" الأنموذج النثريّ الراقي الذي بلغه ابن شهيد فزيادة على أنّها رسالة "أدب وظرف وفكاهة" فهي رسالة ذات محتوى لم يسبقْه إليه أحدٌ في الأدب العربي في المشرق أو المغربِ، لقد رحل إلى وادي الجنّ رفقة تابعه "زهير بن نمير" ليلتقي الشعراء والخطباءَ في أمكنتهم، ومن أزمنة مختلفة ،فمن الشعراء :التقى امرؤَ القيس ،وطرفة بن العبد ،وقيس بن الخطيم، والبحتري وأبا تمام وأبا نواس والمتنبي ،ومن الخطباء التقى الجاحظ وعبد الحميد و الهمذاني ومن الأندلس الإفليلي وابن حمام ...
- 2/ يختار ابن شهيد الشخصيَّة التي يريدُ زيارتَها، ويطلبُ من تابعِه أن يأخذَه إليها ،وقد ذكرَ في البدايَة كيف كانَ اللقاءُ مصَادفَة لحظةَ استُغلقَ عليْه القولُ في (الحائر) ووعدَه زهيرُ بالمساعدة بأنْ يطلبَه متَى شاءَ، ويكونَ له تابعًا وخادمًا .
- 3/ يبني ابنُ شهيد رسالتَه على جواب يظهرُ فيه دفاعِه عن نفسه ،وإن كان بحكمٍ يذكره على لسان صديقه حين قال:" كيفَ أوتيَ الحِكَمَ صبيّا ،وهزَّ بجذع نَخلةِ الكلامِ فاسّاقّطَ عليه رطبًا جنيًّا ،إمّا أنّ به شيطانا يهديه، وشيْصَبانًا يأتيه، وأقسمُ أنَّ لهُ تابعَة تنجدُه، وزابعَة تؤيّدُه، ليسَ هذا في قدرةِ الإنسِ ،ولا هذا النّفس لهذِه النّفس..."([572])

[572] / ابن شهيد :التوابع والزوابع،تح/البستاني.م.س .ص:88

- 4/ الرسالة رحلة إلى عالم الجِن، حَيثُ توابع الشُّعراء والخطبَاء من الذِينَ سبقوا ابن شهَيد أو الذينَ يعَاصِرهم.
- 5/ التقاء البشر بالجنّ ليس بالجديد بل إنَّ ابن شهيد سار على خطى سابقيه، وما ذَكَره اللهُ تعالى في مُحْكم التنزيل، بل لقَدْ ذكر الجَاهليُّون في حكايَاتهم قصَصًا عَن الجِن..." ممَّا جعلَ فكرةَ التقاء عَالم الإنس بعَالم الجنّ أو الشياطين أو انتقالهِ إلى عَالم آخر غير عَالمنا الذِي نَعيش فيه لا يبْدو غريبًا أو بعيدَ التّصوّر..."(573). ويتّخذُ ذالك دليلاً على أنَّ أدبَه بلغَ درجَةً عاليةً ، ومنزلةً راقيةً.

وبعدَ زيارة الشُّعراء ،ينتقلُ إلى زيارة الخُطباءِ حيثُ كانوا في مَجلس واحد ، ومنهُ إلى مَجلس النّقّاد ،وفيه يظهرُ مكانته التي وصلها في النّقد من حَيثُ التّمييزُ بين الجَيّد والرديءِ ،فيحتكمُونَ إليهِ في الذي اختلفوا فيهِ ،ويُعطي الحُجَّة على الحُكم الذي يقدّمُه ،ويرضونَ به .

6/ حَفلتِ الرّسَالة بشخصياتٍ متعدّدةِ المواهبِ ،مختلفة المشَارب ،فمنْها الطبيبُ والكاتب واللغَوي ،والناقد والشاعرُ.بما يوحِي بسَعة اطلاعِه ،وموفورَ معَارفَه.

7/ التوابعُ في الشُّعراء مألوفٌ في التراثِ العَرَبي منذُ الجَاهليَّة، وقد ذَكرَهم اللهُ تعَالى وقال إنَّ الشُّعراءَ يهيمُونَ في كلِّ وادٍ..لكنْ مَا لمْ يألفْه العربُ هو أنَّ يكونَ للخطبَاء [كتَّابُ النثر] توابعٌ أيضَا كالتي للشُّعَرَاء، وهو ما جاء به ابن شهيد:"يلتقي ابن شهيد

573 /مصطفى السيوفي.تاريخ الأدب الأندلسي.م.س.ص:73

في رحلتِه إلى وادي الجنِّ بتوابع الكتاب، وهي فكرةٌ جديدةٌ ولا شكّ، فقد اخترعَها المؤلّفُ لأنَّه لم يكنْ من المَعروف أنّ هناك شياطينٌ توابع الكتّاب".(574)

8/كان موقفُ ابن شهيد من المُعلّمين والمؤدّبين في قرطبَة الكراهةَ والسّخريةَ بآرائهم ورفضِه لها جُملة وتفصِيلا، فقد جَعَلَ من الإفليلي أنموذجا لهم وواسطة قوسِه و مسْقط نِباله، يقول عنه:" ليستْ شيبتُه شيبَة أديبٍ، ولا جِلستُه جِلسَة عَالم، ولا أنفُه أنف كاتبَ، ولا نغمتُه نغمَة شَاعر..."([575])

9/ الدافعُ كانَ شَخْصِيًّا في كتابة الرسَالة، يَهْدِفُ إلى تبيانِ مكانتِه بينَ معَاصِريهِ، و ذلكَ باختراع طريقة جديدَة لم يسبقهُ إليها أحَد، فقد كان في أسواق العرب السَّابقين، من تضربُ له خيمةٌ ينشدُ أمامَه الشعراءُ ما قالوا وما كتبوا: فيجيزُ ويردُّ، ويتسامَع الناسُ بالمجيدين منهم. لكنَّ ابن شهيد بَحَثَ عن الإجَازات بينَ شَخْصِياتٍ في الجَاهليَّة وما بَعْدَها من ذوي الحُظوة والرِّفعة، وتَجاوزَ الشعراءَ ليذهبَ إلى الكتَّابِ المُميّزين، وينالُ منهم الإجازات أيضا..وفي كلّ مَجلسٍ يأتيهِ، ينالُ مَا يريدُ.

10/سارتْ لغةُ الرسَالة بَيْنَ الجدِّ حينَ يُريدُ، والهَزل والسَّخريَّة حينَ يَشَاء . ولم يخلُ مجلسٌ من ذلك، ولو كانَ من مجَالسِ الحَيوَان، فحين يُحَاورالبَغْلةَ، أو الإوزّةَ ،يظهر الجدَّ حينًا ثم ينقلبُ إلى الفكاهَة والظرف، وكلّ ذلك حين يريدُ إسقاط أفكاره على مَن يشَاء أن يحُطّ مِن مكانتِه، فلمَّا علمَ أن الإوزَّة هي لتابع من [كبارهم] أظهر لها النَّصيحَةَ في الأخير بقوله:"يا أمّ خفيف، بالذي جعل ماءك غذاءً، وحشا رأسك هواءً، ألا أيّما أفضل :الأدب أم العقل؟.قالت: بل العقل. قلت:"فهل تعرفين في الخلائق

574 /م.س.ص:78

575 / المغرب في حلى المَغرب....م.س.:72/1

أحمق من إوزّة ،ودعيني من مثلها في الحَبَارى؟ قالت:لا.قلتُ :فتطلَّبي عقلَ التجربَة،إذ لا سبيل إلى عقلِ الطبيعَة.."(576).

-11/الانتقال في لقاء الشعراء كانَ من مكان إلى آخر، وكانَ مقصودًا . في أغلبه الأعَم، ولكن ابن شهَيد جَعَلَ بَعضَ المُصَادَفَات هي التي تلقي أمامَه الشاعرَ، كمَا حَدَثَ في لقاء ابن الخطيم في الجاهلية، وكما حَدث في الطريق إلى أبي نواس حينَ التقى بتابع البُحتُري..

12/الاقتباسُ منَ القرآن الكريم، والتلميحُ إلى قصَّة ميلاد عيسى عليْه وعلى نبيّنا الصلاة والسَّلام، وما ذكرهُ القرآنَ عن هزّ جذْع النَّخلة، فمَا تسَاقطَ من رطبٍ عَلى مَريمَ العذراء، تَسَاقَط عَليه هوَ الإلهَامُ والفكرُ الجَنِيّ والشّهيّ، والنخلةُ العربيةُ وإنْ كانتْ غريبةً في الأندلسِ فَهِي تذكيرٌ بالجَزيرَة العَربيَّة: المَكانُ الأصْلُ لأهلِ الأندَلسِ، فالحَنينُ إلى المَكانِ مَازالَ في القلوبِ والأذهَانِ .

13/ المكانُ المُتَداولُ لا يَذكرُ الصَّحْراءَ في بُعدِها العَربي في الجَزيرة العَربيَّة لعدَم معرفة ابن شهيد بها، ولأنَّهُ لم يعشْ المكانَ إلا مِن خِلال نصُوصِ مَن يذكرُهم مِنَ الشعراء. فالميلُ كانَ في معظمِه للحَدَائق والبسَاتين والبرَك والأنهَار والعُيون الجَاريَة. ولو كانَ الكلامُ عن شَاعر من الجزيرة العربية كامرئ القيس ، ولأنّ عاملَ الإبدَاع هو الأصلُ في الرسالة، فليس مِن الضَّروري أن يكونَ للمكانِ أو الزمَن أيضًا هذا الواقع المَألوف ..

576 / التوابع والزوابع ..م.س.ص:152

14/ تنوُّعُ المَكان في الرِّسالة بينَ مفتوح يمتَدُّ على مَدّ البصر كالصَّحراء ،والبسَاتين والغيطان والبرك والأنهَار والعُيون..وهذا التنوّعُ غلبَ عليهِ الاخضرَار على الرغم من لقاء شعراء عاشوا أغلب حيواتهم في البيداء والصحراء .وكانت الغلبة لإحسَاس ابن شهيد بحقيقَةِ المَكان الذي يعيشُه في قرطبَة الحَاضرة المَليئة بالبسَاتين والأنهَار والقصُور والتّمدّن البَعيد عن الرمَال والبَوادي. وكانَ من هَذا التنَوع المَكان المُغلق كالسِّجن والدّار بَل إنّه جَعَل أبَا نَواس داخلَ سِجن أيضًا ولمْ يتركهُ يتحَرّك خَارجَ حَيّز مَكانيٍّ واسعٍ أو مَفتوح، فهُوَ لمْ يذكره بتاتًا عندَمَا بَدَأَ في التّذاكر مَعَهُ و الإنشاد..والزمَن ربَطه به أيضًا من حَيث اقتصَارُه عَلى مُدّة شُرب الخَمر فقط ...

15/الدّفاعُ الذّكيُّ عن الإنتاج الأدبيّ ،ورفعُه درجَات لا يحسنُها أبناءُ عصرهِ وكتَّاب مصره (قرطبة)..واختصَّ من الجَميع (الافليلي)الذي كانَ يترصّدُ أخطاءَهُ وينشرُها بينَ تَلاميذِه في حَلقات الدّرس، عَلى الرّغم أنّ قرطبَة كانت قاعدَة العِلم وأضْلع الفكر في بلاد الأندلس .فقد كانَ هذا الصِّراعُ هوَ بدَاية النهَايَة.

16/ المكانُ عندَه ضيّق مهما امتدّ ،وعائق أمامه في الضّرب في العمق والابتعاد عن مجتمع يتحكّمُ في فكره رجَالُ الكتاتيب ،يراهُ مجتمعًا غير قادر عَلى الاعتراف بعَبقريتِه ،لذلك فَضَّل الرَّحيلَ إلى وادٍ غيرِ واقعي ،على كثرة مَا في قرطبة مِنَ الوديَان والأنهر..

17/ يذهبُ إلى الزّمن ويعيشُه من خِلال الشَّخصيَة التي يزورُها ،فيتمثّله كمَا يَعرفُه عن صاحبه تمامًا .فليسَ زمنُ الجاهليَّة كالذي للعبَّاسيين أو الذي يَعرفُه هَو في الأندلسِ ويتمَثّلهُ في شخْصيَّة تابع الافليلي (أنف الناقة). بل إنَّ الزمَن يختلفُ في

العصْر الواحد بينَ شخصيَة وأخرى كمَا هوَ شأن تابع أبي نواس الذي لا يُفرّقُ بينَ يَوم وعشْرة..وزمَن المتنبي الذِي هُوَ للجدّ والنشاط..

18/ الرسَالةُ يتفرَّع عنها المَكانُ بينَ حَالات متعدِّدة مِن حَيثُ الصَّلابة والليونَة والسُّيولة..ومنَ حَيثُ الألفة والوحشَةُ، ومنَ حيثُ الضَّيقُ والسَّعةُ..فقد وجَدته على النَّحو التالي في حَالته الأولى:

أ/الصَّلبُ:الجبال

ب/الليِّن: المروجُ والغيطانُ

ج/السَّائل:ماء : أنهار وعيون ووديانٌ وبركٌ.

19/ لقد امتدَّ الزمنُ في الرسَالة أزيدَ من خمْسةِ قرون ، توزّعَ بينَ الجَاهلية والإسلام وبينَ المشرقِ في أغلبِه، والأندلسِ في نهَايتِه..وهي ذاتُ الفُسْحَة الضَّيقَةِ التي اختصّ بهَا الأندلسَ في المَكان، فلمْ يكنْ نصيبُ البلادِ إلا التنقل بينَ سرقسْطة وقرطبَة ..وهذا المَجَال الضّيق هوَ الذي فرَّ منه وخَرجَ إلى فسْحَة أوسعَ وفضَاءٍ أرحَب..

20/ ويوجِدُ ابن شهيد المَكانَ أحَيَانًا في حَركتِه الوصْفيَّة حينَ يلتقي شَاعرًا أو حينَ وصُوله إلى المَجلس حَيثُ الخطباءُ، أو في نادي الجِنّ والحَيوان.. ويكونُ الوصْفُ بحَسَب الشَّخْص المقصُود فكانَ أن قالَ عن امريء القيس الذي أظهرَ نحوهُ احترامًا وتقديرًا كبيرين:"وادٍ من الأوديَة ذي دوْح تتكسَّر أشجارُه، وتترنَّمُ أطيارُه.."(577)..لقد أظهرَ شاعرَه على صُورةٍ منَ الجَمَال في المَكان المتزيَّن بالطيورِ وترنيمَاتِها، والأشجَار وتمَايلاتها..كانَ هذا في مَطلع زيارَة الشعَراء، وفي مَطلع زيَارة الخطبَاء

577 / ابن شهيد التوابع والزوابع.....ص:91

وقد التقوا في مَكان وَاحِد يظهَرُ إعجَابَه بكبيرهم، ومَنْ يريدُه أن يكونَ له مناصِرًا ،يقول عنه:" شيخ أصْلع، جاحظ العَين اليُمْنَى، على رأسِه قلنسوَةٌ بيضَاء طويلة.."(578)..لقد رسَمَ صُورةَ الجَاحظ كمَا رُسِّخت في ذهنِه، لينقلهَا إلى المُتلقي مِن مَكان اللقاءِ فكأنَّها هِي، فوصْفُ الشخصية:" يُكمِّل صُورَة الشخصيَّة في ذِهن القارئ، ولوْ لمْ يتدخَّل السَّاردُ بمثل هذِهِ التقنيَّة فستضَلُّ الشَّخْصِيَاتُ بالنِّسْبَةِ لنَا صُوَرًا غيرَ مكتَمِلَة، بَل إنَّ كثيرَاتٍ منْهَا سَيَغْدُو مُتشَابِهًا"(579)

21/ تنوّعُ المَكانِ بينَ المفتُوح والممْتدِّ كالغيطان والبسَاتين والوديَان ،وبينَ المغلق كالحَانة والسِّجن أو الدّار أو المَجلس ،ولكلِّ مكانٍ له الإيحَاء الذي يريدُ ويقصدُ، ورَبَط ذلك أيضًا بالشَّخصيَّة.

22/ إذا كانت خاصّيةُ الزمنِ لا تقبلَ الإعادةَ أو التكرار فإنَّ ابن شهيد أرادَ أن يعيدَ إلينَا الزّمن الجَاهلي والأمَويّ والعبَّاسي في أمكنة غيرَ التي يَعرفُها ويسكنُها، وهيَ فكرةٌ استعمَلها للدّفاع عَن نَفسِه، إنّهُ الهُروبُ مِنَ الزمَن القرْطبي المَلِيءِ بالفتَنِ والاقتتَال ،إلى المَكان الأوسَع والأرحَبِ.

23/ مُطابَقةُ المَكانِ للشَّخصيَّة التي يزُورُها ،فالأميرُ ليسَ كالطريدِأو المتشرد..والقَويُّ العزيمَة مَاضي الشَّكيمَة ليسَ كالعربيدِ مُعاقر الخمْرة..فمكانُ المُتنبي ليسَ هوَ مَكانُ أبي نواس ،ومَكان امريء القَيس ليسَ هوَ مَكان قيس بن الخطيم .

24/ المكانُ عندَ الحيواناتِ يثير النفورَ والاشمئزازَ،وهذا لمناسبتِه الإسقاط عن تابع الشخصيَّة ،فالحَميرُ احتكمتْ إليهِ في شعر رَأى أن الاحتكامَ أولَى أنْ يكونَ إلى

578 /م.س.ص:.115.

579 / نضال الشمالي: الرواية والتاريخ "بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية"، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، ط1، إربد، عمان، 2006م.ص:184/183.

أنف النَّاقة.. فقد وصفها:" قد أصابها أولَقٌ فهيَ تصطكُّ بالحوافر،وتنفخُ من المناخر.." ([580])الاصْطكاكُ هي عمليَّة يراهَا باشلار بدائيَّةً في إنتاج النَّار حين تكونُ عمليةُ الاحتكاك بينَ حجَرين عندَ الإنسَان القدِيم، وليسَ هذا بالغَريب والحَديثُ عن مخلوقات خُلِقَتْ من نارٍ.

25/ الرحلةُ الخياليَّة تنطلقُ من مكان ضَيّق مألوفٍ(الحائر)وفي لحظة ينجلي فيها الاندهاش ،وتأتي لفظة(حَللتَ) التي تربِطُ المكانَ بالزمَن، فلا يكون الحلولُ خارجَ المكان وخَارج الزمَن.كما ألحقَها بالأرض من خلال بنيَة العبَارة نحْويًّا بمفعُول به هو (الأرض/المكان)وهو ما سيؤدّي الى تفجير مواهبه وقدراته أمامَ (الجنّ). ويجلبهم من أزمنَة مختلفَة، إنّه ينطلقُ منها ليعود إليها إيحاءً يتكوينه الطّيني المشدود إلى الأرض ولو حاول الطّيران بعيدا عنها.

26/البيئة واضحَة الاختلافِ والتباينِ بينَ المشرقيَّة بصحْرائِها وطبيعَة فرسَانها في الصَّيد وملاحقَة الطريدَة ،وبينَ بيئَة أندلسيَّة يحملُها ابن شهيد إلى خمَّارة ببغداد أو دار بالكوفة..وإن كانَ الماءُ قد سادَ النصَّ جلَّه ،فمن العُيون والوديانِ والبرَك والأنهار،يتدفقُ عنصرُ الحَيَاة الذي أرَادَه لإبدَاعِه بالدّرجَة الأولى..

27/ الزمنُ تتَنوّعُ عناصرُه المختلفة كاليَوم والشَّهر والسنة ..فهو أيضا تنوّع في الأعصر التي عاشَها كلّ شخْص زاره، فانتقلَ بنا من عَصْره إلى عصر الجاهليةِ ثم صدر الإسلام فالأموي والعباسي..ليختمه بالأندلسي.

[580] /ابن شهيد :التوابع والزوابع..تح/البستاني:مصدر سابق...ص:147/الأولقُ:الجنون أو شيهه/..

28/اعتبر ابن شهيد أن المكانَ جزءٌ من كيانِه .ورحلتِه اختراقٌ لحقيقَة قرطبَة ،فكان التَّعامل مَعه مشكِّلا لشخصيَّات أخرى غير تلك التي في الواقع، فالافليلي ليسَ ذاك العالم اللغَوي ،ولا ذاك الشّارح لديوان المتنبي ، لكنّه ذالك الشّخص الذي يتصرّف في أفكاره ابن شهيد كمَا يريدُ ،مخترقًا الزمَنَ أيضًا في حُلّة إبداعيَّة.

29/ إذا كنَّا نَعْرِفُ أنّ التَّابعَ كان للشُّعَرَاء فقط منذ الجاهليَّة، وهو مألوفٌ، وَقَدْ أَضَافَ ابن شهيد للنَّاثر تابعًا أيْضًا، وَهُوَ غَيرمَألُوفٍ، لكنْ ما استنتجتُه أيضًا وليسَ بالمَألوف: إنّه جَعَل له تابعَين اثنين فقد كانَ له تابعُه في الشِّعر وَهُوَ زهَير بْن نُمَير،وتابعٌ في النثر أيْضًا هو:"فاتك بن الصُّقْعُب".:"...فاهتزّ المَجْلس لقوْله، وعَلِمُوا صِدْقَه .فقُلت لزهَير:مَن فاتك بن الصُّقْعُب؟ قال : يعني نَفْسَه.."(581)..وهُو مَا لمْ أجِدْ أحَدًا انتبهَ إليْه أو ذَكَرَهُ..

وفي الأخير:ما يجبُ أن أذكرَه هنَا أنَّ ابنَ شهَيد ـ وإنْ اتّبَعَ الغاوينَ الذين يهيمون في كلّ وادٍ، وعمل بما في الموروث العربي من أنّ للشعراء توابع تؤزّهم ،وشياطين تؤيّدهم ،وتساعدهم على التّميّز في قول الشّعروالتّمكّن منه ـ فقد أتى بالجديد من حيثُ أنّ التابعَ للخطيب فقط أيضا...والأكثر من ذلك أن المبدعَ قد يكونُ له أكثرَ من تابع إنْ كانَ متمكّنا من فنُونِ القول شِعْرًا أو نثرًا .كمَا فعَل مع نفسِه حينَ جعلَ زهير بن نمير تابعَه في الشِّعر،وفاتك بن الصُّقعب تابعَه في النقد..

وأقرّ أنّ الأدبَ الأندلسيَّ كلّه ،ورسَالة ابن شهيد كسَابقة في أدَب العَرب مشارقة ومغاربَة ،تحتاجُ دراسَات أكثر عمقا ،وأشدّ تحليلا ،بل إنّ الأمرَ يتطلّبُ إدخال المنتجِ الأندلسِيّ كلّه مخَابرَ البحثِ المعمَّقةِ ،والتَّحقِيقَات الأدبيَّة الدقيقَة البَعيدَة عن الأحكام

[581] /ابن شهيد.التوابع والزوابع.تح/البستاني.م.س.ص:134

المسْبَقة ،والنَّظرة الضَّيّقَة من المشَارقة أو المَغَاربَة على السَّواء، لأنّهُ مِلكٌ للغَة الضَّاد أوّلا، وللإنسَانيَّة كلّهَا بعدَ ذلك..

– والله من وراء القصد.

* **القرآن الكريم.برواية ورش.**

صحيح مسلم. مسلم بن حجاج .تح/نظر بن محمد الفاريابي. أبو قتيبة.:دارطيبة ط.1.2006

المصادر:

1. .أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني الذخيرة في أخبار أهل الجزيرة .تحقيق إحسان عباس
2. أبو عامر بن شهيد .ديوان ابن شهيد ورسائلُه .ابن شهيد .تح/محي الدّين ديب .المكتبة العصرية .صيدا.بيروت.2002
3. أبو عامر بن شهيد الأندلسي : التوابع والزوابع. صحَّحَها وحقَّقَ ما فيها وشرحها وبوَّبها وصدّرها بدراسة تاريخية أدبية .بطرس البستاني دار صادر. بيروت.1996./1967
4. أبو عامر بن شهيد الأندلسي .الديوان تح/ يعقوب زكي. مراجعة. محمد علي مكي. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.القاهرة (د.ت).

1/المراجع العربية:

1. إبراهيم أنيس.دلالة الألفاظ .مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة.1958/
2. إحسان عباس تاريخ الأدب في الأندلس :عصر سيادة قرطبة
3. أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة
4. أحمد بن محمد أبو عمر(ابن عبد ربه) .العقد الفريد.تح : د . عبد المجيد الترحيني .1404هـ. دارالكتب العلمية بيروت
5. أحمد مختارعمر.علم الدلالة ،مكتبة دارالعروبة للنشروالتوزيع.الكويت.1982

6. الأخضر(بن.السايح)/جماليات المكان.القسنطيني.قراءة في رواية "ذاكرة الجسد" منشورات .دارالأديب وهران.2007

7. الآمدي .أبو القاسم . الموازنة بين الطائيين .تح /محي الدين عبد الحميد.(د.ت)

8/ آمنة يوسف .تقنية السرد في النظرية والتطبيق .دار الحوار للنشر والتوزيع .اللاذقية.1997

9/بدرى عثمان.بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ ,بيروت,دار الحداثة.ط.ون ت , 1986م

11/ توفيق الزيدي .أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث.الدار العربية للكتاب ليبيا(د.ت)

12/ الجاحظ (أبوعثمان عمرو بن بحر):الحيوان/ تحقيق وشرح:عبد السلام هارون ،ط 1 شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى. (د.ت)

13/ جان صدقة .رموز وطقوس :دراسات في الميثولوجيات القديمة. لندن، رياض .الريس للكتب والنشر(د.ت)

14/ الجرجاني(عبد القاهر).دلائل الإعجاز.تعليق محمود محمد شاكر.مطبعة المدني القاهرة 1989.

15/جماعة من الباحثين .جمالية المكان: مطبعة قرطبة .الدار البيضاء ط..1988

16/ حازم القرطاجني (أبي الحسن).منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق محمد الحبيب الخوجة دار الكتب الشرقية. (د.ت)

17/ حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي. من منشورات اتحاد الكتاب العربي دمشق 2001

18/ حسن بحراوي .بنيَة الشَّكل الرِّوائي ،المركز الثقافي العَربي .5/الدار البيضَاء 1990

19/ حسن مصطفى سهلول نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياها.."إتحاد الكتاب العرب (د.ط).دمشق (د.ت)

20/ حميد لحمداني. بنية النص السردي. بيروت، المركز الثقافي العربي، 1991م

21/ حميد لحميداني:تحليل النص السَّردي بين النظري والتطبيق.المركز الثقافي العربي. (د.ت)

22/ الخطيب القزويني :الإيضاح في علوم البلاغة ،شرح وتحقيق د:محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل ،بيروت . 1993م.

23/ الرازي فخرالدين:المحصول في علم الأصول .دار الكتب العلمية بيروت. (د.ت)

24/ الزجاجي(أبوالقاسم):الإيضاح في علل النحو:تحقيق :د. مازن المبارك ./ دارالنفائس بيروت .1985.

25/ زكي مبارك .النثر الفني في القرن الرابع الهجري .المكتبة العصرية . بيروت2006

26/سعيد بن كراد: مدخل إلى السيميائيات السردية .دار تينمل للطباعة والنشر ، مراكش(د.ت)

27/ سيزا أحمد قاسم :بناء الرواية ،دار التنوير للطباعة والنشر،بيروت ،لبنان ، ط.1.1985

28/ شاهر الحسن .علم الدلالة .السيمانتيكية و البرغماتية في اللغة العربية .دار الفكر .عمان2001

29/ الشعراوي. محمد متولي .عداوة الشيطان للإنسان .دار القلم ،بيروت1425

30/ صفية مطهري: الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية .منشورات إتحاد الكتاب العرب.2003

31/ طاهر عبد مسلم .عبقرية الصورة والمكان.دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن 2002

32/عادل فاخوري .علم الدلالة عند العرب .دار الطليعة للطباعة والنشر .بيروت 1994

33/عباس حسن . النحو الوافي .(د.ت) دار المعارف .القاهرة.

34/عبد العزيز عتيق،الأدب العربي في الأندلس،دارالنهضة العربية، بيروت(د.ت)

35/عبد الله أبو محمد بن عبد المجيد (بن قتيبة الدينوري) /الشعر والشعراء طبعة ليدن 1902

36/عبد الله أبو محمد بن عبد المجيد (بن قتيبة الدينوري):أدب الكاتب .تحقيق وتعليق محمد الدالي.دار الرسالة(د.ت)

37/عبد الله محمد الغذامي ،تشريح النص ،مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة دار الطليعة للطباعة والنشر(د.ط) بيروت، 1987

38/عبد الملك مرتاض .في نظرية الرواية .سلسة عالم المعرفة .الكويت .1998

39/عبد الجليل منقور.علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي.منشورات اتحاد الكتاب العرب.دمشق.2001

40/عثمان بن جني (أبو الفتح) : الخصائص .تحقيق : محمد علي النجار .دار الكتاب العربي بيروت.

41/العسكري :(أبو هلال الحسن بن عبد الله).كتاب الصناعتين الكتابة والشعر .تحقيق:علي م البجاوي/م أبو الفضل إبراهيم ،المكتبة العربية .بيروت.(1986).

42/العلوي يحيى بن حمزة :الطرَّازُ المتضمن لأسرار البلاغة .مراجعة :جماعة من العلماء دار الكتب العلمية بيروت . (د.ت)

43/علي بن محمد الجرجاني. التعريفات . طبعه وصحَّحه جماعة من العلماء بإشراف الناشر دار الكتب العلمية ،بيروت

44/ علي بن محمد. النثر الأدبي في الأندلس في القرن الخامس"مضامينه وأشكاله.دار الغرب الإسلامي بيروت(1990).

45/ فوزي عيسى.الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي .دار المعرفة القاهرة 2002.

46/ فيدوح عبد القادر.دلائلية النص الأدبي ،دراسة سيميائية للشعر الجزائري .ديوان المطبوعات الجامعية .وهران 1993.

47/ قدامة بن جعفر(أبو الفرج) نقد النثر، تح/ طه حسين، عبد الحميد العبادي ،دار الكتب المصرية ، القاهرة .(د.ت.)

48/ قزيحة رياض .الفكاهة في الأدب الأندلسي :المكتبة العصرية .1998

49/ كامل العبد الله . شعراء من الماضي .منشورات مكتبة الحياة .بيروت 1962.

50/ محمد سيد أحمد المسيّر.عبادة الشيطان .دار الوفاء 1997

51/ مسعد محمد الديب :القصة التاريخية الإسلامية في مصر،دراسة تحليلية نقدية مقارنة (د.ت)

52/ مصطفى الشكعة. الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دارالعلم للملايين ،ط1992،7م القاهرة

53/ مصطفى الضبع .استراتيجية المكان .القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة أكتوبر 1998م

54/ المقري .أحمد بن محمد التلمساني/ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.تح/د.إحسان عباس.دارصادر .1968

55/ مهدي فضل الله. مدخل إلى علم المنطق دار الطليعة .بيروت 1977م

56/ ميشال زكريا ،الألسنية ،علم اللغة الحديث ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت.1983

57/ يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الحديثة، ط 5، القاهرة، دار المعارف.(د.ت).

2/ المراجع الاجنبية المترجمة:

1/ ألان روب قرييه. Alain_Robbe-Grillet نحورواية جديدة. تر:مصطفى ابراهيم مصطفى .دار المعارف مصر

2/ بختين ،ميخائيل .Mikhail Mikhailovich Bakhtin أشكال الزمان والمكان في الرواية ـ ترجمة يوسف حلاق ـ وزارة الثقافة دمشق 1990 .

3/ بول ريكورPaul Ricoeur : الزمن والسرد .الزمان المروي .تر.سعيد الغانمي .دار الكتاب الجديد المتحدة .2006

4/ بييرهنري سيمون.Pierre-Henri Simon تاريخ الأدب الفرنسي،تر/نبيه صقر. منشورات عويدات بيروت ط.1961.1.

5/ تزيفيطان تودوروفTzvetan Todorov :الشعرية..تـر:شكري المبخوت ورجاء بن سلامة.دار توبقال 1987 الدار البيضاء.

6/ج.بنروبي .مصادر وتيارات.الفلسفة المعاصرة في فرنسا.تر/عبد الرحمن بدوي.المؤسسة العربية للطباعة والنشر .بيروت(د.ت).

7/ ديتريتشس (ديفيد) David Dietrichمناهج النقد الأدبي بين النظرية و التطبيق/ دارصادرتر/سامي الدروبي. (د.ت).
8/ستيفن أولمان..Stephen Ullmann دور الكلمة في اللغة.تر/كمال بِشر.دارغريب للطباعة والنشروالتوزيع .القاهرة(د.ت).

9/ ميشال بوتور. (Michel Butor)بحوث في الرواية الجديدة .تر/فريد انطونيوس .مكتبة الفكر الجامعي.بيروت1971.

10/ هربرت ريد . Herbert Read تعريف الفن .تر/إبراهيم إمام. مركز الشارقة للإبداع الفكري(د.ت)

11/ يوري لوتمان ..(lotman youri). مشكلة المكان الفني ، تر.و تقديم /سيزا قاسم دراز. (د.ت)

أ/ القواميس والمعاجم :

1) ابن منظور :لسان العرب مجموعة من المحققين.دار المعارف. القاهرة.(د.ت)
2) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. جمهرة اللغة ، دار الباز 1345هـ
3) برونوين ماتن/فليزيتاس رينجهام .معجم مصطلحات. (د/ط)(د.ت)
4) سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة.."دار الكتاب اللبناني 1985م.
5) عبد النور جبور.المعجم الأدبي. دار العلم للملايين/ط.1.1979 للملايين ، بيروت،1987 م
6) محمد مرتضى الزبيدي .تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق د.حسين نصار.الكويت 1394 هـ - 1974م
7) المعجم الوسيط - مجموعة من المؤلفين القاهرة 1380هـ - 1960م
8) المنجد في اللغة والأعلام..دار المشرق بيروت 1978
10/ميشال العاصي ،إميل بديع يعقوب ،المعجم المفضّل في اللّغة والأدب ،دار العلم للملايين.

ب/الدواوين:

1/ البحتري الديوان ضبطه وصححه .عبد الرحمن أفندي البرقوقي .مطبعة هندية بالموسكي مصر.1911
2/ أبو تمام الديوان .شرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام دار المعارف القاهرة م.2. (د.ت)
3/ ابن زيدون.الديوان . شرح وتحقيق/.محمد سيد الكيلاني (د.ت)
4/طرفة بن العبد الديوان ،اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي .دار المعرفة .لبنان(د.ت)
5/العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيب .الشيخ ناصف اليازجي المجلد الأول دار صادر للطباعة.بيروت1964.

06/ ميشال عاصي إميل بديع يعقوب. المعجم المفضل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت .1987

د/الدوريات والمجلات:.

1) "ألف". مجلة البلاغة المقارنة. الجامعة الأمريكية/القاهرة .عدد.1986.6 والعدد.89/9
2) "نزوى". مجلّة فصلية ثقافية .عدد 30 . أفريل . 2002.سلطنة عُمان.
3) الباحث .مجلة محكّمة تعنى بالبحوث اللغوية والأدبية والفكرية/جامعة عمار ثليجي/ الأغواط.
4) التّقدّم العلمي .العدد 71 .ديسمبر2010 .
5) الثقافة / وزارة الثقافة والإعلام ./الجزائر.ع.1995/115
6) حوليات الجامعة التونسية. سوسة . تونس .العدد..1988.29.
7) دراسات. مج.18.العدد .3/عمادة البحث العلمي الجامعة الاردنية .عمان.
8) مجلة (أداء) المستنصرية/العدد .12/سنة 1985.
9) مجلة الثقافة .وزارة الثقافة الجزائرية .العدد 115 .سنة 1995.
10/مجلة الفكر العربي المعاصر .مركز الانماء العربي المعاصر .بيروت :العدد 19/18عام 1982
11 /مجلة العلوم الانسانية/ قسم اللغة العربية وآدابها . جامعة عباس فرحات. سطيف/ مارس.2006
/ 12
مجلة جامعة تشرين .المجلد 27 رقم 01
13 / الموقف الأدبي .اتحاد الكتاب العرب دمشق .ع.422./2006

الرسائل الجامعية:

1) ابراهيم موسى حاسر .تجديدات الأندلسيين في النثر العربي .(رسالة ماجستير)/جامعة أم القرى .مكة المكرمة .م.ع.س.1988

2) اسماعيل زردومي .فن الرحلة في الادب المغربي القديم.أطروحة دكتوراه دولة.قسم الأدب العربي .جامعة الحاج لخضر.باتنة.1426هـ/2005م.

3) سيزا أحمد قاسم.طوق الحمامة .دراسة وتحليل ومقارنة .رسالة ماجستير .جامعة القاهرة.1971.

4) عبد الله سالم المعطاني/ابن شهيد وجهوده في النقد الأدبي .رسالة ماجستير .جامعة ام القرى .مكة المكرمة .م.ع.س.1977.

5) هيلة عبد الرحمن المنيع ،أبعاد المكان في شاعريَّة المرأة العَربيَّة المُعَاصرَة رسالة دكتوراه (كلية التربية للبنات.) الرياض. 1424هـ.).

مواقع الكترونية:

1/ موقع الكتروني:للدكتور سالم السليمان الخماش.
http://www.angelfire.com/tx4/lisan

2/موقع.الألوكة.:

: http://www.alukah.net/literature_language/0/31914/#ixzz5AyackyHN

هـ/المراجع الأجنبية:

1/.A . Martinet : Connotations , poésie et culture, in to honor R Jakobson, tll
2/. Arnnauld et Lancelot : Grammaire Générale et raisonnée. Paulet Paris,republications
3/ G. Mounin : Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard,
4/ Gaston bachlar.la psychnalyse du feu.édition gallimard.1949
5/ Maritain J .N .Keynes : Studies and exercises in formal logic, 18884, cf J.
6/ -L. Hjelmeslev: pour une sémantique structurale, in Essais linguistiques, copenhague, 1959

الفهرس:

المقدّمة.....أ

الباب الاول: **ابن شهيد عصره وحياته**.....01

الفصل الاول:الحياة السياسية والثقافية في قرطبة:

أ/الحياة السياسية.....03

ب/ الحياة الثقافية.....16

الفصل الثاني:

الحياة الاجتماعية:.....27

الفصل الثالث:

حياة ابن شهيد وسيرته:.....36

الفصل الرابع:

مكانة أدب ابن شهيد في الأندلس:.....53

الباب الثاني: رسائل ابن شهيد النثرية

الفصل الاول:

رسائل ابن شهيد ومصادر ثقافته.....58

الفصل الثاني:

التعريف بالرسالة:.....71

منزلة الرسالة أدبيا :.....84

تاريخ كتابة الرسالة:.....88

الفصل الثالث:

المكان في رسائل ابن شهيد النثرية:.....91

الفصل الرابع:

إحصاء مفردات الزمن :.....101

الباب الثالث: الأبعاد الفلسفية لمفهومي المكان والزمن

الفصل الأول:

المكان والمفهوم الفلسفي:.....107

تعريف علماء الغرب للمكان:.....116

الفصل الثاني:

الزمان والمفهوم الفلسفي:.....119

الزمن لغة:.....121

الزمن اصطلاحا:.....122

الفصل الثالث:

- عناية أدباء الأندلس بالمكان 131

عناية أدباء الأندلس بالزمن:.....152

الفصل الرابع: - علم الدّلالة بين المفهوم والتطبيق:.....156

الباب الرابع: دلالات المكان ودلالات الزمان في التوابع والزوابع.

الفصل الأول:

1/ دلالات المكان في الرسالة.....167

إحصاء مفردة المكان:.....167

الفصل الثاني:

دلالات الزمان في الرسالة:.....191
إحصاء مفردة الزمن:.....196
الليالي والأيام ودلالات الاستعمال:.....198
دلالة الزمن في الفعل: 199
الفصل الثالث:
أيقونة المكان وأيقونة الزمان عند ابن شهيد:
أ/ أيقونة المكان:.....203
ب/**أيقونة الزمن**:.....208
الفصل الرابع :
خصائص الزمان في التوابع والزوابع:.....230
وخصائص المكان في التوابع والزوابع: 241
الخاتمة:.....253
المصادر والمراجع المعتمدة:.....263
الفهرس:.....272